

الكتاب السبعون - أكتوبر ٢٠٠٧

المجلات الثقافية
مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

(الجزء الثاني)

المجلات الثقافية
مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

الجزء الثاني





رئيس التحرير

د. سليمان العسكري



سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات
والموضوعات لكاتب واحد
أو موضوعا واحدًا تتناوله عدة أقلام.

عنوان الكتاب: المجلات الثقافية ... مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة «الجزء الثاني»

تأليف: نخبة من الكتاب العرب

الناشر: وزارة الإعلام - مجلة العربي

الطبعة الأولى: ١٥ أكتوبر ٢٠٠٧

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية:
Depository Number: 2007 /40
ردمك: ٧-٢١٩-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨
ISBN: 978 -99906-0-219-7

العنوان: ص.ب: ٧٤٨ الصفاة -
الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ شارع ٤٧ - قسيمة ٣

Al -Arabi Book, 70 th
Cultural magazines... The task of Reform and the question of knowledge «part2»
15 october .2007
Publisher: Ministry of Information
AL-Arabi Magazine.

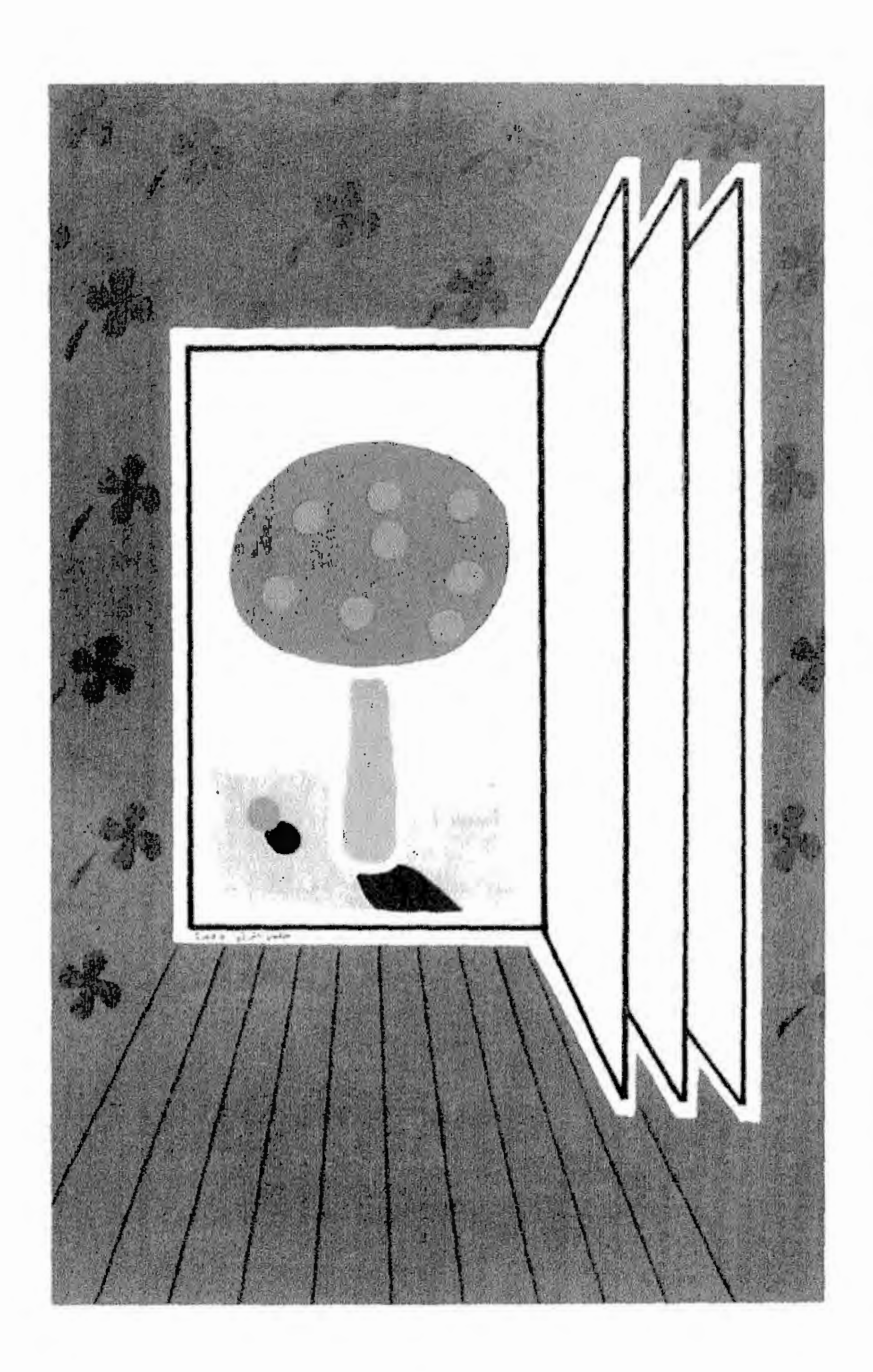
E. mail: alarabimag@alarabimag . net

الغلاف: رسم الفنان : حلمي التوني
تصميم الكتاب : حافظ فاروق

المجلات الثقافية

مهمة الإصلاح .. وسؤال المعرفة

الجزء الثاني



المحور الأول

مجلات الخليج العربي شاهد على التطور الثقافي والاجتماعي

- د. محسن بن حمود الكندي
- عبدالله الصالح العثيمين
- أحمد الديين
- د. نواف عبد العزيز الجحمة
- د. محسن الموسوي

الصحافة العمانية ودورها في الإصلاح الثقافي صحيفة «الفلق» نموذجًا

د. محسن بن حمود الكندي *

تتسم ملامح البيئة الثقافية في عمان في القرن العشرين بأشكال متميزة تمتد على مساحات تاريخية وجغرافية واسعة، ويمكننا أن نقف على تلك الأشكال من خلال دراسة الصحافة باعتبارها أهم مصادر التيارات الثقافية المساهمة في صياغة الخطاب الثقافي الحديث وبلورة دور الإصلاح والتنوير. وسوف يكون وقوفنا عبر اتجاهين عرفتهما عمان في تاريخها، وهما المهجر، والموطن، كما أننا سنستظل بمرحلتين حاسمتين في تاريخ الحياة الثقافية في عمان وهما: مرحلة ما قبل النفط، ومرحلة ما بعد النفط. النفط كما يعرفه الدكتور إبراهيم غلوم: «ليس مقصودا هنا لذاته» كمادة خام «وإنما لأنه محرّك أساسي لمظاهر الحياة المختلفة، خاصة أن تأثيراته على الحياة الثقافية متصلة بمفاهيم إيجابية وأخرى سلبية، فالأولى جعلت منه مصدرا حديثا للطاقة والثروة، وميدانا عريضا لنشاط القوى العاملة، ومحرّكا للإنتاج الجديد، وظرفا تاريخيا حاسما لسلسلة من التغيرات السكانية ولظهور حركة التحديث والتنمية والانفتاح» . أمّا الثانية فترجع إلى

* كاتب من سلطنة عمان.

خلق أشكال التوتر والصراع؛ والتسريع، والهوة الثقافية، والانقسام بين القديم والحديث، والصراع بين التقليدي والمحدث، والرســمي والشــعبي...». ونحو ذلك من المعضلات ذات الصلة المباشرة، وغير المباشرة بالحياة الثقافية، التي لا تعدو أن تكون خيطا من خيوط الواقع الثقافي وبيئة خصبة للإصلاح.

أمّــا الإصلاح الثقافي فنعني به المرادف للتنوير، وهو ما عرفه الباحثون بـ «أية ممارســة فردية، أو جماعية، أو خطابية، أو مؤسســية تهدف إلى تحويل بعض الأفكار، وبعض المعتقــدات، وبعض القيم التي نعتقد أنها «تنويرية» إلى مشــروع، أو برنامج يهيمن على غيره، سواء بهدف تهميشه، أو بهدف نفيه، أو محوه، وإزالته، ويمكن اكتشــاف تجلياته في نماذج معينة من الصحافة، ولكن قبــل بيــان مظاهره في الصحافة لا بدّ أن نطرح أســئلة تتصل بمدى تحقيق صحافتنــا العمانية لهــذه الأهداف، وما هي النماذج الأكثــر وعيا بها ؟، وما مكونــات هذا الإصلاح وما حــدوده ؟، وأخير ما هي العوامــل التي أدت إلى ذلك ؟

والإجابة مرهونة باستقراء أطروحات هذه الصحافة عبر محوريها المحلي والمهجري:

أولا: الصحافة المحلية في عمان:

ارتبطــت الحياة الثقافية في عمان بتاريخ الصحافة؛ ذلك التاريخ الذي بدا قاتما في مراحل، ومشــعا في مراحل أخرى، وفي ظل هاتين الصورتين يمكن تمييز مرحلتين هما مرحلة البواكير والريادة ونســجل فيها سبقا تاريخيا على المســتوى الوطني يعكس معادلة الريادة المسّجلة لبعض دول الخليج (البحرين والكويــت)، ومرحلة الازدهــار والتطور ونبرز فيها أوجــه النمو المطرد الذي شــهدته الصحافة العمانية في نهضتها المعاصرة (١٩٧٠ - ٢٠٠٦)، وكل ذلك في سياق بيان المرجعيات والخلفيات التاريخية لدور الإصلاح والتنوير:

أ - الصحافة العمانية في مرحلة البواكير:

نســجل لصحيفــة «فتح البصائــر» التي صــدرت في مســقط بتاريخ ٢ يناير١٩٠٠ (٥) سبقا يؤرخ بداية صدور الصحافة في الخليج العربي ويناقض ما أشــار إليه بعض الباحثين، بأن مجلتي «الكويت» التي أصدرها المؤرخ عبد العزيز الرشيد عام ١٩٢٨، و«صوت البحرين» التي أسسها عبدالله الزائد عام ١٩٣٩ - رائدتــا الصحافة في الخليج. كما نثمّن الجهود التي بذلها العمانيون

في إصدار الصحف في ذلك الوقت العصيب، والتي من بينها صحيفة «الحق» في مسقط في أوائل الثلاثينيات ، وثلاث عشرة صحيفة تعود أقدمها إلى عام ١٩١١، وهي على التوالي: النجاح ١٩١١، النادي١٩١١، ، اللواء (١٩١٥ تقريبا)، الجريدة الرسمية (ملحق الجازيت) ١٩٢٥، الفلق ١٩٢٩ زنجبار ١٩٢٩، الإصلاح ١٩٣٢، الشروق ١٩٤٥، النهضة ١٩٤٩، المرشد ١٩٥٤، المعرفة ١٩٥٧ الأمة ١٩٥٨، مجلة المعلمين ١٩٥٨.

أمّا في مجال توزيع الصحف، فقد توصّلنا إلى أن أقدم الصحف التي كانت تصل إلى مسقط وتوزّع فيها هي صحيفة «الفيحاء» الصادرة في بيروت عام ١٩٢٩ . وكذلك الصحف التي كان يصدرها بعض أعلام الإباضية من مثل صحيفة «الأسد الإسلامي» التي أصدرها سليمان الباروني في القاهرة عام ١٩٠٨، وصحيفة «المنهاج» التي أسسها أبو إسحاق اطفيش عام ١٩٢٥، فمثل هذه الصحف وغيرها كانت تصل إلى عمان وتوّزع فيها ولو بشكل غير منتظم.

وتجاوبا مع آفاق الحياة الثقافية، كان بعض المثقفين في عمان يراسلون هذه الصحف وينشرون فيها بعض إنتاجهم الفكري، ونحن نقع على إحدى وعشرين قصيدة وخمس وأربعين مقالة متنوعة نشرت في صحافة وادي ميزاب بالجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، وذلك على النحو التالي:

الصحيفة	عدد القصائد	عدد المقالات الأدبية
النور	٣	٤
الأمة	٣	٣
المغرب	٣	٦
وادي ميزاب	٦	١٦
البستان	٢	٤
النبراس	٣	٨
الفرقان	١	٤

ولم يقتصـــر تفاعل العمانيـــين مع الصحافة علـــى تلك الصحف فحســـب، وإنما تابعوا مجلة «الكويت» ووجدنا بعضا من أعدادها في مكتبات المشايخ وقد نشـــرت لأبي مسلم البهلاني قصيدته «النونية». كمـــا أن بعض قضاة مســـقط كانت تصله مجـــلات وصحف: «المنار» و«الأهرام» و«الهلال» و«الرســـالة» و«الكويـــت» وبعض الصحف التي كانت تصدرها الجمعيات الإسلامية في الهـــند.

ومع بداية الستينات من هذا القرن زاد اهتمام الناس بالصحافة، فقد توسّـــعت مداركهم، وتطور وعيهم بحكـــم خروجهم إلى مختلف الأقطار العربيـــة والتحاقهم بالمدارس والجامعـــات، ومنهم من وجد في نفســـه القدرة على الكتابة، وأخذ ينشـــر فـــي الصحافة العربية، وقـــد تدفقت على مســـقط - التي غدت عاصمة عمـــان الموحدة - الصحف بمختلف اتجاهاتها من القاهرة وبيروت والكويت، وأصبحت الصحافة تلقى رواجا في عمان بأسرها.

ب - الصحافة العمانية في مرحلة التطور:

رغم الإقبال على الصحافة قراءة ومتابعة لم يكتب لعمان أن تعرف الصحافـــة المنتظمة إلا في عام ١٩٧٠، إذ عاشـــت فـــي فجوة كبيرة جاوزت مدتها خمســـين عاما (بـــين أول صحيفة صدرت عام ١٩٠٠، وآخـــر صحيفة صدرت قبل عام ١٩٦٩)، وكان ســـببها حالة الجمود الفكري، وتثبيت روح العزلة، وإشـــاعة الفوضـــى والاضطراب الذي عاشته البلاد. وإذا كان من خلاص لهذا الوضع، فقد تم عام ١٩٧٠، عندمـــا فتحت النهضة المعاصرة منافذ الحضارة الحديثة بتأســـيس وســـائل الإعلام المختلفة التـــي كانت الصحافة أهـــم ركائزها، فبلغ عدد الصحف والمجلات والدوريات بحلول عام ٢٠٠٦ حوالي ســـتين صحيفة ومجلة ونشـــرة. وكانت أولى هذه الصحف صحيفة «الوطن»

الصحيفة / المجلة	تاريخ الصدور	المحرر المسؤول	الجهة الصادرة عنها	اتجاه الصحيفة / المجلة
الوطـــن	٢٨ / ١ / ١٩٧١	نصر بن محمد الطائي وآخرون	أهلية	يومية / سياسية / جامعة

عمـــان	١٨/ ١١ / ١٩٧٢	وزارة الإعلام	حكومية	يومية / سياسية / جامعة
الجريدة الرسمية	٢٧ / ٤ / ١٩٧٢	وزارة الإعلام	حكومية	شبه شهرية
العقيـــدة	٢٣ /١٠ / ١٩٧٢	أهلية	سعيد سمحان الكثيري	أسبوعية / دينية
جند عمان	١ / ١ / ١٩٧٤	وزارة الدفاع	حكومية	أسبوعية / عسكرية.
الأضواء	١٢ / ١ / ١٩٧٤	أهلية	-	أسبوعية / ثقافية.
الأسرة	٤ / ٧ / ١٩٧٤	أهلية	صادق عبدواني	أسبوعية / اجتماعية.
تايمز أوف عمان	٢٣ / ٢ / ١٩٧٥	وزارة الإعلام	-	يومية / سياسية / جامعة
نسور عمان ×	١ / ٦ / ١٩٧٥	وزارة الدفاع	-	نصف شهرية / عسكرية
الوحي ×	١٦ / ٨ /١٩٧٦	وزارة العدل والأوقاف	خلفان بن محمد الرواحي وآخرون	شهرية / دينية
السراج × (٤١)	١٥/ ٢ / ١٩٧٦	أهلية	سالم النيلاني	شهرية / ثقافية
مجلة الشرطة	١٨ / ١١ / ١٩٧٦	شرطة عمان السلطانية	-	شهرية / عسكرية
الغدير ×	١٠/ ١٢ / ١٩٧٧	أحمد الفلاحي	أهلية - نادي المضيرب	شهرية / ثقافية
التجاري	١ / ١١ / ١٩٧٨	غرفة التجارة والصناعة	-	شهرية / تجارية
الإداري	١ /١ /١٩٧٩	معهد الإدارة العامة	-	شهرية / إدارية
رسالة المسجد×	١ /١ / ١٩٨٠	الديوان السلطاني	صالح الصوافي وآخرون	شهرية / دينية

العمانية ×	١ / ١ / ١٩٨٠	جمعية المرأة العمانية	متعدد	شهرية / اجتماعية
الأوبزرفر	١٩ / ١١/ ١٩٨١	يومية / جامعة.		
الثقافة الجديدة (١٥) ×	يناير ١٩٧٥	حمد الراشدي وزملاؤه	النادي الوطني الثقافي	شهرية / ثقافية.
النهضة	٢٣ / ١٠ /١٩٨٥	أهلية	طالب المعولي	أسبوعية / جامعة
الشبيبة (١٦)	٢ /١/ ١٩٩٣	أهلية	أنيس الزدجالي	شهية جامعة
نزوى	١ / ١١ / ١٩٩٤.	وزارة الإعلام	سيف الرحبي	ربع سنوية / ثقافية
المعالم	يوليو ٢٠٠	أهلية	عبدالله العيسري	شبه شهرية / ثقافية
الرؤيا	يونيو ٢٠٠١	أهلية	حاتم الطائي	شهرية / ثقافية
زوايا ثقافية	اغسطس ٢٠٠٦	حكومية	وزارة التراث والثقافة	ربع سنوية

التي أسسـها نصر الطائي تلتها صحيفة عمان التي أصدرتها وزارة الإعلام بجهود الشـاعر عبدالله الطائي، وتوالت بعدها الإصدارات الصحفية على النحو الذي يقدّمه الجدول السابق.

وقد اسـتقطبت هذه الصحـف الأقلام العمانيـة والعربية من مختلف الاتجاهات، واسـتوعبت البحوث والدراسات والتحقيقات والأخبار، كما ناقشـت القضايا الاجتماعية والأدبية والسياسـية والثقافية.

ومـن جهة أخرى لـم تكن عمان «الداخل» تعـرف الصحافة على امتـداد تاريخهـا الطويل؛ نظـرا لحالة الانغلاق التـي أطبقت على المجتمع، بل إنه كان بحكم تزمته الديني والاجتماعي، يرفض مطالعة الصحف، ويعّدها رمزا للحداثة الطارئة، وأسلوبا من أساليب الغواية والضلال، بل بدعة تلهي عن التعليم الديني، وكانت السلطات الدينية (الأئمة والقضاة) تؤثـر الانكباب على الثقافة التقليدية مما دفع بها

إلـى حجر وصول الصحف إلى الداخل، لاسـيما التي كانت ترد من زنجبار.

هـذه أهم نمـاذج الصحافة العمانية التي صـدرت في عمان في مرحلتي البواكير والتطور، ولا يمكن - بأي حال من الأحوال - فصل تاريخها عن تاريخ المطبعة ودور النشر، ذلك أن ازدهار وسائل الطباعة وتقدمهـا مرتبط بازدهار الصحافة . وفي عمان حيث بدأت مظاهر النهضة الحديثـة متأخرة عن البيئات الأخـرى، وجدنا المثقفين من أبنائها يحاولون مواكبة النهضة في الوطن العربي، ودفعتهم سـرعة المواكبة إلى إصدار الصحف قبل إحضار المطبعة، إذ وجدنا الصحف الأولـى (كجريدة الوطـن) تطبع في بيروت والكويـت، ولكن هذا لم يكـن يعني عدم أهميـة وجود المطبعة لازدهـار الصحافة؛ فالمطبعة الركن الأهم في النهضة الثقافية، وهي التي أشـهرت الفنون الأدبية الحديثة وسـاعدت على تطويرهـا، ورغم ذلك فقـد ظلت المطبعة تمثل المعضلة الرئيسـة لتقدم الصحافة في عمان، ففي الوقت الذي كتـب لها أن تطبع في الخارج اعترضتها مشـاكل الصدور وتعرضت لتأخير الوصول، واختلف موعد متابعتها لدى القارئ، وهي حين قدّر لهـا أن تطبع في الداخـل تعرضت للتكاليف الباهظـة المبالغ فيها، كمـا اصطدمت بقيود الرقابة الإعلاميـة . وكل ذلك حد من معطى الإصلاح والتنوير الذي تاقت إليه.

وإذا جئنـا للمطابع الحديثة التي وجدت في عمان بعد عام ١٩٧٠ - وكان لـها دور غيـر مباشر في طبـاعة الصحـف، ذلـك أنـها هيئة للكتـاب والمبدعين لطباعة إنتاجهم الذي هـو مادة الصحافة، فسـنجد نماذجها ماثلة في: «المطبعة الحكوميـة لصحيفة عمان» ، و«مطبعة جامعة السلطان قابوس» ، و«مطبعة دار العقيدة» ، ومطبعة «مزون» ومطبعة الألوان، ومطبعة الباطنة، و«المطابع العالمية، والمطبعة الشـرقية ومطبعة العنان. وكل هذه المطابع وغيرها تمين الصحافة، وتلعب دورا في الإصلاح الثقافي.

ثانيا: الصحافة العمانية المهاجرة:

ونقصـد بها تلـك التي صدرت خـارج الوطن لظروف سياسـية

وحضاريــة وتربويــة، واضطلع بهــا العمانيون في المهاجــر العربية والإفريقية والأوربية ونميز منها ثلاثة أنواع هي:

أ - الصحافة العمانية في المهاجر الأوربية:

ونمثل لها بمجلة «المعالم» التي أصدرها في لندن عبدالله العيسري في يوليو من عــام ٢٠٠٠، وقد عنيت بالخطاب الإصلاحي في إطار توجهها الديني / الثقافي.

ب - الصحافة العمانية في المهاجر العربية:

وهي نوعان:

١ - صحف أندية الطلبة: وهي لا تخرج عن كونها منشورات، قصد بها إظهار الأنشــطة الطلابية، وقد عنيــت بالجانب التربوي المنوط للطالب، ونماذجها نحصرها فــي كل مجلة (الطالب) التي أصدرها طلبة سلطنة عمان بالقاهرة عام ١٩٧٩، ومجلة (جبرين)التي أصدرها طلبة ســلطنة عمان بالأردن، و(الرائد) التي أصدرها طلبة ســلطنة عمان بالإســكندرية في أبريل ١٩٨٥، و(المزون) التي (أصدرها طلبة سلطنة عمان بالبحرين عام ١٩٨٥، و(الشبيبة) أصدرها طلبة سلطنة عمان بدولة قطر عام ١٩٨٣.

٢ - صحــف جبهة تحرير عمان: نحددها بالمنشــورات والصحف والدوريات التي أظهرتها جبهة تحرير عمان (١٩٦٥ - ١٩٧٥) في عدد من الأقطار العربية مثل (عدن - دمشــق -بغداد) وعبّرت عن أشكال الخطاب السياســي المكــرس لأهداف تلك الحركــة، وكانت تحرص على انتقاء الظواهر الاجتماعية والسياسية الحسّاسة. واستخدمت في ذلــك المقال النقــدي الذي يبــرز التناقضات ويخــدم القضايا الأيديولوجية، كما حرصت على بث روح الصراع، واعتمدت على أبناء الجبهة ممن تغذوا بالأفكار اليسارية، وتوغلوا في حقيقة مرجعياتها، ولــذا أصبح الواقع الثقافي في الســتينيات وبداية الســبعينيات من خلال هذه الصحف أمام خطاب سياسي دفع إلى إبراز مشاكله بشتى الطرق الممكنة. وهنا نقف مدللين عليه بما قدّمته الصحيفتان الأكثر شهرة في محيط الجبهة وبالذات في إقليم ظفار:

الأولى: صحيفــة «الأرض» وقد أصدرها الاتحــاد الوطني لطلبة

عمان بدمشق بإشراف لجنة الثقافة والإعلام، وقد نشرت مواضيع اجتماعية تتعلق باحتكار التجار لبعض السلع الاستهلاكية، وكذلك نقد ممارسات المسؤولين في الأجهزة الحكومية. والثانية «مجلة ٩ يونيو» وهي نشرة شهرية أصدرتها الجبهة الشعبية الديمقراطية العمانية، وقد اضطلعت بنشر قضايا تتصل بالوضع الإداري والسياسي والاقتصادي. كما أنها تجرأت على الكتابة في مواضيع اجتماعية حسّاسة كقضايا المرأة، والعمل والعمال، والفقر والغنى، ووتوزيع الثروة النفطية، وغلاء المعيشة، والإنفاق على التسلح، والعمل النقابي، والاتحادات الطلابية.

كل هذه المواضيع شكلت محور جرأة على الوضعية الثقافية العمانية في فترة الستينيات وبداية السبعينيات، ورغم أنها حققت مطلبا سياسيا وفكريا للجماهير المنتمية «لجبهة تحرير عمان» فقط إلا أنها لم تحقق قيما سياسية أو أدبية للرافضين لها، بل أبعدتهم عنها؛ لأن النوايا كانت واضحة، وخطط هذه الصحافة كانت مرسومة بأفكار الجبهة المعروفة.

ومن جانب آخر، فإن هذه الصحافة لم ترسّخ حسّا ثقافيا يذكر، أو توجّها فكريا أدبيا يلمس، لأن القائمين على أمرها لم يكونوا مهيئين للعمل الثقافي، وإنما عسكر مقاتلون، ولأن قراءها قلة، ومادتها محصورة في أخبار المنجزات التي تحققها الجبهة ومواضيعها منصبة على أهداف الحركة ومبادئها؛ لذا جاءت انفعالية ذات صيغة تشهيرية / ذرائعية. ولذا فإننا نرى أن هذه الصحف رغم تناولها لبعض القضايا الاجتماعية المهمة تاريخيا، لا تحتوي على قيم ثقافية راسخة، فقصارى ما يوجد بها أخبار لأنشطة وتحقيقات لقضايا تخدم قضية الصراع السياسي، ولهذا بدت بعيدة بعض الشيء عن قضايا الإصلاح؛ لمحدودية انتشارها، وعدم تقبل المواطن في عمان لأطروحاتها اليسارية.

ج – الصحافة العمانية في المهاجر الإفريقية:

ونعني بها مجموع الصحف العمانية التي صدرت في المهجر العماني الإفريقي، وشكلت – منذ صدورها المبكر في أوائل القرن العشرين

- وثيقة تسـجيلية مهمة لفترة دقيقة مـن تاريخ الثقافة العمانية في شرق إفريقيا، حيث المهجر العماني الخصب والغني بكثير من الرؤى والتطلعات الحضارية التي خلفها العمانيون على مختلف مسـتويات: السياسية والاجتماعية والثقافية. وهي فترة تقترن بمسافات الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما صحبهما من قلق سياسـي واضطراب اجتماعي، أنتج أشـكال الفقر والعوز والهجرة والتشتت على الصعيد الاجتماعي بالتحديد. كما اقترنت هذه الفترة من ناحية أخرى بظهور خطاب ثقافي جديد أسسه المصلحون التنويريون في عمان وخارجها، لتخوض البلاد نشـاطها الثقافي عبـر الصحافة والتأليف التاريخي والفقهي والأدبي من خلال قصائد الشعر والمنظومات الوثائقية التي تحفظ للأمة هويتها بعد حالة التشتت والتبعثر.

لقـد كانت مهمـة أولئك التنويريـين صعبة للغايـة؛ لأنها انبثقت من تحولات خطيرة على المسـتوى السياسـي والاجتماعي، وحددت مسارها رغم محدودية الإمكانات في مجتمعهم ومهجرهم الشرقي، ذلك المهجر الذي اتجهـت إليه أفواج العمانيين بدءا من القرن الأول الهجري، ويتمثل في زنجبار والجزيرة الخضراء، وممباسا، والكونغو، وتنجنيقا، وموزمبيق، وغيرها من بقاع السـاحل الإفريقي ، ومن تلك الأماكـن المتعددة صدرت الصحافـة الـعمانية ممثلة فـي النمـاذج التالية :

١ - النجـاح: وهـي صحيفة شـبه أسـبوعية جامعة صدرت في الثاني من تشرين الأول - اكتوبر - من عام ١٣٣٠ هـ / ١٩١١ م، في أربع صفحات، وتعدّ أول صحيفة عمانية بالمعنى الحقيقي للصحافة تصدر في سـلطنة زنجبار، فقد أصدرها حزب (الإصلاح) واتخذت لها شـعارا من العبارات التالية: شعار (النجاح لحزب الإصلاح) «إن أريـد إلا الإصـلاح ما اسـتطعت» و(كل من ثابر علـى العمل أدرك النجاح).

وتناوب على رئاسـة تحريرها الشـيخ ناصر بن سـالم بن عديّم الرواحي / البهلاني (أبو مسـلم)، والشيخ ناصر بن سليمان اللمكي، والشـيخ محمد بن على بـن عامر الطائي، وفي عهد الأخير اتسـع

نطاق توزيـــع الصحيفة وازداد اهتمام الناس بهـــا، كما أقبل كثيرون على قراءتها، فوصلت النجاح إلى أوج قوتها، ولكن لم يكتب لها طول العمـــر، ففي تموز / يوليو من عام ١٩١٤ نفي المحرر الشـــيخ ناصر اللمكي إلى الهند، وبابتعاده احتجبت الصحيفة وكان احتجابا أبديا.

هذا وقد عمل في هذه الصحافة جملة من الصحافيين نذكر منهم محمـــد بن على بن عامر الطائي الذي يعده الباحث .... أول صحافي عربي عماني في زنجبار.

٢ - النـــادي: وهي صحيفـــة أصدرها الحزب الوطني عام ١٩١١، واعتنى بتحريرها الشيخ حارث بن سليمان اللمكي، وكانت تطبع بآلة (الرونيو) وتصدر في محيط ضيـــق، كما أنها كانت توزع مجانا على بعض الأشخاص.

٣ - النهضة: وهي صحيفة سياســـية ثقافية جامعة، صدرت عام ١٩٤٩، وغلب عليها طابع المقال السياسي، أصدرها السيد سيف بن حمود بن فيصل البوســـعيدي، إثر اعتذاره عن رئاسة تحرير صحيفة «الفلق» التي مكث فيها زهاء خمســـة عشر شـــهرا، وأسهم في كتابة مقـــالات «النهضة» أعضاء الجمعيـــة العربية في زنجبـــار والمناطق المجاورة لها.

ولم تهادن الصحيفة الحماية البريطانية في شرق إفريقيا، ؛ لذلك أوقفـــت بأمـــر المقيم البريطاني عام ١٩٥٣ م، وفـــي عام ١٩٥٤ أعاد أحمد بن محمد بن ناصر اللمكي إصدارها، واســـتمرت في الصدور حتى عام ١٩٥٥.

٤ - المرشـــد: أصدرهـــا أحمـــد بن ســـيف الخروصي عـــام ١٩٥٠ لتخاطب العرب الذين يتحدثون باللغة الســـواحلية، وانتهجت الخط نفســـه في مهاجمة الحمايـــة البريطانية للجزيـــرة، وعندما ظهرت الأحزاب السياســـية في زنجبـــار والجزيرة الخضـــراء انضم كتاب الصحيفـــة إليها. ظلت الصحيفة مســـتقلة تصـــدر بثلاث لغات هي العربيـــة والســـواحلية والانجليزيـــة، وذلك حتى عـــام ١٩٥٤. وأبرز كتابها: سعود بن محمد الريامي، وعلى بن محسن البرواني، والشيخ هاشل بن راشد المسكري، وأحمد بن محمد اللمكي.

٥ - الأمة: أصدرها حزب الأمة في زنجبار عام ١٩٥٨ م، إثر حصوله على مطبعة عربية من الصين الشعبية. ولقد استمرت هذه الصحيفة في الصدور كلسان حال الحزب حتى عام ١٩٦٣.

٦ - الإصلاح: أصدرها الشيخ الأمين بن على المزروعي (١٨٩١ - ١٩٤٧) باللغتين العربية والسواحلية؛ وذلك في ممباسا في الساحل الكيني بتاريخ ٢٢ شوال ١٣٥٠ هـ، الموافق ٢٩ شباط / فبراير ١٩٣٢ م، ولقد جاءت الإصلاح استكمالا لمشروع الشيخ الأمين التنويري، والذي كان قد بدأه بإصدار دورية سماها «الصحيفة» في ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٠.

وعنيت الصحيفة بالمسائل الدينية والاجتماعية والسياسية، وتوافقت مع جهود المحرر الإصلاحية في شرق إفريقيا وبالذات في «ممباسا» إذ أنه اتسم بعقلية منفتحة وفكر وثاب استقاه من سلسة قراءته المتواصلة للتراث الفكري العربي، إضافة إلى الصحف والمجلات العربية التي تصل إلى شرق إفريقيا وبالأخص مجلة «المنار» التي كان يشرف على تحريرها الشيخ محمد رشيد رضا.

وكانت صحيفة «الإصلاح» بطابعها التنويري العام - قد اتخذت من الآية القرآنية الكريمة «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت» شمارا لها. كما افتتحت أعدادها الأولى بمقتطفات من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، وعنيت بمقالات عديدة لأمير البيان «شكيب أرسلان» وعموما كانت «الإصلاح» لسان حال «الشيخ المزروعي»، وقد كتب فيها عدة مقالات تناولت موضوع الإسهام الحضاري للدولة الإسلامية في أوربا، وأسباب تردي المسلمين وانحطاطهم والتي لخصها في بعدهم عن جذورهم الإسلامية، وعن عاداتهم وهويتهم العربية، كما تناول الهجمة الصليبية على أبناء المسلمين في المعاهد والمؤسسات التعليمية القائمة على النظم الغربية، ودعا إلى تضمين المناهج الدراسية مقررات تزود الطلاب والتلاميذ بالثقافة العربية الإسلامية؛ وذلك لمواجهة تلك التحديات.

٧ - الفلق: وهي محور دراستنا في هذا الموضوع، وتعتبر من أوائل الصحف العربية التي ظهرت في إفريقيا الشرقية بعد الحرب

العالميـة الأولى، وقد كانت قبل الحرب تعرف باسـم (النجاح) إلا أن محمد بن سـعيد بن ناصر الكندي سماها - بعد ذلك بالفلق لتكون شـبيهة (النجاح) وبديلة عنها في إزالة ظلمة الجهل والغباوة، وإنارة العقول، وإصلاح الشئون الدينية والدنيوية، وقد وضّح أبعاد التسمية الإصلاحية في معرض حديثه للعدد الأول إذ قال:

«الفلق، أو الشـعيعات الذهبية التي تؤذن بالقسـم المهم من اليوم، النهار الـذي جعله الله لنا للعمل والجهاد في سـبيل الحياة والبقاء أعـزاء... الفلق، أو المـؤذن للفلاح والكفاح، الفلق.. أو القاسـم بين الجزئـين من اليـوم «الليل والنهـار... الفلق.. أو بـين العهدين من تاريخها. عهد الجهل والظلام، وعهد المعرفة والنور»

ويحيل العنوان وشعار الصحيفة على منحى التأصيل لدى إدارتها، فالعنوان مقتبس من القرآن الكريم، مما يعكس إصرارا واضحا على إعلان عروبة الصحيفة وانطلاقها من رؤية إسـلامية، تبدو مفهومة إذا نزلنا الصحيفة في إطارها الجغرافي، فهي صوت يجري في بيئة تتنوع فيها أجهزة الإعلام (إنجليزية / سواحلية / هندية).

وقد صدرت «الفلق» يوم الاثنين ٢٠ شـوال عام ١٣٤٧ هـ، الموافق للأول من نيسـان / إبريل ١٩٢٩ م، في عهد رئاسـة السيد بن كندة للجمعية العربية، وبتشـجيع من الشـيخ ناصر بن سـليمان اللمكي، وترأس تحريرها الشـيخ هاشل بن راشد المسكري، ثم خلفه كل من: الشـيخ محمد بن هلال البرواني لمدة أربعة عشـر عاما (٢٣ إيار / ١٩٣١مايو، وحتى ٣٠ كانون الأول / ديسـمبر١٩٤٥)، والشيخ سعيد بن سـالم الرواحي لمدة سنتين (من أول شـباط / فبراير ١٩٥١ إلى ١٨ أيار / مايو ١٩٥٣ م، الشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي، والشيخ أحمد بن محمد بن ناصر اللمكي، والشـيخ أبـو البركات محمد بن ناصر اللمكي، فالسـيد سيف بن حمود بن فيصل، واستمر كل واحد منهم سنة تقريبا.

وقـد أخرج أعداد «الفلق» الأولى الرسـام المصـري عبد الباري العجيـزي، وقد توقفت عن الصـدور في فترة ١٩ حزيـران/ يونيو ١٩٥٤، إلـى ١٩ حزيران / يونيو ١٩٥٥ م، بسـبب مقالاتها الصارخة

في وجه السلطة، وتحريضها على بداية العمل الوطني المتمثل في المناداة بالديمقراطية، وانتخاب أعضاء المجلس التشريعي، وقد حوكمت الفلق بسبب ذلك، وصدر الحكم رقم ١٨٠٥ ضدها في ١٩ حزيران / يونيو ١٩٥٤ م بإدانة أعضاء اللجنة المركزية للجمعية العربية واتهام الفلق بإحدى عشرة تهمة، ونص الحكم على توقيفها، ودفع غرامة قدرها خمسة وثلاثون ألف شلينج، وتوقيف الصحيفة لمدة عام كامل يبدأ من تموز / يوليو ١٩٥٤ م. وفور انتهاء تنفيذ الحكم عاودت «الفلق» الصدور، وأرجعت الحكومة المطبعة إلى الجمعية، وكانت أطروحات «الفلق» الثقافية والسياسية مثار إعجاب قرائها ومتابعيها داخل الوطن العربي، إذ كانت تصل إلى عمان، وتوزع في الشام ومصر والجزائر، وغيرها، ولذلك عني بها الشعراء والباحثون والقراء، وتضامنوا معها في فترة توقفها.

الصحافة العمانية المهاجرة وآفاق الإصلاح الثقافي:

أولا: الصحف المهاجرة عامة ودورها في الإصلاح:

لقد جاءت تلك الصحف لتصوغ تصوّرا ثقافيا عمانيا للمجتمع العربي سواء في مكان صدورها «مدينة زنجبار»، أو في بقية مدن إفريقيا الشرقية»، أو حتى في مدن عمان ذاتها؛ لأن التواصل كان قويا بينها رغم البعد الجغرافي وبعض العقبات التي كانت تظهر بين وقت وآخر.

كما حددت تلك الصحف - بغض النظر - عن تفاوت مستواها الفني الموضوعي - توجهات المثقف العماني الإصلاحي في تلك الفترة الخصبة بمعالم التنوير في الوطن العربي، وبالتحديد في عواصمه الثقافية الكبرى (بغداد - القاهرة - بيروت - دمشق) وهي توجهات كانت محكومة بعامل التوزيع بين الانتماء إلى جذور الحضارة العربية الإسلامية، والانفتاح على أشكال التغريب من ناحية، وبين التوجه السياسي الحلم بالحرية والديمقراطية من ناحية أخرى، وهذا ما قدمته تلك الصحف في خطابها الثقافي العام. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها جاءت متجاوبة مع المرحلة الحديثة التي بدأ المجتمع

يتحسســها بكل ما رافقها من عوامل التغيير الاجتماعي والسياسي، وبــكل ما اقترن بها من نوازع الإرادة فــي تمزيق جدار العزلة وهتك سياســة التجزئة الاستعمارية التي كرست روح الولاء القبلي، بل لقد اســتمدت الصحافة نشأتها الفعلية من خلال فترة تبلورت فيها كثير من المواقف التاريخية الحاســمة في الشخصية المحلية (الموقف من النظام السياســي - الموقف من الاســتعمار - الموقــف من القومية العربيــة - الموقــف من المرأة - الموقف مــن التقاليد والعادات) حتى باتت نشــأة الصحافة وتطورها تعبيرا عن حصيلة تلك الظروف التي وجــدت في العقود الأولى من القرن العشــرين خصوصا فيما يتصل بالــدور الإصلاحي، فضلا عن ذلك فإن ظهــور هذه الصحافة بهذا الحس التنويري يعدّ مؤشرا مهما في تبلور التجربة الفكرية الحديثة ليس في شــرق إفريقيا وحدها، بل حتى في عمــان بحكم تأثيراتها المباشرة عليها.

وهــذه التأثيرات تدفعني إلى الاعتقــاد بأن هذه الصحافة لم تكن لتنشــأ وتبرز بهذه الصورة مــا لم تكن ضاربة فــي أرضية تاريخية خصبة قوامهــا تاريخ عمان وحضارتها الراســخة في أذهان أولئك المؤسســين، من هنا رأينا أن نركز على المثقف التنويري بصفته عماد الإصلاح الثقافي، فبيان دوره في عملية التحضر، واضح للعيان منذ طلائع النهضة الحديثة التي شــهدتها أقطار الوطن العربي؛ ذلك أن انفتاح عقله دون مصاحبات مقيدة وشــعوره بضرورة مجاراة أنساق المدنية والرقي في العالم بعين واعية، وصدر رحب، أعطياه الســمة، بــل الدفعة الأولى لخــوض غمار الإصلاح، وكانــت الصحافة وعاءه الأول الذي صبّ فيه عطاءه غير المحدود.. جرى ذلك في كافة أقطار الوطــن العربي بدءا بــأول صحيفة صدرت في البــلاد العربية عام ١٧٩٨ م، مــرورا بصحيفة «الوقائع المصرية» التي صدرت عام ١٨٥٨ م، و«صنعاء «اليمنية» التي صدرت عام ١٨٧٧ م، وانتهاء بأول صحيفة تصدر في بداية القرن العشــرين، وهي صحيفة «القدس» عام ١٩٠٤ غيــر أن المثقف التنويري في منطقة الخليج العربي أســهم أيضا في ذلك العطاء، وكانت الصحافة أداته في ذلك، فبدأت إصدارته تتوالى

بدءا بصحيفة «الحجاز» السعودية عام ١٩٠٨، ومجلة «الكويت» عام ١٩٢٨، وصحيفة «صوت البحرين» ١٩٣٩، ومجلة العربي ١٩٥٨، ومجلتي «كتابات» و«كلمات» ١٩٨٣، ومرورا بمجلة الأزمنة العربية ١٩٧٧، وانتهاء بصحيفة «الوطن العمانية» ١٩٧٠، ومجلة الثقافة الجديدة ١٩٧٥، و«الغدير» ١٩٧٩، ونزوى ١٩٩٥، وأخيرا مجلة «التسامح» ٢٠٠٣.

ويضاف إلى ذلك الصحف والجرائد التي أصدرها العمانيون في المهجر الإفريقي، وهي مثار موضوعنا، فالعمانيون استوطنوا شرق إفريقيا، وأقاموا فيها حضارتهم الحديثة، وازدهر نشاطهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في كثير من الدول الإفريقية ، وتعود بداية علاقتهم بالصحافة إلى عام ١٩٠٨، حيث تأسست أول جمعية عربية في زنجبار إبان حكم السلطان علي بن حمود بن محمد؛ بغرض رعاية مصالح العرب القاطنين في أراضي شرق إفريقيا وخضعت لحكمه.

كما تعود تلك العلاقات إلى إنشاء أول مطبعة في زنجبار عام ١٨٧٩ م، تلك المطبعة التي ظهرت في عهد السلطان برغش بن سعيد (١٨٧٠ - ١٨٨٨) م، المسمّاة (المطبعة السلطانية ، وقد قامت بدور مهم في بلورة كثير من مظاهر التحضر بدءا من طباعةالكتب الأدبية والفقهية والدينية ونشرها . وانتهاء بطباعة كثير من الصحف التي أثرت في هذا التحضر بعمق، وخلقت كثيرا من مظاهر التنوير، خصوصا أن محرري هذه الصحف كانوا نخبة من العلماء والأدباء والشعراء، نذكر منهم - على سبيل التمثيل لا الحصر - العلامة الفقيه أبو مسلم البهلاني / الرواحي صاحب مجلة «النجاح»، والشيخ أحمد بن حمدون الحارثي، والشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي رئيس الجمعية العربية، والشيخ ناصر بن سليمان اللمكي، والشيخ أحمد بن سيف الخروصي محرر صحيفة «المرشد»، والسيد سيف بن حمود بن فيصل محرر صحيفة «النهضة»، والشيخ الأمين بن علي المزروعي محرر صحيفة «الإصلاح»، والشيخ هاشل بن راشد المسكري، والأستاذ أحمد بن محمد اللمكي، والشيخ محمد بن هلال

البرواني، وقد تولى كل منهم رئاســة تحرير صحيفة «الفلق»، وكذلك علــي بن محمــد الجمالي، وصالح بن علي الخلاســي، وعبدالله بن صالح الفارسي، وسعيد بن سالم الرواحي، ومحمد بن علي البرواني، والأخيــر صاحب مقامات «أبي الحارث البرواني» المعروفة في الأدب العماني الحديث.

إن الصحافــة العمانية في زنجبار بهــذه النخبة الطليعية المتميزة، وبما أوتيت من فسحة فكرية ومعنوية لا بأس بها كانت منبرا للثقافة لعــب دورا كبيرا في النهضة الفكرية، ليس فــي زنجبار وحدها، بل حتــى في مدن شــرقي إفريقيا، وعمــان أيضا، فلقد أســهم هؤلاء الكتاب بجهد ملحوظ فــي النهضة الأدبية، والدينية من خلال تنبيه تلــك المجتمعات إلى أخطار محدقة بها، وذلــك حفاظا على هويتها العربية - الإســلامية التي لا شــك أنها مهمة فــي تلك الفترة، وفي ظل الظروف العصيبة، حيث دوافع التغريب، وأطروحات الاستشراق الاســتعماري في كافــة مظاهرها، ويمكن تلمــس دور تلك الصحف مجملة في النقاط التالية :

أولا: القيــام بالــدور النهضــوي الوحدوي ذي الطابع الإســلامي والعربي، فهذه الصحف بلــورت دورها في هذين المجالين من خلال توعية المســلمين في شــرق إفريقيا بأمور دينهم ودنياهم تدفعها في ذلك مبادئ وقيم عربية أظهرتها أفكار محرري هذه الصحف، فهاهو الشــيخ أبو مســلم البهلاني / الرواحي في مقدمة هؤلاء الدعاة إلى هذا الدور، إذ تقول إحدى مقدمات ديوانه الشعري:

«حــررت صحيفة النجاح طلبا في ائتلاف الرابط الإســلامي لكي تبلغ من الكمال مبلغا يكون عليه منشــأ الترقي، وفتح باب الســعادة لبني الإنســان، ودعاء للناشــئة «الزنجبارية» إلى اقتطاف ثمرة العلم النافع، ونبذ طريق الجهلاء» .

وكان الشــيخ الأمين بن علــى المزروعي قد اختط لمنهجه التنويري التوجــه الديني نفســه، وذلك بإصــداره لصحيفة الإصــلاح، والتي يشــير عنوانها، واستشهادها بالآية القرآنية «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت» إلى الإصلاح منهجا، والوحدة هدفا، والتنوير طريقا، كما

كان بينه وبين أصحاب البدع والخرافات والأفكار السلفية ما يكون بين المؤمن والكافر من تنافر، خصوصا أنه شدد على الفكرة الدينية ووضعها وعاء انصبت فيه توجهات الصحيفة وأهدافها.

ثانيا: التركيز على مصالح البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية بسبب توجهها الرسمي، ولأنها صادرة من مؤسسات وجمعيات تنتمي قلبا وقالبا لأطروحات وآراء رسمية، ولذا عنيت بالمسائل الاقتصادية، ومن بينها قضايا إنتاج الحاصلات الزراعية وتسويقها، وفي مقدمتها محصول القرنفل عماد البنية الاقتصادية في زنجبار وشرقي إفريقيا قاطبة؛ ولهذا لا ضير أن تتخذ صحيفة «الفلق» كبرى الصحف الزنجبارية شعارها من هذا التوجه الاقتصادي وتصدر «صحيفة أدبية سياسية زراعية تماشيا مع طبيعة المصالح الرسمية، وإثباتا لطبيعة أهدافها الثابتة التي لم تحد عنها.

ثالثا - الاهتمام بعمان «الأم» لأنها تشكل الهاجس الأكبر لمحرري هذه الصحف، فهي الموطن الأول، وهي الثقافة الأصل، فمحرروها يؤكدون انتماءهم إليها مهما كان مهجرهم جميلا وحياتهم فيه تتسم بالسعادة والهناء.

لقد بدت أخبار عمان متجسدة في صفحات هذه الصحف، ولعلنا نذكر إفراد صفحات خاصة لعمان وتاريخها وعلمائها ورموزها. وتعدى الأمر إلى ذكر كل ما هو متصل بها من طقسها ومناخها، والكوارث الطبيعية التي تحل بها، ولم تغب قضيتها السياسية، ولا أزمتها الحضارية عن تلك الصحف في أية لحظة من اللحظات، بل قدمت أبرز الحلول للنهوض بها، ومختلف الوسائل لتجاوز ما لمّ بها.

وكان اتصال رؤساء هذه الصحف وكتابها ومحرريها بأهم أقطاب القيادة السياسية في عمان واضحا، حيث عرضوا عليهم عدة اقتراحات للنهوض بها، وخاصة في النصف الأول من القرن العشرين.

ولم تغب عن هذه الصحف ثقافة عمان وتاريخها المجيد، كما لم يغب عن بعض محرريها مظاهر الافتخار بها دائما، فهاهو أبو مسلم

البهلاني / الرواحي يورد نموذجا من ذلك الافتخار في قصيدته اللامية الشهيرة:

تفضل بالزيارة في عمان
تجد افعال احرار الرجال
تجد ما شئت من مجد وفضل
واحساب عزيزات المثال
تجد ما قسّمته يد المنايا
خيول الله في حزب الضلال
تجد من هيبة الإسلام شأنا
عليه الكفر مبيض القذال
تجد همم الرجال مصممات
بثأر الدين ترخص كل غال
فإن تسأل بهم فهم شراة
تربوا بين قيصوم وضال
إذا استصرختهم شبوا سعيرا
وصخ النجم قعقعة النصال
إذا هجموا رأيت الفجر يجري
ببارقة الصوارم في الليال
راوا ما حلّ بالأوطان خزيا
يسارع بالفظائع والوبال
وخصم الله جزار شنيع
يضحي بالديانة لا يبال

رابعا: الحضور في الفعاليات الثقافية العربية، والتواصل مع الحركة الفكرية العربية، فلقد رأينا أن أغلبية تلك الصحف تستقي أخبارها من مختلف الصحف العربية في سوريا ومصر والجزائر والعراق ولبنان وغيرها، ولم يقتصر حضورها ذلك على الأخبار، بل توطدت صلتها الفكرية مع أقطاب التنوير في الوطن العربي أمثال: محمد رشيد رضا صاحب (المنار)، ومحمد حسن الزيات صاحب

(الرسالة)، وقبلهما مع جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والشيخ اطفيش، وسليمان الباروني، ومحب الدين الخطيب، ومحمد لطفي جمعة، وزكي مبارك، وغيرهم، كما بلغ ذلك التواصل ذروته عندما شارك أبو مسلم البهلاني الرواحي بقصيدة في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القاهرة برئاسة (رياض باشا)، والتي يقول طالعها:

هوت العالم أدوار البشر
ينقضي الدهر بأدوار أخر
كل دور رقص الدهر له
ضايق العالم وارتاد القمر

وتجاوز ذلك التواصل حدود المشافهة واللقاءات السريعة إلى النشر والتوثيق والإصدار، فلقد نشر الشيخ ناصر بن سليمان اللمكي بحثا في مجلة (الهلال) المصرية الصادرة يوم ١ / ٧ / ١٩٠٦ حمل عنوان «أشهر الحوادث وأعظم الرجال: حميد بن محمد المرجبي فاتح الكونغو»

ويعتبر هذا البحث في سيرة المرجبي، كما يراه بعض المؤرخين - وثيقة تاريخية على قدر كبير من الأهمية، ومصدرا أصيلا للباحثين والمهتمين بالدراسات العمانية بصفة خاصة؛ لأنه يلقي الضوء على المؤثرات الحضارية العمانية في الكشف عن مجاهل القارة الإفريقية، والنشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي ترتب على الوجود العربي العماني في مناطق البر الإفريقي.

إن هذا التواصل - من جهة أخرى - يكشف عن اتساع العضوية التي ينتمي إليها رواد التنوير والإصلاح (محررو هذه الصحف ورؤساؤها) في إطار صلتهم الحضارية بمجريات الساحة العربية ثقافيا وأدبيا وسياسيا، مما يصلهم في نهاية الأمر بنماذج المثاقفة العضوية في أبعد معانيها ولو على صعيد الثقافة العربية.

ويتجلى دور هذه الأسماء على الطرف الآخر في الثقافة المادية التي قدمت لنا نماذجها منذ بدأت الأشعار تأخذ مسلكا معنويا يصل إلى حد الافتخار وتزيين القلاع والحصون السيوف بها كما فعل شعراء تلك الديار أمثال الشيخ أبي مسلم البهلاني الرواحي، والشيخ

أحمد ابن راشد الفيثي، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر الريامي وغيرهم.

ويتجلى ذلك الدور لهذه الصحافة كذلك في إبراز التوجه الحضاري الذي قدمته المصادر الثقافية والدينية والتاريخية العربية والأجنبية وحفظت لنا مؤلفيها سواء تلك الأسماء المتصلة بالتأليف الفقهي أو التاريخي أو الأدبي من أمثال: الشيخ العلامة ناصر بن أبي نبهان (١٨٧٨ - ١٨٤٧) الذي عني بالتأليف في الفقه والطب والفلك، ومن أشهر مؤلفاته (الحق اليقين) و(لطائف المنن في أحكام السنن) و(السر الجلي في ذكرى أسرار النبات السواحلي). وكذلك الشيخ العلامة محمد بن على المنذري صاحب كتاب (الخلاصة الدامغة) وابنه الشيخ علي بن محمد المنذري الذي ألف في التوحيد كتابا سماه (نور التوحيد). وكذلك الشيخ يحيى بن خلفان بن أبي نبهان الخروصي، والشيخ سالم بن عديم البهلاني / الرواحي، وابنه أبو مسلم الذي قدم إلى زنجبار عام ١٨٧٨ م، والشيخ على بن محمد الطائي ومن بين المؤلفين العمانيين الذين ولدوا في شرق إفريقيا الشيخ علي بن عبدالله المزروعي وابنه (الأمين) والأخير هو مؤسس صحيفة (الإصلاح) ومؤلف كتاب (هداية الأطفال)، ومن بينهم كذلك الشيخ علي بن خميس البرواني (١٨٥٢ - ١٨٨٦)، والشيخ سالم بن سعيد الشعيبي صاحب كتاب (أسمى المقابل والمبهمات)، والشيخ سليمان بن محمد العلوي صاحب كتاب (الأجرومية للصنهاجي)، وكذلك الشيخ عبدالله بن محمد الكندي، وعبدالله ابن صالح الفارسي الذي كان قاضي قضاة كينيا، وصاحب كتاب (البوسعيديون حكام زنجبار) إضافة إلى الشيخ سعيد بن على المغيري صاحب (جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار).

خامسا: إعطاء المرأة دورها الاجتماعي والحضاري توافقا مع إنصاف الإسلام لها، ومحاولة الأخذ بيدها لتخرج من دياجير الجهل إلى آفاق النور والحضارة، فقد نادت الصحف الزنجبارية بعديد الأطروحات الإصلاحية في سياق مساعيها لخدمة المجتمع، وتأصيل كثير من النظرات السامية التي تحاول أن تخدم المرأة، وترتقي بها؛

لأنها أساس المجتمع وعموده الأول الذي بسقوطه تتهاوى كل الأركان، فها هي صحيفة «الفلق» تستمد دور المرأة في المجتمع كما منحها لها الإســلام الحنيف من عقيدته السّمحاء فتدعو إلى تعليمها وتثقيفها عبر العديد من المقالات منها «التعليم والمرأة» والذي نشــر في ٦ / ٥ / ١٩٣٩، تقول «الفلق» :

«فعلموا المرأة قبل كل شـيء دين الإســلام دين الحيــاة والعفاف والأمانة والشـجاعة، وكل خلق كـريم؛ لتغرس ذلك في نفوس أبنائها لينشأوا علي الفضيلة بعيدين عن كل خلق ذميمة».

سادســا: العناية باللغة العربية تعليمــا وتثقيفا في مجالات الحياة الثقافية الرسـمية منها وغير الرســمية، فكما هــو معروف أن اللغة العربية كانت لغة الحياة في جميع مناحيها اســتنادا لســلطة الدور العماني الممتدة من مقديشـيو شــمالا، وحتى أوغندا، و«رأس دلفاو» جنوبا، ومن مشــارف موزمبيق شــرقا، حتى أعالــي الكونغو غربا ، وكانــت تلك الســلطة نابعة مــن جهــود العمانيين السياســية التي صاحبتها عناية بنشــر اللغة العربية عن طريق نشر الدين الإسلامي أولا، ثم إقامة المراكز التجارية ثانيا، وقد ســاعدت الثقافة العربية، وسهولة مصطلحاتها، وسلامة نظمها على ذلك الانتشار، فضلا عن كونها لغة القرآن الكريم وضرورية للعبادات وقراءة القرآن وتفسيره، ومعرفة الســنة النبوية الشريفة، الأمر الذي جعل الناس يقبلون على تعلمهــا والتحــدث بها من منطلق عوامل أخــرى كالاختلاط بالعرب والتــزاوج معهم والتأثــير في الطرف الآخــر إذ لا مناص من تأثر العمانيين أنفســهم باللغة الســواحلية التي أتقنوها، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل معاكســة من لغتهــم الأم، وتلك ضريبة دفعها العمانيون جراء تلك الهيمنة على الصعيد الحضاري في بعده العام لا الخاص، وكانت نســبية على كل حال فاحتفاظ كثير من العمانيين بلغتهم كان الســمة الأغلب دائما، ومن جهة أخرى فإن التقاء اللغة العربية باللغة السواحلية في شــرق إفريقيا أحدث ألوانا عديدة من التأثر في كلتا اللغتــين من خلال وجــود كلمات العربية في اللغة الســواحلية كتابة ونطقا مما جعلها تكسب مكانة مهمة في القارة الإفريقية بأسرها.

ومـــن هذا المنطلق كانت دعوات صحيفة «الفلق» صريحة وواضحة إلى الاهتمام بهذه اللغة، وكانت في الكثير من أعدادها تضم مقالات متكررة في هذا الشـــأن نذكر منها مقالا نشـــر في ١١ تموز / يوليو ١٩٥٦ للكاتب سالم بن حميد الرحبي يقول فيه:

«.... فإني أناديكم بملء فمي - يا بني العروبة - أن تعلموا أبناءكم لغة آبائهم، لغة دينهم ورسولهم، لغة قومهم، وأن لا تجعلوا أبناءكم في زوايـــا الغفلة والإهمال؛ لايعرفـــون القبيل من الدبير، ولا الظاهر من الضمير، فأنقذوهم من مخالب الجهل وخذوا بأيديهم من الحضيض الأدنـــى إلى الـــذروة العليا من العلم والعمل، والســـعي إلى ما يتطلبه منهم الواجب الإسلامي نحو الاهتمام بلغتهم العربية......».

***

ثانيا - صحيفة «الفلق» وآفاق الإصلاح الثقافي:

تعـــدّ صحيفة «الفلق» أبرز الصحف التي اضطلعت بدور الإصلاح الثقافي وأهمها، لأنها منبثقة من نشاط الجمعية العربية التي ما فات أعضاؤها أن يقترحوا في لقائهم المنعقد في السادس من تموز / يوليو ١٩٢٦ إنشاء صحيفة عربية تجمع شتات أفكار الجاليات العربية في زنجبار، وتحدد مواقفهم من الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي (القائـــم هناك. وتربط من جهة أخرى جميـــع العرب والعمانيين في مختلف المناطق الإفريقية بعضهم ببعض، بل أيضا بأوطانهم لاسيما «عمان»، الأم التي بعدت مسافتها جغرافيا وسياسيا، بحكم انفصالها ككيان سياســـي عن سلطنة زنجبار، كما يشير التاريخ القريب، وأكثر من ذلك كان هدف هذه الجمعية من إصدار صحيفتها هذه هو إبراز نشـــاطها الثقافي والأدبـــي والاجتماعي والزراعي، وتجســـيده أمام الرأي العام الوطني والعربي هنـــاك، خصوصا أنها تصدر في مركز الســـلطة الحاكمة «زنجبـــار» و«الجزيرة الخضـــراء»، وتوزع في مدن إفريقيا وبقاعها المختلفة.

لقد تحولـــت تلك الرؤية إلى رؤيا، وذلك الهدف إلى غاية تحققت، ففي عـــام ١٩٢٩ صدرت «الفلق» وســـط تطلعـــات أعضاء الجمعية

العربية الحالمة بالتنوير ، تذكيها في ذلك همسة مشرقة ونور يتبدى ولو من بعيد نحو التعبير الحر الجريء، بعد أن ضاقت كلمتهم واختنقت أصداؤها على امتداد التاريخ الحديث تدفعهم في ذلك تجربتهم الحرة الجريئة في انتخاب أعضاء جمعيتهم إبان تأسيسها الأول عام ١٩٠٨ م، وحيث كشف الانتخاب في ذلك الوقت نفحة من الديمقراطية غير يسيرة. فكان توجهها الإصلاحي التنويري الحاضر لبنة في هذا الصرح الثقافي الذي بنوه بعقلية وثابة وطموحات عظام.

صدرت «الفلق» صحيفة ثقافية عامة (سياسية، أدبية، اجتماعية، اقتصادية، علمية، زراعية) وأريد لها أن تتوالى كل سبت من كل أسبوع، واستمرت بهذا الحال متدفقة في عطائها منتظمة في ميقاتها إلى أن جاء عام ١٩٥٦ م، حيث توقفت عن الصدور بهذا الشكل الأسبوعي، وأصبحت تصدر كل أسبوعين متعاقبة بين السبت والأربعاء، وذلك حتى نهاية شهر كانون الأول / ديسمبر من عام ١٩٦٣ م، إذ توقفت بعد ذلك إلى الأبد بتوقف نشاط الجمعية العربية، ومعها كل كيان الدولة العربية العمانية، إثر الأحداث الدامية التي شهدتها زنجبار وإفريقيا، واستهدفت تصفية الوجود العربي (العماني) هناك.

جاءت صحيفة «الفلق» لسان حال الجمعية العربية، ومنبرا ثقافيا وأدبيا، ووثيقة شاهد عيان على مجريات التاريخ؛ حيث كانت أحداث ساخنة ترسم فواصل كبرى فيه سواء للعمانيين، في وطنهم «عمان» أو في مختلف مهاجرهم؛ ولهذا لاريب أن تكون هذه الصحيفة وغيرها جامعة لأخبارهم، مسجلة لطموحاتهم وآمالهم، إضافة إلى توجهاتها الإصلاحية والتنويرية، تدفعها في ذلك مرجعيات تاريخية أصيلة، منبثقة من تاريخ عمان وحضارتها التليدة، حيث يوجد العمانيون في مكان صدورها «زنجبار»، وهذا البعد الحضاري يشكل في حد ذاته ضربا من ضروب ذلك الإصلاح في مفهومه العام لا الخاص، والسياسي لا الأيديولوجي.

ورغم اهتمام صحيفة «الفلق» أساسا بأخبار العالم، وأحداث الحرب، وأخبار المجتمع المحلي والعربي، فإنها ركزت جهدها على

نشــر الثقافة الحديثــة، والأفــكار الاجتماعية المصاحبــة لها، كما اعتمدت بعضا من المفاهيم الجديدة في الأدب، والفكر، والسياســة، والتــي لم تجد لها ســبيلا إلى الظهــور طوال الفترة الســابقة لها، من ضمنهــا الفنون الأدبية الحديثــة كالقصة القصيــرة، والرواية، والمســرحية، ويرجع ذلك - بطبيعة الحال - إلــى المرحلة التاريخية التــي كانت تصدر فيهــا. إذ الفرق الزمني بينهــا وبين صدور أقدم صحيفة في مكانها «زنجبار» تبلغ أكثر من ســبعة عشر عاما، وخلال هذه الفترة واجه المجتمع في شرق إفريقيا وعمان كثيرا من التحولات الاجتماعية والسياسة والثقافية التي رسمت ملامحها بقوة مبادرات الطبقة المتوســطة، وبرزت تطلعاتها في التعليم والثقافة، وهو المجال الذي اتخذت منه هذه الصحيفة وسيلة للتفوق والامتياز.

ومــن هذا المنطلق وحده يمكننا أن نقــف على أبعاد الإصلاح من خلال وصفها المادي.

١ - الوصف المادي للصحيفة: ونحدده في نقطتين هما:

- صدرت صحيفة «الفلق» في حجم «التيبل يود» في أربع صفحات باللغة العربية، ثم زيدت صفحاتها إلى ســت صفحات ثم إلى ثماني صفحــات بعد أن رأى محرروها أهمية مخاطبة العنصر غير العربي (الانجليز والهنود وبعض الأفارقة) فصدرت باللغتين العربية في أربع صفحــات، والانجليزية في أربع أخرى، لتكــون في متناول الجاليات غير العربية المعنية بالإصلاح.

- تصــدّر صحيفة «الفلق» صفحتها الأولى بآية قرآنية عادة تكتب في أعلى الصفحة من مثل قوله تعالى: «قل أعوذ برب الفلق من شــر ما خلق» تأصيلا لدلالة الاسم الذي تبنته، كما أنها أحيانا تعنى بإبراز حكمة دالة، أو قول مأثور تبعا لطبيعة الحدث الموضوعي الذي يفرض نفســه عليها؛ ولذلك كثيرا ما تقع عين القارئ على عبارات تدل على الحكمة من مثل : من طال عدوانه زال سلطانه «و» وعند الطعان يبان الفارس الجبــان «و» لا تحتقر من دونك، ولا تتملق لمن فوقك» وعادة ما تكشــف هذه الأقوال المأثورة عناية فائقة في الاختيار، وهي كثيرا ما تلمح، بل وتسقط على القارئ بغية نقده وتحريره.

- تقسم المواضيع في الصحيفة تبعا لأهميتها بالنسبة لتوجهات المحررين، فهي تبدأ عادة بالموضوعات السياسية كالأخبار، والتحقيقات، خصوصا أنها عاصرت حربين عالميتين، وشاهدت تقلبات عسكرية عديدة، إضافة إلى تسجيل الوقائع والأحداث السياسية الخاصة بسلاطين البلاد وحكامها، فهي لسان حال جمعية تنتمي لأطروحات سلاطين البلاد وآرائهم، ومن ذلك فهي تقف مليا (في صفحاتها الأولى) على هذه الأحداث محللة إياها مبرزة وجهة نظر رسمية إزاءها تتخذ من الإطراء منهجا، ومن المديح أسلوبا. وتقوم أحيانا بنشر المراسيم السلطانية والبيانات الحكومية وتتحقق من أخبار العرب وقضاياهم عبر سلسلة من المراسلين. كما أنها تعنى بنقل أخبار السلاطين الخاصة أو أخبار حفلاتهم وتنقلاتهم داخل البلاد، وخارجها مشيدة بانجازاتهم الحضارية محتفية بافتتاح مشاريعهم التنموية.

أما الصفحة الثانية، فهي «عادة للتحقيقات والموضوعات الموسعة والتحليلات التي تبين مواقف «الفلق» من مجمل القضايا العالمية والعربية»، لهذا تكثر فيها النداءات والبيانات المستوحاة من مواقف المحررين السياسية، ومن مواقف الصحف العربية المشابهة التي تنقل منها «الفلق» الأخبار مثل صحيفة «الأهرام»، و«أخبار اليوم»، و«الشرق»، و«المقتطف»، و«العلم العربي»، و«الفتح» و«الأمة»، و«الحكمة»، و«العهد الجديد»، و«العمل القومي»، و«الكفاح»، و«الجزيرة»، و«الروح» الجزائرية وغيرها. وتقدم الصفحة الثالثة المقالات الثقافية والأدبية سواء تلك التي يكتبها المحررون أنفسهم، أو المراسلون، أو المثقفون العرب الذين استقطبتهم الصحيفة، أو نقلت مواضيعهم من جرائد وصحف عربية مماثلة، أمثال: محب الدين الخطيب، ومحمد لطفي جمعة، أو غيرهما، وتقدم في هذه الصفحة نصوصا شعرية لشعراء عمانيين وعرب ممن ينتمون إلى الجمعية العربية، خصوصًا الحضارمة واليمنيين والصوماليين والقمريين.

وفي الصفحة الرابعة والأخيرة ترد التتمات الإخبارية والتهاني

والتعازي والأخبار القصيرة والنوادر واللطائف والحكايات التي تروي ماضيا وحاضرا، وأيضا الأخبار الاجتماعية والثقافية، إضافة إلى أخبار أعضاء الجمعية العربية، وتتبع حالة إقامتهم ومغادرتهم من وإلى «زنجبار» و«الجزيرة الخضراء»، وما يلم بحالهم من وفيات، ومتاعب نتيجة للأسفار البعيدة التي يقومون بها، وعمان (الأم) حاضرة في هذه الأخبار القصيرة حضورا كبيرا سواء من خلال رصد هجرات أهلها إلى الجزيرة وجميع بقاع إفريقيا، أو حتى بيان حالتهم في كثير من المناسبات الاجتماعية كمراسيم الزواج والمناسبات الدينية وحفل قراءة المولد النبوي الشريف، والذي كانوا يعنون به في مهجرهم عناية فائقة، إضافة إلى مناسبات العزاء والوفيات وما يصاحبها من عادات اجتماعية معروفة. بقي أن نشير إلى أن هذه الصحيفة في توجهها الفني لا الموضوعي عرفت الدعاية والإعلانات فاحتفت بها في صفحاتها الأخيرة، لكي تضمن موردا ماديا مستقرا يساعد على استمرارها وتطور آرائها. وتوثق الصحيفة في هذا الصدد تواريخ بداية السلع والأدوية التجارية، وتقدم لوحة (بانورامية) تؤكد تطورها، وكيفية تعامل الإنسان معها في بدايات ظهورها.

إن هذا التوجه يدل في بعده الأكبر على مدى تفاعل المجتمع مع الصحيفة، ويؤكد مصداقية وجودها كلسان حاله، مما يؤهلها لأن تلعب دورا تنويريا إصلاحيا على المستوى الاجتماعي الفعلي، مثل موقفها من المجتمع عندما يقبل على الدواء المصنع علاجا للأمراض لا على التمائم والرقي السائدة فيه.

اضطلعت الصحيفة بكل ذلك لا لتخلق صورة تقليدية، وترسخها كما كانت الحالة من قبل، بل لتنتشلها من أعماقها السحيقة. وهذا هو شأن التنوير في أدق معانيه المحسوسة دوما.

٢ - الاحتفاء بالخطاب الإصلاحي:

يمكن أن نسجل لصحيفة «الفلق» ومحرريها سمات عدة تدخل ضمنا في حيز التنوير، بالرغم من أن الصحيفة لايوجد فيها نقد مباشر للواقع، أو الدعوة للخلاص من جموده، ولا حتى مجابهة لأشد معضلاته، وإنما تتضمن جملة من التصورات والأفكار، والاجتهادات

ذات البعد التنويري أفاد أصحابها فيها من دعوات المصلحين العرب الذين تمتلئ بهم الذاكرة العربية في سياقها النهضوي الخاص شأن: محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، وجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧)، ومحمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥)، ومحمد اطفيش، بل وحتى نور الدين السالمي (١٨٦٥ - ١٩١٤)، وسعيد بن خلفان الخليلي (١٨١٥ - ١٨٧٢)، وأبي مسلم البهلاني / الرواحي (١٨٦٠ - ١٩٢٠) على الصعيد العماني، فالصحيفة تستوحي مكونات هذا التراث، وتحاول أن تقدم خلاصته وفق ظروفها المحيطة سياسيا، حيث توجهات الجمعية العربية الرسمية، وثقافيا: حيث صدورها في مجتمع مختلط بأجناس متعددة وثقافات مختلفة ولغات متنوعة.

لهذا فهي تطمح لأن تكون عاكسة لذلك التنوع، وهو تنوع خلاق أدى في نهاية الأمر بالصحيفة إلى أن تقدم لقرائها سلسلة من الأفكار الداعية إلى التنوير، والإصلاح وسط حالات الجهل والتخلف والتشتت والتبعثر التي خلفتها الأوضاع السياسية - كما أشرنا - مما حدا بها إلى تبني ما نادى به المصلحون التنويريون قبلها من دعوات العلم الحديث، وفتح المدارس، وتعليم المرأة والإصلاح الزراعي، وإقامة الجمعيات والنوادي الثقافية وشق الطرق وتعبيدها، وبناء المستشفيات، وأكثر من ذلك التمسك بالقيم الإسلامية، والمحافظة على اللغة العربية، خاصة وأن ذلك البناء الحضاري يجري في أرض بعيدة عن معطيات العروبة.. لغة، ونهجا، وسلوكا، وعادات، وتقاليد متأصلة في أرضها، وبين أبنائها (الأفارقة) الذين تحاول الصحيفة استمالتهم - قدر الإمكان - فهل تحقق لها ذلك ؟

لقد رسمت صحيفة «الفلق» كل تلك الأهداف التنويرية، وسعت إلى تحقيقها بما أوتيت من إمكانات محدودة، وبما تهيأ لها من هيئة محررة لعبت دورا كبيرا في هذا الجانب مكونة في نهاية الأمر نموذجا للمثقف التنويري الذي قام بواجبه في حدود ذلك الزمن وتلك الإمكانات، فليس باستطاعتنا أن نطالبه بأكثر مما قدم «فالنقد الحقيقي للمؤسسات والخطابات لا يتمثل في محاكمتها، وإنما في تمييزها وفصل بعضها عن بعض» على حد رولاند بارت.

إذن قدمت «الفلق» نموذجا للمثقف التنويري «عبر جميع أطروحاتها سـواء تلك التي قدمها أبرز محرريها مثل: الشـيخ ناصر بن سليمان اللمكي، أو الشـيخ محمد بن هلال البرواني، أو الشـيخ هاشـل بن راشـد المسـكري، أو حتى أبز كتابها مثل: محب الدين الخطيب، أو محمد لطفي جمعة، أو محمد حسين هيكل، وهذا في حد ذاته مثل «نموذجا حيويـا لانبناء جوهر التلاحم والنضال فـي الوعي، وتعبر مصادره عن الإمكانـات غير المحدودة التي تهبهـا التجربة الفردية العربيـة فـي المثاقفـة، وتوظيف العقـل والنضال من أجـل التقدم الاجتماعـي والثقافي على حد سـواء» ، و«الفلق» لـم تقدم كل ذلك لقرائهـا لولا وعي كتابهـا بمكانة تلك الأقـلام الجريئة التي قدمت التنويـر من على منابر الصحافة العربية؛ لذا فهي لم تجد ضيرا في الاحتفاء بها وتقديمها لقرائها تحت مظلة العضوية المشـتركة للفكر الإسلامي (الوحدوي) إذا صح التعبير.

٣ -مكونات الخطاب الإصلاحي:

- المكونات الموضوعية:

لعـل أهم ما ترتكز عليـه مكونات الإصلاح فـي صحيفة «الفلق» احتفاؤها بالخطاب التنويري في جميع أشكاله، غير أن هذا الاحتفاء بـات من الواضح خضوعه لقوة مركزية تحـدد اتجاهه وتغذيه، إنها سـلطة الجمعية العربية وسطوتها اللامتناهية، «ومثال هذه السطوة موجـود في مئـات الصحـف التي تخضـع لأيديولوجيـات النظام المؤسـس لها ممـا يبعدها أحايين كثيرة عن مظهـر التنوير في بعده السياسـي على الأقـل». ومثال صحيفة «الفلـق» هذا لا ينفصل عن مئات الأمثلة التي يرتكز خطابها على قوة مهيمنة تقوم بدور المرسل، و«كل صحيفة - كما يقول الدكتور إبراهيم غلوم - في هذا السـياق مهيمـن عليها بمركز يحـدد هوية خطابها منذ أقـدم ما نعرفه من الصحافة العربية وحتى أحدثها؛ إذ لم توجد صحيفة مسـتقلة حتى في ظل ما يسـمى الأنظمة الديمقراطية الحرة، . لأنها مرتهنة دوما بإسـتراتيجية خطابية موصولة بشـبكة من العلاقات والمصالح التي تحددها أيديولوجيا نظام التأسيس».

وفي ظل هذه الفكرة الملحة نحاول إثبات أبرز مظاهر التوير في خطاب «الفلق» الثقافي، من خلال بيان دور المثقف التويري في نشأته وبلورته، وربطه بمركز خطابي آخر يتجلى في صياغة تشكيلات خطابية جديدة، «ومنتجة على مستوى خارطة التفكير وتخوم عمل العقل والوعي المتواطئين مع الانسياق الموضوعي في تكوين المجتمع الحديث، وهو مركز إن لم يكن موازيا للخطاب السياسي، فهو مواز من دون أي شك للخطاب الأدبي في مختلف فنونه، وبالأخص الشعر «إذ كان الشعر ولا يزال الكاشف لكثير من الأطروحات الاجتماعية الغامضة؛ لهذا جاء الاحتفاء به منصبا على أسس عدة راعتها «الفلق» في تقديمها لهذا الخطاب، منها: ما اعتادت عليه الذائقة العربية في خطابها من روح شفافة تحمل معاني الحماس والاستنهاض والتوعية والإرشاد، هذا في حد ذاته يشكل مظهرا تنويريا سجلته «الفلق» من خلال النموذج الذي قدمته في كثير من افتتاحياتها وتبرهنه المطالع الشعرية التالية:

شرف الفتى بالعلم والأعمال
وهما مناط العز والإجلال
والعلم ذخر في المعاد ومفخر
في هذه الدنيا وثوب جمال
وإذا شئت أن تحيا عزيزا
مكرما فدبر وميز ما تقول وتفعل
وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
تعلم فليس المرء يولد عالما
وليس اخو جهل كمن هو عالم

المكون الأول: الاحتفاء بالخطاب السياسي: وتتخذ الصحيفة فيه ثلاثة أبعاد هي: البعد الوطني (وضع عمان الأم، وزنجبار المهجر)، والبعد العربي (وضع فلسطين وسائر أقطار العروبة)، والبعد العالمي (وضع الحرب العالمية الثانية).. وللصحيفة في كل بعد من هذه الأبعاد موقف له محدداته وتجلياته نلمح أولها في الخطابات التالية:

- الخطاب السياسي الوطني

الأول: خطاب الولاء والتمجيد :ونمثل له بالنموذج الآتي:

«يا صاحب العظمة السلطان. ليكن مقبولا لدى سيادة عظمتكم السلطانية أن الجمعية العربية الممثلة للعرب رعايا عظمتكم تقدم أصدق آيات الولاء والطاعة بمناسبة عيدكم المجيد».

والصحيفة في هذا الخطاب تنشر نصوص الخطب السلطانية، وكلمات افتتاح المشاريع التي تنشأ في زنجبار والجزيرة الخضراء، وتحفل بخطب الأعياد والمناسبات الرسمية وغيرها، وذلك توافقا مع نهجها الرسمي تجاه السلطة والواقع، إلا أنها في بعض الأحايين لا ترى ضيرا في أن تقدم بعضا من النقد الصريح للواقع الرسمي، فتكيل لهم تهم التقصير متخذة من ملابسات بعض الظروف ذريعة لتوجيه نقدها، ومن ذلك مطالبتها ببعض الوظائف الحكومية في مجال الصحافة. فقد كتبت مقالا معنونا بـ «زهق الباطل» وأفردت له صفحتها الأولى من عدد السبت ١٩٣٩/٢/١٨ قائلة: «لست أدري وأيم الحق هل من الصواب أن نكتب، أو نوقف أقلامنا عن الكتابة... ويتذكر قراؤنا أننا على صفحات هذه الجريدة، ولانزال نكتب إلى ما شاء الله عن حقوقنا المهضومة، ونحن في كتاباتنا نخاطب الحكومة ولا نخاطب فردا ...».

وفي سياق هذا اللوم استمرت صحيفة «الفلق» في توجيه مطالبها الرامية إلى تحسين الأوضاع الزراعية، أو الصحية، أو التعليمية، وفي هذا المجال تطلعنا الصحيفة على عناوين مقالات جريئة أفردت لها صفحتها الأولى من مثل مقال معنون بـ «من نلوم»، وآخر «من أراد أن يعيش بيننا فليعش وفق نظرياتنا وإلا فلتصحبه السلامة»، وثالث «نداء الوطن»، ورابع «موقف مؤسف»، وخامس «نريد زعيما»، وسادس «من المسئول» وسابع «مطالبنا والحكومة». ومن الأخير نقتطف المقطع التالي: «نحن الآن في أوائل سنة ١٩٣٩ ولنا مطالب طالما خاطبنا الحكومة فيها، ولكن لسوء حظنا لم تلق مطالبنا من الحكومة أذنا صاغية، ولنا أن نكتب اليوم هنا تلك المطالب نذكر بها الحكومة، وأملنا أن تنال هذه المطالب عنايتها ولا تجبرنا الظروف

لتأجيلها إلى مطالب سنة ١٩٤٠م».

هذا وقد بلغ عدد المقالات المتسمة بالبعد السياسي الوطني خلال الفترة ١٩٣١-١٩٦٣ حوالي ثمانية وعشرين وثلاثمائة مقال تشكل ما نسبته ٧٦٪ من مجمل الخطاب السياسي العام، وهذه سمة تبرز صدق توجهات الصحيفة تجاه موضوع التنوير والإصلاح في مجتمع تتهاوى فيه قيم الديموقراطية، التي تنادي بها الصحيفة، وتضعها هدفا وغاية.

الثاني:خطاب الإرشاد والتوجيه

يتمثل هذا الخطاب في معطيات عدة أهمها:

- التركيز على طرح القضايا السياسية الساخنة والملحة بإنتاج موقف سياسي يعنى بتوجه كتاب الصحيفة ومحرريها أنفسهم، لهذا وجدنا أن الصحيفة تتعمد طرح قضايا تخص زنجبار نفسها، مثل تلك المقالات المتعلقة بمعاهدات الحماية البريطانية على الجزيرة أو المتعلقة بالمجلس التشريعي أو المجالس الاستشارية أو الأحزاب القائمة أو حتى إثر مواقف محددة تعنى بشئون وطنهم عمان كمعاهدة السيب أو قضية البريمي أو الجبل الأخضر واستخلاف الإمام الخليلي.

تقديم بعض النقد الصريح للواقع الرسمي بغية التشهير وإبلائه مساحة كبيرة من التقديم، إضافة إلى المطالبة بإصلاح الواقع وتطويره تقول الصحيفة في هذا الشأن:

«إن أهم الإصلاحات التي نريدها يا صاحب العظمة، ويا أيتها الحكومة، توسيع المعارف بالفنون العلمية والصناعية. نريد العدالة في الوظائف الحكومية، نريد تسوية العضوية الحرة في المجالس التشريعية، نريد أن لا تعتبرنا حكومتنا دائما كالأطفال لا نعرف ما نريد ولا ما يراد بنا، نريد أن لا تكتم الأفواه بأسلوب الترغيب عندما نناشدها بالإصلاح بكل صراحة، نريد آلا تجعل كلامنا من المفاهيم التي لا تسعها المدارك والأفهام وتصفح عنه هذه أهم إرادتنا -أيها المليك- أيتها الحكومة، والله يوفق ويسدد وإنا لذلك لمنتظرون، يوم تبزغ شمس النصر فيه للديمقراطية، ويعود عالم السلم إلى بني

الإنسان».

- الخطاب السياسي العربي:

نلاحـظ في هذا الخطاب مركزية القضايا العربية وعلى رأسـها قضية فلسطين، وحرصها الدائم على متابعتها كل أسبوع تقريبا وهي فـي كل عدد تنادي بالخلاص من المسـتعمر الصهيوني الجاثم على أقطار الأمة العربية، كما يسـودها التحذير والاسـتغاثة عندما تحل النكبات على أقطار الأمة.

ومن اللافت للنظر عنايتها بقضية فلسطين، وهي ترزح تحت وطأة الاحتلال البريطاني، فقد وقفنا على ما يقرب من تسعة مقالات كتبت في سـنتي ١٩٣٨-١٩٣٩م وحدهما، وتشكل ما نسبته ١٥٪من مجمل الخطاب السياسي العربي الذي عنيت به الصحيفة.

ويمكن تقسيمه إلى:

- مقالات تفصيلية يهيمن عليها العرض والشـرح والتحليل لمجمل القضايا العربية كقضية فلسـطين، والجزائر، والمغرب، وتشكل هذه المقالات نسبة ٣١٪من مجمل الخطاب السياسي العربي.

- نـداءات وبيانات تطلقها صحيفة«الفلق» قصد التنبيه، وتأصيل الخطاب السياسـي، ورفع الروح المعنوية، وأمثلة تلك البيانات تتبدى في النماذج الآتية«بيان.. للغرب الإسلامي:السـلطة البريطانية وما بيتته للمسـلمين في فلسـطين» و«مشكلة فلسـطين:بيان من اللجنة العربية للشـعب العربي» و«بيان من اللجنة العربية العليا لفلسـطين احتجاجا على استمرار الهجرة اليهودية».

وتشـكل هذه النداءات والبيانات نسبة ٣٩,٦٪من مجمل الخطاب السياسي العربي.

- الخطاب السياسي العالمي:

إذا جئنا إلى الخطاب السياسـي العالمي فقد اهتمت به الصحيفة اهتماما واضحا، فقد بلغت نسـبته في أعداد عامي ١٩٣١-١٩٤٦م، حوالي ١٠٪ من مجمل الخطاب السياسـي العام، وأبرز الموضوعات التي استأثر بها ذلك الخطاب:

- أنباء الحرب العالمية الثانية، فعندما نشـبت عام ١٩٣٩م قامت

الصحيفة بتغطيتها وبث مواقف الدول المؤيدة لأطرافها، وقد نشرت في عددها الصادر يوم السبت ١١أيار/مايو١٩٣٩م خبرا عن أستراليا تقول فيه:

«عزمت حكومة استراليا على مساعدة إنكلترا بقدر طاقتها لتكسب الحرب وسترسل إليها أسطولا جويا مكونا من تسع طائرات....».

وعن كندا نشرت الصحيفة الخبر الآتي:

«قال رئيس وزراء كندا سنساعد إنكلترا في تدريب الطيارين للإمبراطورية، وأن أسطول كندا يمخر عباب المحيط الأطلنطي للمساعدة، وأن جنودا كثيرين سيسافرون إلى فرنسا للقتال...».

وعن روسيا نشرت الصحيفة الخبر الآتي:

«ألقى مولتدرون وزير خارجية روسيا الشيوعية خطابا عن حالة الحرب، ويظهر من خطابه كل ما يضعف الأمل في قلوب الألمان الذين كانوا يتوهمون من روسيا المساعدة الفعالة، وروسيا لن تحارب من أجل المانيا».

- كما أطلقت الصحيفة نداءات تحذيرية للمواطنين الذين يعيشون كوارث الحرب العالمية الثانية: ونقع هنا على النداء الآتي الوارد في عدد السبت ١٩٣٩/٤/٢٩:

«إلى أبناء الوطن:

أيها العرب، أيها الشباب اقتربت الساعة، وصارت الحرب لا مناص منها .العالم في خطر، وربما لن يهمنا ذلك الخطر ولكن..بلادنا، أطفالنا ونساءنا، فتقدموا للدفاع عنهم فدفاعكم عنهم دفاع عن أنفسنا، العالم في خطر، القوي لا يشبع والضعيف في خطر لقد آن الأوان، فلنبن قوتنا من عناصر القوة: الشباب، الإيمان، الاتحاد، النظام: ولنكتب عما أضعف قوتنا وعوق مشروعاتنا.

الشباب: أيها العرب:

القوى تتنازع والسباع تتقاتل على الفرائس: فنحن الفرائس: فهيا للذود عن أنفسنا والإسراع بتهيئة أسباب حماية أطفالنا ونسائنا من ويلات الحرب والمجاعة: أيها العرب، بلادنا فقيرة في محصولاتها الزراعية فستكون على خطر فهيا على الأرض، فلننقذ أرواحنا وأرواح

فلذات أكبادنا.

الحـــرب واقعة لا مناص منها مهما اتفق الأقوياء، فلن يمر زمن إلا وسيتنازعون لا لشيء إلا لمقاسمة أمثالنا، فاظهروا للملأ أنكم بشر.

الوطن -الوطن

لن أنادي عليكم بحمل الســـلاح، فإنكم لا تملكون ذلك اليوم، وإنما أنادي عليكم بالدفاع عن أرواحكم ونســـائكم وأطفالكم بما أوتيتم من قوة وحيلة، فالضعيف يحتال».

المكون الثاني:الاحتفاء بالخطاب الأدبي:

- الاحتفاء بالتجارب الشعرية

إن مـــن مظاهر اهتمام صحيفة «الفلق» بالخطاب الأدبي احتفاؤها بالتجارب الشعرية وهنا نقف في أعداد الأعوام (١٩٣٠-١٩٦٣) على إحدى وتسعين قصيدة نشرتها الصحيفة لشعراء أمثال:خالد بن هلال الرحبي، وعبد الرحمن بن محمد الكندي، وصالح بن سعيد بن ناصر الكندي، وعمر بن أحمد الســـميط، وصالح بن علي الخلاسي، وأبي الفضل عبد الله بن صالح الفارســـي، وعبد الله بن أحمد، وسعيد بن راشد الفيثي، وسعيد بن عبد الله بن غابش الحبشي، وهلال بن بدر البوسعيدي، وهاشم بن عيسى الطائي، وغيرهم، وأعداد هذه القصائد

النسبة التقريبية	العدد التقريبي	المقالة
٣٤٪ ١٣٠	المقالة التاريخية	
٢٩٪ ١٠٩	المقالة الأدبية	
٢١٪ ٨٠	المقالة الدينية	
١٦٪ ٦٠	المقالة الاجتماعية	

تمثل نسبة ٩٠,٢٪ من العدد الإجمالي للخطاب الأدبي، ومن اللافت أن الصحيفة تقدم هذه النماذج الشعرية «بنبرة قوية من الترحيب والاحتفاء» من مثل عبارات (المتقد غيرة على الإسلام والدين، الشيخ الشاعر البليغ صاحب الفضل، أو الشاعر البليغ صاحب الفضيلة أو الشاعر الشاب الغيور، أو هذه القصيدة الغراء وغير ذلك)ويمكن للقارئ أن يجد في تلك القصائد روحا شعرية شفافة تعبق بمظاهر رومانسية محببة، كوصف الطبيعة، وتمجيد التاريخ، والوطن، والمرأة وما إلى ذلك، ونقتطف هنا مقطعا من قصيدة الشاعر سعيد بن راشد الغيثي وقد قدمت له الصحيفة بالتالي:

«هذه القصيدة من قول الشيخ سعيد بن راشد الغيثي في رحلة «وورورا» من الديار السواحلية يقول الشاعر:

غدوك في المهامه أي سر
لإجلاء الأسى من كل صدر
تصافحك الصبا من كل فج
بأفنان الزهور شميم عطر
إذا أرج النسيم أتاك نهرا نقيت من الهموم ولست تدري
وللأطيار ألحان تسلى شبيه العود في نغمات وتر

كما نقتطف نموذج آخر من قصيدة عبدالله بن أحمد باقضل التي يقول فيها:

سلبتنا بحسنها الألبابا إذ
أزاحت عن المحيا النقابا
أخجل البدر حسنها فتوارى
في غيوم الحياء منها احتجابا
غادة في دلالها حين ترنو
بلحاظ ترمي الفؤاد شهابا
يا لتلك القلوب حين تراها
داميات تروم منها اقترابا

ولم يقتصر ذلك الاحتفاء على الشعراء العمانيين وحدهم، بل احتفت الصحيفة بغرض التنوير، والاستنهاض وبث الوعي وشحذ

الهمم بشعراء العربية المرموقين في هذا الشأن فأفردت صفحاتها لنصوص لشعراء أمثال سليمان العيسى الذي نشرت له قصيدة «الثورة الحمراء» وكذلك الزهاوي، وشفيق جبري وأبو سلمى، غير أنها في مقابل احتفائها العلني بتلك الأسماء الشعرية المرموقة، كانت تخفي أسماء الشعراء الذين ينظمون قصائد شعرية ملتهبة، وتكتفي بإيراد النص الشعري فقط دون ذكر صاحبه، كما فعلت في النص الآتي المعنون بـ «لمن البلاد» وفي ذلك إشارة واضحة إلى الحس الاستنهاضي الذي تقوم الصحيفة بدفعه ولو من وراء (الكواليس)، يقول النص مشخصا حالة البلاد:

لمن البلاد وشعبها المختار
طمع الدخيل بها وضاق الجار

هي للأبالسة الذين ترهبوا
بمسوحهم فإذا بهم أحبار

لعصابة مهزومة معبودها
ذهب الحليف ودينها الدينار

للبائعين بلادهم بمناصب
الذل يجثم فوقها والعار

للفارضين على الشعوب زعامة
خرقاء تمنح اسمها الأدوار

ستظل تلعنهم بلادي كلما
ريع الحمى وتحكم الأشرار

الزيت من عرق الشعوب مقطر
ومن الجفون تفجر الآبار

يا جارهات يديك فالشرق ارعوى
فاليوم لا غبن ولا استئثار

عهد العبوديات ولى وانقضى
ومضى فلا ذل ولا استعمار

الله من خلف الشعوب وباسمه
من رقها ستحرر الأقطار

كما كانت تعنى بنشر نصوص شعرية لرموز الشعر العربي القديم، بغيـة تأصيل الفكر التنويري وبث الذائقة الشـعرية التي توافق ذلك الحـس في نفوس قرائها ومتتبعيها، وهي في هذا الشـأن تخصص مساحات كبيرة من صفحاتها لشعر المتنبي، وأبي العلاء المعري، وأبي فراس الحمداني، وامرئ القيس، وغيرهم.

وفي إطار اهتمام الصحيفة بالخطاب الشـعري، سعت جاهدة إلى تقديم الشعر التعليمي متمثلا في «الأسئلة والأجوبة» التي كانت تنظم شعرا في شـتى فنون المعرفة، والتي طالما شـغلت العلماء والفقهاء، والنحويين، فكان نتاجهم منها وفيرا تجلى في تلك القصائد الطوال، التي يبلغ عدد أبياتها عشـرات الآلاف، وتصل مطبوعاتها عشـرات المجلدات، ونتمثل هنا لاحتفاء «الفلق» بهذا النموذج الشـعري بأبيات الشاعر (سالم بن غيث)التي نظمها في النظم التعليمي:

اهـدي إليـكـم سـؤالات بـديـعـات ... مـرصـعـات بـألـفـاظ ثـمـيـنـات

كـأنـهـا الـبـدر والـشـمـس الـتـي بـزغـت ... لـكـنـنـي صـرت فـي بـحـر الجـهـالات

مـاذا تـرون امـرؤ شـهـم لـه شـرف ... قـد ابـتـنـى بـفـتـاة ذات لاحـات

فـرامـه المـوت مـن قـبـل الـدخـول بـهـا ... فـهـل عـلـيـهـا قـعـود بـيـن عـدات ؟

- الاحتفاء بالتجارب النثرية: -

ولـم يقتـصر ذلـك الاحـتفاء الأدبـي على الجانب الشعري فحسب، بل سـجلت صحيـفة «الفلق» احتفاء بالأجـناس الأدبـية الأخـرى من مثل المقالة، الرواية، القصة القصيرة، الخطبة(على نحو ما يمثله كشـاف الخطـاب الأدبي)، فبالنسبة للأولى(المقالة) فقد أحصيناها في أعداد الصحيفة للأعـوام (١٩٣٠-١٩٦٣م) بحـوالي تسع وسبعين وثلاثمائـة مقـالة تراوحت بين الأصناف الأدبية والتاريخية والدينية والاجتماعية على النحو التالي:

وكذلك سجلت الصحيفة احتفاءها بكتاب الرواية والقصة القصيرة

الواعدين، وهنا نقع على فصول من رواية نشـرتها الصحيفة لكاتب شـاب معنونة بـ«الأحلام» وذلك بغرض تشـجيع الطاقات والمواهب الأدبية الصاعدة وقد قدمت لها الصحيفة بالتالي:

«أقـدم اليوم علـى صفحات هـذه الصحيفة روايـة صغيرة ذات اثني عشـر فصلا ألفها شـاب لم يتجاوز ٢٥ عامـا، وما كنت لأقدم هذه الرواية على صفحات هـذه الصحيفة لقرائنا الكرام، لولا أنني أعجبت بها عند قراءتها، وعلى أنها من تأليف شـاب عربي زنجباري تخرج من مدارس مصر...» .

والجدير بالذكـر أن هذه الصحيفة نشـرت «رواية الأحلام» على مدى ستة أعداد دون أن تشير إلى اسم كاتبها مكتفية بالتعليق عليها «بـأن أفكارها ناضجة راقية ولغتها قويـة. وأن صاحبها منح جائزة كتـاب «النظرات» للمنفلوطي. وهي وإن لـم تخل من بعض الأخطاء عنـد المتبحرين فهي عندي مفخرة لا مثيـل لها». والواضح في هذا التقـديم أن احتفاء الصحيفة بهـذه الرواية يأتي من باب تشـجيع المواهب الصاعدة وفتح الباب لهم للإبداع والتطور.

كما أن عدم ذكر اسـم المؤلف والاكتفاء بالترميز له «بشـاب عربي زنجبـاري» يأتـي ضمن الإطـار التكويني المتخفي الـذي بدت عليه الروايـة العربية في بواكير هـا الأولى، حينما نشـر الكاتب محمد حسين هيكل روايته الشهيرة «زينب» كأول رواية عربية، ووقعها حينئذ باسم«مصري فلاح».

ونظـرا لتوحد طبيعـة الموضـوع الاجتماعي، والظـرف الواقعي للحياة العربية، فإن الروايتين تأخذان التوجه نفسه نحو نقد المحيط الاجتماعـي بمـا يكتنفه من رواسـب التخلف الكامنـة في كثير من العادات والتقاليـد الاجتماعية، ومحاولة صياغتـه صياغة تنويرية حضاريـة تخلصه تلـك النظرة الناقـدة لعلاقة المـرأة بالرجل وما يصاحبها من أطـر حضارية جديدة تفرضها طبيعة الحياة الحديثة، إضافة إلى تصويرهما وطرحهما لمكامن الخلل السياسي الذي يحطم المجتمع العربي آنذاك.

ولم تكتف صحيفة «الفلق» بالاهتمام بنص قصصي وحيد فحسب،

بـل قدمت لنا في فترة متأخرة عن تلـك الرواية نصا قصصيا آخر، وهذه المرة موقعا باسـم صاحبه (صالح بـن أحمد الجهضمي) مما يوحي بتبلور فكرة الأنماط الأدبية الحديثة التي استوعبتها، متجاوزة سطوة النص الشعري وسيطرته، وذلك في إطار وعيها بظهور الأجناس الأدبية الحديثة التي بدأت تطفو على الساحة الأدبية العربية.

ومن جانب آخر سـعت الصحيفـة في إطـار احتفائها بالخطاب الأدبي إلى تقديم سلسلة من الحوارات واللقاءات مع الشعراء، بغرض كشف تجاربهم الشـعرية، وإيصال أصواتهم للقراء والمتابعين، ومثال ذلك حوار الفلق مع الشاعر العماني السيد هلال بن بدر البوسعيدي والذي أجراه مراسـل الفلق في مسـقط (علي بن محمد الجمالي) ونشر في عدد ٢٨ تشرين الأول /أكتوبر ١٩٤٤.

المكون الثالث: الاحتفاء بالخطاب الثقافي - الاجتماعي

أما عن الاحتفاء بالخطاب الثقافي في بعده العام، فنجد الصحيفة تمتلئ بالمقالات الاجتماعيـة والدينية والتاريخية، وقد أحصينا منها في عامي ١٩٣٨-١٩٣٩تسـعا وخمسين مقالة تشـكل ما نسبته ٩٪ مـن مجموع مقالات التنوير. ويغلب علـى مثل هذه المقالات الطوال، والاسـتطراد حيث إن الصحيفة تنشـرها في صفحة كاملة، وأحيانا تجزئها على سلسـلة متصلة من الحلقـات، وهي في الأغلب مقالات أعضاء الجمعية العربية.

وفي جانب آخـر تلجأ الصحيفة أحيانا إلى نقل مثل هذه المقالات من الجرائد العربية الأخرى التي تعتبر مصدرا إخباريا لها، وبخاصة صحف (الفتح)و(الأهرام)، (والعلم العربي)، وبذلك تسـتقطب أقلام المثقفين العرب الكبار الذين يكتبون أساسـا في تلك الصحف، ونحن نقع في هذا الشـأن على مقـالات لمحب الديـن الخطيب، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد حسـين هيكل وغيرهم.ولعل«الفلق» تهدف من ذلك الاسـتقطاب بـث الروح التنويرية في نفوس قرائها، ولا سـيما العمانيين منهم، إذ إنها تحاول دفعهم إلى الخلاص من حالة الجمود التي تسـم حياتهم وخصوصا في موطنهم عمان.لهذا فهي تحفزهم على الاقتراب من الخطاب العربي، وبالذات في المجالات السياسـية

والاجتماعية والتاريخية وغيرها.

كما أن الصحيفة أحيانا تهتم بنشـــر المحاضرات الثقافية من مثل محاضرة رودلف روث عن (آل ســـعيد)، والخطـــب من أمثال خطب الشيخ علي بن عمير المرهوبي وعلي بن محسن البرواني وحتى:خطب الشيخ سعيد بن علي بن جمعة المغيري في الجمعية العربية والتي من بينها خطبته بمناسبة افتتاح «مدرسة عربية» بالجزيرة الخضراء في ٦ كانون الثاني /يناير ١٩٤٢م وقد قال فيها:

«باسم الحكومة، وباسم مدير المعارف، وباسم التلاميذ والمتعلمين افتتـــح هذه المدرســـة في هذا اليـــوم، وهي وحيدة مـــن نوعها بهذه الجزيرة، والله ســـبحانه ندعو أن يبارك فيها للوطن وأبنائه، فيخرج مـــن طلابها لنا أمم راقية ترفع هذا الوطن وأبناءه، وترشـــدهم بنور العلم إلى ما هو خير الدارين...» .

****

هذه مظاهر الاحتفاء بالخطاب الثقافي والتنويري في جميع أبعاده السياسية، والأدبية والثقافية العامة.وتكشف قراءة ذلك الخطاب عن وجود محاور عديدة تتدرج من خلالها هيمنة قوته وســـيادة ســـطوته بســـبب عوامل ثلاثة أساسية لمسناها بوضوح ونحن نستقرئ سلسلة تلك الخطابات المكثفة.

الأول:تأثير شخصيات أعضاء الجمعية العربية التي تصدر الصحيفة بما في ذلك رؤساء التحرير (اللمكي- المسكري-البرواني) عبر فرض أيديولوجيـــة توجه الخطاب الصحفي، وقد رأينـــا أن الصحيفة ترد أحيانـــا على مثل تلك التهم، وتدحض النقد الذريع الموجه إليها بفعل ذلك التأثير، كما هو الحال في مقال وظائف الحكومة: «زهق الباطل» ومقـــال آخر بعنوان «جمعيـــة مزارعي القرنفـــل» إذ تنهي الصحيفة مقالها الأخير بالفقرة الآتية:

«يا أيها العرب ويا أيها المزارعون أزيلوا عن عيونكم القذى، وتمسكوا بهـــذه الجمعية.إننا لم نخلق لنكون تحت مشـــيئة الفئة المتاجرة، فلنا رغبات فمن أراد العيش بيننا فليعش وإلا فلتصحبه السلامة..» .

العامل الثاني: تأثير الخطاب الثقافي العربي وخصوصا في مصر

وسورية والعراق ولبنان والجزائر، والذي كان يضج بالأطروحات القومية، حيث كانت الصحافة تحتضنه وتدفع به، وتحاول عبره أن تتواصل مع القارئ العربي في أي مكان، لذا وجدنا أن الصحافة في زنجبار عامة، وصحيفة الفلق بخاصة تتفاعل مع الحدث العربي، وتستقي منه مادتها الإخبارية ويصل به الأمر إلى نقل كثير من نصوصه بقصد التنوير وبث الوعي، وأمثلة ذلك ما كانت تنقله من مقالات لكبار الكتاب عن «الحرية والديموقراطية» وسواهما.

العامل الثالث: تأثير «المجتمع الذي يتفاعل مع الصحافة بوصفها خطابا ثقافيا يضع حرية الرأي في مصاف الأولويات». وأبعد تأثيرات هذا العامل يتمثل في زيادة الإقبال على الكتابة في الموضوعات الإصلاحية إما عن طريق النشر المباشر أو حتى بتوقيمات مستعارة، والصحيفة تمتلئ بتلك التوقيعات من مثل «أبي صالح» و«أبي بركات» و«أبي هريرة» «وابن القطر العماني» و«ابن الشعب» و«فتاة زنجبار» و«لندني» و«عماني» و«عربي منصف» و«مسقطي» و«أفلاطون» في عموده الشهير «مناظرات».

ولقد شكلت لي التوقيعات المستعارة مشكلة أجلت من خلالها الحكم على كثير من تلك المقالات المهمة التي تتناول موضوعات وطنية وثقافية ذات حيوية قصوى ولعل قراء الصحيفة ومعاصريها يعرفون من وراءها، خصوصا الذين عاصروا الشخصيات المهمة في الجمعية العربية يجزمون بتوجهاتهم، لكن رغم ذلك تقف محاذير كثيرة دون الأخذ المطلق بمسلمات تؤكد آراءهم حول من يقف خلف تلك المقالات، وأظن أن ظروف الفترة السياسية، وضغوط الحرب، أملت حساباتها ووجهت طاقاتها نحو المسكوت عنه من التناقض والصراع في الخطاب الثقافي العام.هذا من جهة، ومن جهة أخرى أسهم ذلك الخطاب في نقد لمختلف الأوضاع السياسية والإدارية والاجتماعية السائدة. الأمر الذي خلق جوا مناسبا لظهور المقال الإصلاحي، لكشف ما كان يشيع في المجتمع من مشاكل.

ب - المكونات الفنية:

وفي ضوء ذلك الاحتفاء بالخطاب الثقافي (الإصلاحي)، يمكن

الوقوف على ثلاثة أنواع من المقالات قدمت بهما «الفلق» موضوعها التنويري:

الأول «مقالات يطغى عليها خطاب النقد والاختلاف والحوار» ، وتكثر في المواضيع السياسية الوطنية، وتنصب استراتيجيتها حول الاختلاف في قضايا ومشكلات تهم الواقع، ويصل عددها إلى أربعة وثمانين ومائة مقال في أعداد عامي ١٩٣٠، ١٩٦٢م.أي بنسبة ٢٨,٨٪ من مجموع ما نشر من مقالات الخطاب الثقافي السياسي بفروعه الثلاثة: الوطني والعربي والعالمي. وهذه النسبة عالية مقارنة بأقرانها من النسب في المقالات الأخرى، مما يعني أن صحيفة «الفلق» قد وضعت دعوتها الإصلاحية التنويرية موضع التنفيذ مستنده في ذلك إلى تلمس ثغرات الواقع، واكتشاف مظاهر جموده، ولعل أشهر من قدم هذا النموذج الشيخ هاشل في مقالاته المتعددة التي نذكر منها:

١- مناهج التعليم.٢- تسعير الكهرباء.

٣-البعثات التعليمية. ٤- المجلس التشريعي.

٥- تسعير القرنفل.٦- زراعة النارجيل «جوز الهند».

الثاني: مقالات يسيطر عليها خطاب العرض والشرح والتحليل وتكثر في المواضيع الثقافية العامة، وبالذات الاجتماعية والفكرية والتاريخية، ويصل عدد هذه المقالات حوالي ٢٠٢ مقال في أعداد عامي ١٩٣١، ١٩٦٣م، أي بنسبة ٣٢٪ من مجموع ما نشر في مقالات الخطاب التنويري الثقافي، ويغلب على هذه المقالات توجهها العام من مثل: «الخطابة» و«المرأة في الإسلام» و«الإنسانية وضرورة الرأفة» و«المال والأبناء» وغيرها .

وفي هذه المقالات يمكن اكتشاف العثرات الأولى في تكوين المقال وفي تشكيل مفهومه السائد: فهو مجرد عرض وتفسير ونقل مباشر يخلو من صياغة جديدة لفكرة أو قضية أو طرح لجدليات وآراء متباينة تستلزمها المواقف السياسية والثقافية.

الثالث: مقالات تتسم بطابع التحقيق والتأصيل وتكثر في القضايا الخاصة بالوجود العربي العماني في شرق إفريقيا ، ومحاولة

استشــرافه للأجيال القادمــة، إضافة إلى المقــالات المتصلة بتاريخ الأفكار، ومثال ذلك ينصب في التوجه الرســمي للصحيفة المنســاقة لدواع (أيديولوجية) سياســية وأخرى تعليميــة -تثقيفية، إذ لم تكن دواعٍي التعريف تطرح بقوة إلا من خلال نموذج الصحافة، لهذا وقفنا على مقالات تأخذ هذا المنحى من مثل:

١- زنجبار والعرب. ٢- عمان وإفريقيا الشرقية.

٣-آل بوسعيد حكام زنجبار.٤- السيد سعيد بن سلطان.

ومن الجدير بالذكر أن عدد مقالات التحقيق والتأصيل بلغت ٢٥٣ مقالة، وشكلت ما نسبته ٣٩,٢٪ من مجمل الخطاب الثقافي العام.

بهــذه المكونات جميعا يمكن القــول: إن صحيفة الفلق تمثل وثيقة تاريخية شديدة الأهمية، وترتقي بعض مقالاتها إلى مصاف الشاهد التاريخي النــادر على جملة من القضايا والأحداث الوطنية والعربية والعالمية، ممــا يجعل دورها في خطاب الثقافة الواســع جديرا بأن يســجل ضمن دائرة الإصلاح والتنوير بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

مجلة «العرب» ساحة لعطاء حمد الجاسر الموسوعي

عبدالله الصالح العثيمين *

موضــوع ندوة مجلــة العربي فــي دورتها الســنوية هذه عن «المجلات الثقافية ودورها في الإصلاح الثقافي». وهو موضوع وُفِّق من اختاروه كلّ التوفيق.

وريادة مجلة العربي في مجالها الثقافي ودورها المتميّز في نشر الوعي الثقافي أمــران يعرفهما المهتمون بالثقافة حق المعرفة. فبوركت نشــأة، وبوركت مســيرة عطاء. ولقد أحســن الإخوة، الذين أعــدّوا هذه الندوة الموفّقــة، الظن بالضعيــف الماثل أمامكــم، وتكرّموا بدعوته للمشــاركة فيهــا بالتحدث عن «دور مجلة العرب الرائد فــي إثراء البحث التاريخي والجغرافــي للجزيرة العربية». ولم يكن لهذا الضعيف بد من تقدير ذلك الظن الحســن وهذا التكريم النبيل التقدير اللائــق بهما، وتلبية الدعوة شاكرًا مع إدراكه لأبعاد ضعفه في المجال الذي دعي إلى التحدث فيه.

أما بعد:

---

* كاتب من السعودية

ليس من الممكن التحدث عن مجلة العرب دون التحدّث أولاً عن صاحبها الراحل.. منشئها وجاعلها ساحة لعطائه الفكري الموسوعي.. علاّمة الجزيرة العربية.. أستاذ الجيل وعمدة الباحثين في تراثها بخاصة وتراث أمتنا بعامة.. شيخي وشيخ الكثيرين من لداتي وأقراني حمد الجاسر، رحمه الله رحمة واسعة.

ولعلّ أبلغ عبارة وأكثرها اختصارًا في مسألة الربط بين الشيخ حمد ومجلة العرب هي تلك التي خطّها قلم الأستاذ الجليل الدكتور يحيى الجبوري في ندوة عن مرور أربعين سنة على صدور هذه المجلة: «لا يمكن التعريف بمجلة العرب دون التعريف بصاحبها وجهوده العلمية، فمجلة العرب هي الجاسر والجاسر هو العرب». وإذا سبق الحديث عن الفاعل الحديث عما فعله فإن هذا السبق يأتي منسجمًا مع المنطق كما يبدو للمتحدّث. فمن هو الجاسر؟ وكيف كانت سيرته بحثًا وعطاء؟

كان من بين ما قدّمت به شيخي، رحمه الله، عند تسلّمه جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي:

علاّمة عشق التاريخ والأدبا ... منذ ارتوى بين أحضان البرود صِبا
وسار في دربه العلمي يحمله ... عزمٌ أحدُّ من السيف الصقيل شبا
طوى الجزيرة دارات وأمكنةً ... تلاً وحَزْنًا ودوًا صهيدًا ورُبى
وراح يسبر أغوار التراث فما ... نأى عن البحث يومًا أو شكا تعبا
حتى أعاد أبا عمرو وسيرته ... والأصمعي وياقوتًا وما كتبا
وصار للجيل أستاذًا ومعتمدًا ... وللتلاميذ - مثلي - مُرشدًا وأبا

لقد كتب الشيخ حمد عن نشأته قائلاً: «في عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) تقريبًا ولد حمد بن محمد بن جاسر آل جاسر في قرية البرود لأب فلاح من أسرة قُدِر عليها رزقها، ونشأ عليل الجسم، وتوفيت أمه وهو في

السابعة. وفي مدرسة القرية تعلّم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم نظرًا، أي تلاوة.

أجــل مع إطلالة فجر يــوم من أيام ذلك العام أطلّ على الدنيا وجه مولود جديد لأبوين يعملان في الزراعة القائمة على وسائل بدائية في قرية يربطها بين التحضّر والبداوة ما يربط من صفات ووشائج. وبين إطلالة ذلك المولود علــى الدنيا في قريته تلك وموافاة الأجل له على مســرح العملية الجراحية التي أجريت له في أمريكا بعد تســعين عامًا من تلك الإطلالة مسيرة حافلة بضروب شتى من المعاناة والتحصيل العلمي والعطاء الفكري.

عند إطلالة الطفل حمد علــى الدنيا كانت الأوضاع الصحية في منطقة نجــد بعامة في حالة يرثى لها. وكان كثيــر من الأطفال يموتون في المهد أو بعــد مفارقته بقليل نتيجة أمراض متنوعة لم تجد من يعالجه. ولقد كان هو ضحية أحد تلك الأمراض، إذ وصف حالته في طفولته قائلا: «عشــت أولّ حياتي عليلاً، فلم أحســن المشــي إلا في الســنة الرابعة من عمري». بل إن أمراض الطفولة التي لازمته أفقدت أســرته الأمل في بقائه حيًا إلى درجة أنه حُفِرَ له أربعة قبور، لكن الله قدّر أن يدفن في كل قبر أعد له طفل آخر. وبقي هو على قيد الحياة كما شاء الله وقدّر.

ولقد تزامنت بداية خطوات الطفل العليل - بعد السنة الرابعة من عمره - مع بداية اســتقرار البادية في مستوطنات، أو هجر، ضمن حركة الإخوان المشهورة التي أقبل فيها رجال القبائل النجدية على تعلّم مبادئ الدين الإسلامي وأحكامه. وأصبح لمدرســي هذه المبادئ والأحكام وللوعاظ مكانة جيدة. ومن هنا كان الجو مشــجعًا للأطفال - وإن كانوا من أســر توارثت العمل في الزراعة - على التعلّم رغبــة فيه أو أملاً في الوصول إلى تلك المكانة بســببه. وما كان موت أم الطفل حمد الجاســر - علامة الجزيرة العربية فيما بعد - ليصرف والده عن إرســاله إلى مدرســة القرية من أجل تحقيق ذلك الهدف. بل ربما كان دافعًا له كي يقوم بإرساله إليها تسلية له، أيضًا، عن بعض أحزانه المريرة بفقد أمه.

مسيرته العلمية:

كانــت معرفة الطفل حمد لمبادئ القراءة والكتابة وإتقانه تلاوة القرآن الكريم في مســقط رأســه من الأمور التي ســرّت أباه، وأعطته هو ثقة

بقدرته على اكتساب مزيد من العلم. وما إن بلغ الثالثة عشرة من العمر حتى بدأت مرحلة مهمة في حياته، إذ بعثه أبوه إلى أحد طلبة العلم من أقاربه في الرياض قاعدة الحكم ومركز التعليم في نجد. وهناك درس على عدد من علمائها مبادئ العلوم الشرعية والنحوية. على أن وفاة قريبه، الذي بعثه أبوه إليه، جعله يعود إلى قريته البرود حيث وجد المرض قد أنهك ذلك الأب. وبوفاة أبيه كفله جده لأمه، الذي كان إمام مسجد القرية. فصار يقرأ عليه بعض الكتب. ولضعف بصر الجد أخذ الحفيد حمد ينوب عنه، أحيانًا، في الخطبة وتدريس الأطفال. لكن أخاه الأكبر لم يرض بحالته، فذهب به إلى الرياض عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، ونجح في ضمّه إلى صفوف طلبة العلم. واكتسب من علوم الشريعة واللغة المختلفة ما اكتسب. وبعد سنتين من الدراسة انتقل إلى مكة حيث التحق بالمعهد السعودي، وتخرّج في قسم القضاء الشرعي سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

حياته العملية:

لم يبدأ الشيخ حمد حياته العملية في مجال القضاء، الذي تخصص فيه، بل عمل مدرسًا في بلدة ينبع. ومع أنه عمل قاضيًا عدة شهور من سنة ١٣٥٧هـ إلا أن رغبته في مزيد من التحصيل العلمي جعلته ينتهز فرصة أتاحت له السفر إلى القاهرة حيث التحق بكلية الآداب. على أن هبوب رياح الحرب العالمية الثانية حالت دون إكماله دراسته هناك. فعاد إلى وطنه، ودرّس في أماكن عديدة. ثم تولى مناصب إدارية تعليمية، منها الإشراف على مدارس أرامكو في الظهران، وإدارة التعليم في نجد. وكان آخر عمل إداري تربوي له إدارة كليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م. وهاتان الكليتان هما نواة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

آثاره العلمية:

كانت صفات الشيخ حمد الذاتية فريدة أهلّته ليصبح ذا معرفة موسوعية عظيمة. فقد كان آية في قوة الذاكرة. لم يكن يحفظ الأشعار

فحسب، بل كان يحفظ العبارات النثرية أيضًا، ويحفظ أسماء من لقيهم أو عرفهم بأي طريقة عبر السنين الطويلة التي عاشها، ويحفظ عناوين الأمكنة وأرقامها. ولعلّ من عجائب ذاكرته القوية أنه لم يحفظ الحوادث القديمة التي مرّت به - كما يحفظ أقوياء الذاكرة الآخرون - فحسب، وإنما كان يحفظ دقّة الحوادث التي مرّت به في أواخر عمره. وكان من صفاته الصبر والجلد في سبيل الوصول إلى الهدف العلمي المنشود. ومن الأدلة على ذلك ما قام به من أسفار داخل المملكة العربية السعودية للتحقق من دقة المواضع وصفاتها، وما تحمّله من مشاق الترحال إلى بلدان كثيرة عربية وغير عربية للاطلاع على خزائن مكتباتها والتنقيب عن تراث الأمة العربية الإسلامية فيها. وما دوّنه في كتابه «سوانح الذكريات» فيه الشيء الكثير المفصّل عن تلك المشاق. وكان من صفاته، رحمه الله، عشقه غير المحدود للقراءة والكتابة. وأوضح دليل على سعة ما قرأه من كتب مخطوطة ومطبوعة في مجالات متنوعة من التراث قراءة متدبّر ما دوّنه - نتيجة لتلك القراءة النوعية - من كتب، تأليفًا أو تحقيقًا، وما كتبه من مقالات يصعب عدّها، طرحًا لآراء أو نقدًا لدراسات، أو تصحيحًا لمعلومات جغرافية أو تاريخية أو لغوية.

وكان عشقه للقراءة والكتابة أقوى من أن يحدّ من عظمته ما كان عليه من ضعف بصر لازمه أكثر من خمسين عامًا بحيث كان يحتاج، أحيانًا، إلى استخدام المكبّر للقراءة. وقد عبّر عن ذلك العشق بقوله: «إنني أشعر بالحياة ما دمت أقرأ وأكتب». ولقد تجاوز ما دوّنه من كتب ومقالات وتعليقات ألفًا وخمسمائة عمل.

مكانته وتقديره:

لم يكن غريبًا أن يحتل علاّمة موسوعي اتصف بالصفات الذاتية والعلمية التي اتصف بها الشيخ حمد مكانة رفيعة بين الباحثين والدوائر العلمية المرموقة في الوطن العربي، ولذلك انتُخب عضوًا في المجامع العربية اللغوية والعلمية، وأدى من خلالها أدوارًا كبيرة لم يكن في وسع غيره أن يقوم بأمثالها، وبخاصة ما يتعلق بتراث جزيرة العرب، شعرًا ولهجات وأمكنة وتاريخًا وقبائل وأنسابًا. فقد انتخب عضوًا في المجمع العربي العلمي بدمشق (مجمع اللغة العربية فيما بعد)، سنة ١٢٧٠هـ/

١٩٥٠م، وفي المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، وفي مجمع اللغة العربية في القاهرة عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م. وكان عضوًا في مؤسسة آل البيت، التي تعنى بالحضارة العربية، إضافة إلى عضويته في مراكز ومؤسسات علمية أخرى.

ومادام عطاء الشيخ حمد المتميّز، فكرًا موسوعيًا أصيلاً، بتلك المكانة لدى الباحثين والمؤسسات العلمية، فقد كان أهلاً للتقدير من الجهات الرسمية التي تقدّر ذلك العطاء. ولذلك نال جائزة الدولة التقديرية للأدب في المملكة العربية السعودية) عام ١٤٠٤هـ، وجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي عام ١٤١٦هـ، وجائزة سلطان العويس في مجال الإنجاز الثقافي والعلمي، ودرجة الدكتوراه الفخرية من جامعة الملك سعود في العام نفسه، ثم نال جائزة الكويت للتقدم العلمي ووسام الملك عبدالعزيز سنة ١٤١٧هـ، على أن الجائزة الكبرى، التي يرجو تلميذه كاتب هذه السطور - وقد رحل علامتنا الكبير إلى دار البقاء - هي أن يتغمده الله بواسع رحمته ورضوانه، ويجزيه حسن المثوبة على ما قدّمه لتراث أمته وحضارتها وقضاياها من خدمات جليلة.

أما بعد مرّة أخرى

ماذا عن مجلة العرب ودورها في إثراء البحث التاريخي والجغرافي للجزيرة العربية؟

من حسن حظ الضعيف الماثل أمامكم، وعون الله له، أن ندوة عملية عقدت عن الشيخ حمد في جامعة الملك سعود عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، وألقى فيها بحوثًا عنه، وعن عطائه الفكري من جوانب مختلف علماء أجلاء تشهد لهم بحوثهم القيّمة بطول الباع وسموّ المكانة. وإضافة إلى ذلك كتبت شهادات وبحوث - هذا العام - عن مجلة العرب بمناسبة مرور أربعين سنة على صدورها. ومن هذه البحوث بحثان عن هذه المجلة الرائدة في مجالها بالذات. أحدهما بقلم الأستاذ حجاب الحازمي عضو مجلس الأمناء بمؤسسة الشيخ حمد الجاسر الخيرية، وقد نشر في العدد الخاص الذي أصدرته المجلة بعنوان «العرب... وقد بلغت أشدّها». وثانيهما بقلم الأستاذ الدكتور يحيي الجبوري، الذي كان صديقًا حميمًا للشيخ حمد، وقد ألقي في ندوة أقامها النادي الأدبي في الرياض،

وعنوانه: «الشيخ حمد الجاسر مجلة العرب ومسيرة أربعين عامًا من العطاء الفكري المتميّز». فكان ذلك كله مما شجّع ذلك الضعيف على أن يكتب ما كتب آملاً رأفتكم به ساترة لضعفه.

من الأعمال الرائدة للشيخ حمد الجاسر، رحمه الله، إنشاؤه دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، سنة ١٢٨٣هـ، وقد أصدرت هذه الدار الخصبة سلسلة كتب تشمل بحوثًا جغرافية وتاريخية عن الجزيرة العربية، ومن رحابها العامرة انطلقت مجلة العرب شهرية.. تعنى بتاريخ العرب وآدابها وتراثهم الفكري»، كما حدّد طبيعتها صاحبها تحت اسمها، ابتداء من شهر رجب عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

ومما ورد في افتتاحية العدد الأول، منها قول الشيخ مشيرًا إلى بعض أهدافها: «العودة إلى الماضي بأصالته وعراقته وخباياه، ففي بعثه ما يوقظ الأحاسيس والمشاعر وينبّه الغافلين، ويجدد الاهتمام ببناء المستقبل الذي سيستفيد من دروس الماضي وعبره. ولقد أصبحت مبعث راحة اطمئنان لنفسه بما تحقق عن طريقه من تحقيق للأهداف، التي أصدرت من أجل تحقيقها. فقد قال بمناسبة بلوغها الثلاثين من العمر: «إنني أحس بشيء من الراحة والاطمئنان مبعثهما الاعتزاز بما تحويه من آراء وأفكار هي عصارة عقلي وثمرة تفكيري وخلاصة جدّي واجتهادي في البحث والدراسة في الموضوعات التي طرقتها خلال تلك الحقبة من الزمن، التي أعدّها أحفل أيام حياتي بالعمل».

لقد كانت مجلة «العرب» درّة في جواهر مشروع الشيخ حمد الثقافي العلمي. وكانت الأثيرة لديه، فتغلّب في سبيلها على جميع الصعوبات والعقبات، التي اعترضتها. وكان من تفانيه في استمرار أداء رسالتها أن كان يحرر الكثير من موادها بنفسه، ويراجع تجارب طباعتها، ويدقق في مشاركات الآخرين فيها، وهم من خيرة الباحثين والمحققين من داخل الوطن العربي وخارجه. وانسجامًا مع الهدف التي أصدرها الشيخ حمد، رحمه لله، من أجل تحقيقه، جاءت الموضوعات المنشورة فيها شاملة لكل ما يتصل بالجزيرة العربية بالذات، مواقع وأمكنة، وقبائل وأنسابًا، وتاريخًا وآثارًا، ولغات ولهجات، وشعرًا وشعراء، وكتبًا وكتّابًا، إضافة إلى دراسات عن علوم القرآن الذي كانت الجزيرة مهبطًا لنزوله على نبيّنا

محمد، صلى الله عليه وسلم، وما يتعلق بالحج الذي هو الركن الخامس من أركان الإســلام، والطرق المؤدية إلــى مكة والمدينة، وما كتبه الرحالة عنهما بخاصة، وعن الجزيرة العربيــة بعامة، وما له صلة بالمخطوطات وتحقيقهــا، ونقد ما حقق منها، والاســتدراك على مــن حققها. بل لم تقتصر على ذلك كله، وهو واســع وعظيم، وإنما شملت، أيضًا، دراسات عن الخيــل العربيــة وأصولها وأســمائها والكتب عنهــا، ومقالات عن الســفارات عند العرب والعلاقات الثقافية بين دولهم، وتراجم الرجال، وعروضًا لكتب صادرة حديثًــا مما ذكر من موضوعات، ومقالات أخرى عن وجوه النشــاط الثقافــي والعلمي، التي تحدث هنــا أو هناك، وعن بعض القضايا المعاصرة. وهكذا كانت مجلة العرب موسوعة علمية وافية بكثيــر من جوانب الحياة العلمية، ماضيًا وحاضــرًا، تليدًا وجديدًا، كما كانت منبــرًا للثقافة وملتقى للآراء والأفــكار العلمية تجد فيها الصدر الرحــب الذي يتقبّلها، هــي بتلك الطبيعة الجميلة قــد أدّت دورًا كبيرًا في نشــر الوعي الثقافي والحضاري لدى الكثيرين من قرّائها في سائر أقطــار الوطن العربــي، وتعريف غيرهم من خارج هــذه الأقطار بتراث الأمة العربية المسلمة المجيد. وإذا كانت قد نشأت وترعرعت، وأصبحت وارفة الظلال في عهد منشــئها طوال ستة وثلاثين عامًا، فإن من حسن الحظ أن نفرًا من تلاميذه ومحبيه ومقدّري جهوده واهتماماته ســعدوا بتسـلم زمام إصدارها بعد انتقاله إلى جوار ربه. وهؤلاء هم: الأســتاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب رئيسًــا للتحرير، والأســاتذة الدكاترة عبدالعزيــز المانع وعبدالعزيز الهلابي وعبدالله العثيمين أعضاء. فرحم الله ذلك العالم الموســوعي العملاق، وأعان من ســعدوا بتحمّل مسئولية مواصلة مجلته العرب طريق رسالتها على أداء تلك المسئولية. ومن حسن الحظ، أيضًا، أن هذه المجلة وضعت الآن – من بداية عددها الأول – على قرص مدمج لتيســير الاطلاع عليها والاستفادة منها. وفّق الله العاملين في حقول الخير لكل ما فيه نفع لأمتهم العربية المسلمة.

مجلتا «الكويت» و«البعثة»
ودورهما الريادي في الإصلاح الثقافي الاجتماعي

أحمد الديين *

إنّ الإصلاح تراكم كمي وإضافات جديدة وتحسين للواقع القائم، بهدف معالجة اختلالاته وحلّ مشكلاته والعمل على تطويره وتغييره نحو الأفضل، وليس نبذه تمامًا والعمل على نقضه. ولا يمكن الفصل بين مداخل الإصلاح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإن كان الإصلاح الثقافي يمثل المدخل الأهم لمحاولات الإصلاح الأخرى، حيث إنّه يؤسس الأرضية المناسبة لتقبّل المجتمع إحداث بقية أنواع الإصلاحات وتعزيزها وترسيخها، بمعنى أنّ الإصلاح الثقافي يشكّل الخطوة الأساسية نحو الإصلاح الشامل، لما يحدثه من وعي اجتماعي واستثارة ثقافية وانفتاح على العالم الحديث وتياراته وأفكاره.

أما الإصلاح الاجتماعي فهو يشكّل أيضاً مدخلاً بالغ الأهمية أمام حركة الإصلاح الشامل، لأنّه يفتح الباب أمام تقدم المجتمع،

* كاتب من الكويت

ويسهم في إزالة عوائق التقاليد ورواسب العادات الجامدة، ويحسّن أوضاع القوى الاجتماعية المهمشة، خصوصا المرأة والفئات الفقيرة ويشركها في عملية التطور الاجتماعي.

وقد لعبت المجلات الثقافية الأولى دورًا رياديًا بارزًا في انطلاقة الإصلاح الثقافي والاجتماعي في مجتمعاتنا العربية، وبينها مجتمعنا الكويتي. ولعلّ اختيار مجلتي «الكويت» و«البعثة» كنموذجين للمجلات الثقافية الأولى في الكويت ودورهما في الإصلاح الثقافي والاجتماعي، يعود إلى أنّ هاتين المجلتين الرائدتين تمثلان مرحلتين متميزتين لبدايات انطلاقة الصحافة الكويتية، وفي الوقت نفسه تعبّر موادهما المنشورة عما شهده المجتمع الكويتي في هاتين المرحلتين من تحوّلات، وهما: مرحلة نهاية عشرينيات القرن العشرين ومشارف ثلاثينياته. والمرحلة الأخرى هي النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين والنصف الأول منه، فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما شهدته من تطورات عالمية عاصفة، وكذلك بدايات تحوّل الكويت إلى بلد مصدّر للنفط، وما أحدثه فيها من آثار وتبدلات اقتصادية واجتماعية وثقافية كبيرة.

حيث صدر العدد الأول من مجلة «الكويت»، وهي أول مجلة كويتية، في رمضان من العام الهجري ١٣٤٦ الموافق لفبراير ومارس من العام الميلادي ١٩٢٨، وكان ناشرها ومحررها الشيخ عبدالعزيز الرشيد، الذي كان يتولى تجهيز مادتها للنشر، ثم يرسلها إلى الخارج لطباعتها، بسبب عدم وجود مطبعة في الكويت، وكانت هوية مجلة «الكويت» وتعريفها أنّها مجلة دينية، تاريخية، أدبية، أخلاقية، ثم انتقل مقر المجلة إلى البحرين، بعد اضطرار الشيخ عبدالعزيز الرشيد إلى الهجرة من الكويت، واستمرت في الصدور حتى العام ١٩٣٠.

وأدّت المجلة دورًا إصلاحيًا بارزًا، خصوصًا في التصدي لقضايا التطور، التي كانت مثار خلاف وجدل، بسبب تخلف التقاليد، وتزمت بعض المتدينين.

وقد أصدر الشيخ عبدالعزيز الرشيد مجلات أخرى خارج

الكويت، من بينها: مجلة «الكويت والعراقي» في أندونيسيا مع الرحالة العراقي يونس بحري، وجريدة «التوحيد».

أما مجلة «البعثة» فهي ثاني المجلات الكويتية، وإن كانت قد سبقتها مجلة «الطالب»، التي أصدرها بعض مدرسي المدرسة المباركية وطلابها، ولكنها لم تواصل صدورها بعد العدد الثاني، وقد صدرت «البعثة» كمجلة ثقافية شهرية عن «بيت الكويت» في مصر، الذي يضم المبعوثين إلى الدراسة فيها، واستمرت في الصدور بين شهر ديسمبر من العام ١٩٤٦ حتى شهر أغسطس من العام ١٩٥٤، وتولى رئاسة تحريرها الأستاذ عبدالعزيز حسين، وبعده الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري، وشارك في تحريرها الطلبة المبعوثون إلى مصر، وبعض الكتّاب الكويتيين والعرب.

وسأعرض بعض نماذج لما نشرته مجلتا «الكويت» و«البعثة» من مقالات تتصل بالإصلاح الثقافي، والنهوض بالحياة الثقافية في الكويت، والسعي لانفتاحها على الحضارة الحديثة، وكذلك ما اتصل منها بالدعوة إلى إحداث إصلاح اجتماعي، وتحسين نوعية الحياة في الكويت، والتصدي لقيود العادات وتزمت التقاليد، التي كانت تعوق تطلّع النخبة إلى تطوير المجتمع الكويتي وتقدمه.

فقد نشرت مجلة «الكويت» مقالاً للأديب الكويتي محمود شوقي الأيوبي يحمل عنوان «الشرق والغرب»، يدعو فيه إلى الاستفادة من الحضارة الغربية من دون انغلاق أو تزمت، مع الحفاظ على الهوية الحضارية، وهي قضية مهمة، كانت ولا تزال، محل جدل.

فكتب الأيوبي: «ليتعلم الشرق من الغرب وليظهر بمظهر شرقيته الصادقة، وليدرس منه صنائعه ومخترعاته، وليتعلم نوع قوته التي ساد بها العالم، ويدرسها درسًا دقيقًا، فيأخذها بحذافيرها لأن فيها السلاح القوي، الذي يقاتل به، وليتعلم من مناهجه في الثقافة والفنون على اختلافها، وليمزجها مزجاً مع الثقافة الشرقية القديمة الصالحة، مع تنقية الاثنين، ونبذ ما هو مضر منهما لمصالح الشرق الاجتماعية».

وأضاف بعد ذلك داعيًا للموازنة بين الاستفادة من الحضارة

الغربية والحفاظ علــى الهوية الحضارية الشــرقية: «ليس جديرًا بالشرق أن يأخذ كل ما أتت به مدنية الغرب ويترك مدنيته القديمة، وكما قدمنا لا يحق له أن يترك مدنية الغرب بحذافيرها ويعمل على تكوين نهضة من مدنيته القديمة، بل عليه أن يتخذ الحد الوسط، بين أن يأخذ من الغرب من جهة ويتمسك بشرقياته من جهة أخرى».

وتمثل هــذه الدعوة المتوازنة موقفاً متقدمــاً في مواجهة الموقف المتزمت الرافض للانفتاح على الحضارة الغربية، الذي كان يســود كثيرًا من مجتمعاتنا العربية، وبينها الكويت.

وإلـــى جانـــب مثل هذه الدعــوات العامة للإصـــلاح الثقافي في الكويت بـــرزت دعوات لإحـــداث إصلاحات ثقافية ملموســـة على أرض الواقع، تتمثل في الدعوة لإقامة مسارح، وللاهتمام بالموسيقى والفنون التشكيلية، وتنظيم الندوات، وتطوير المكتبة العامة، وإصدار الصحـــف، وتطوير التعليم، وغير ذلك من مرافق ومناشـــط ثقافية حديثة.

ولئـــن كانـــت البدايات الأولى للمســـرح في الكويـــت قد ارتبطت بالمحـــاورات التمثيلية والتمثيـــلات، التي أدّاها طلاب المدرســـتين المباركيـــة والأحمديـــة، وهما أول مدرســـتين نظاميتين في الكويت، حيـــث جرى أول عرض مســـرحي فـــي العـــام ١٩٢٢ يحمل عنوان «المحاورة الإصلاحية»، وبعدها المسرحية الشهيرة «إسلام عمر» في العـــام ١٩٣٩، التي أداها طلاب المدرســـة المباركية، إلا أنّه لم يكن هناك في الكويت مسرح ولا فرق مسرحية، وهذا ما عُنيت به مجلة «البعثة»، التي نشرت مقالاً في عددها الثاني للفنان الرائد الأستاذ حمد الرجيب، تحت عنوان «المســـرح وأثره فـــي المجتمع»، دعا فيه إلى تأســـيس مســـرح كويتي، مبينًا أثره في إصلاح أحوال المجتمع والنهوض به، حيث كتب:

«مـــا أحوجنا نحن الكويتيين إلى مثل هذا المســـرح لمحاربة بعض التقاليد والعادات والمشكلات الاجتماعية الضارة بنفوسنا وأجسامنا وبلادنا، لأنه بمنزلة مدرسة يتلقى بها الشعب على اختلاف طبقاته ما هو صالح لنفسه وجسمه وبلاده».

كما اهتمت مجلة «البعثة» بالموسيقى، وتصدى كتّابها للموقف الاجتماعي التقليدي الرافض لهذا الفن، ومن بين ما نشرته مقال للموسيقار الكويتي الأستاذ علي زكريا الأنصاري تحت عنوان «نحن والموسيقى» يعرض فيه محاورة جرت بينه وبين صديق له ذي موهبة في العزف الموسيقي، ولكنه يخشى العادات والتقاليد الاجتماعية المتزمتة، فيخفي ميوله، حيث يحثّه الأنصاري على التصدي لهذا الرفض الاجتماعي، فيكتب:

«لو كنت مكانك يا صديقي ما ألقيت للمجتمع بالاً أو أعرته أهمية، لأن الذنب ذنبه هو ليس ذنبك أنت حينما نزل بالموسيقى من سمائها الرفيعة ومكانتها السامقة إلى المنزلة الوضيعة، فحقر من شأنها وأوكل أمرها إلى هؤلاء (...) الذين تحدثت عنهم. وإذا كان مجتمعك لا يقدر هذا الفن العظيم حقيقة ولا ينزله من نفسه المنزلة اللائقة، فأحرى بك ألا تراعيه أو تداريه أو تكون له عبدًا ليس لك إلا الطاعة العمياء، التي لا يوجهها تفكير ولا اتزان».

ومن بين ما عُنيت به مجلة «البعثة» في دعوتها للإصلاح الثقافي في الكويت، الاهتمام بالرسم وغيره من الفنون التشكيلية، فنجد على سبيل المثال مقالاً للفنان التشكيلي الكويتي معجب الدوسري يحمل عنوان «نشأة فن الرسم وتطوره» يبيّن فيه:

«إنّ هذا الفن الجميل متأخر عندنا في الكويت، فعسى أن يكون له نصيب من العناية، لأنه عنوان نهوض الأمة وتقدمها».

وفي إطار اهتمامها بالإصلاح الثقافي، نظمت مجلة «البعثة» ندوة «حول أهم الوسائل الثقافية، التي لا بد من توافرها لخلق جيل مثقف، وما الذي ينقصنا منها في الكويت؟»

وطالبت مجلة «البعثة» في العديد من مقالات كتّابها وعلى لسان عدد من الشخصيات العامة في الكويت بإصلاح وضع المكتبة العامة، التي كانت قائمة حينذاك وتحمل اسم «مكتبة المعارف»، حيث يصرح الوجيه الكويتي مشاري الحسن البدر في لقاء مع «البعثة» أنّ «مكتبة المعارف لا تحقق الغرض المرجو منها مادامت بوضعها الحالي، فيجب نقلها إلى مبنى يؤسس لها خصيصاً على غرار المكاتب الحديثة، وأن

يكون بعيداً عن الضوضاء وجلبة الشــوارع، وأن تسخو عليه الإدارة بالإنفاق في شــراء الكتب وغيرها من وســائل التثقيف، وأن تيسر (...) الاتصال بالمكاتب ودور النشــر الكبرى في العالم العربي، لكي تواكــب النهضــة الحديثة وتقف على مظاهــر التطور، التي تحدث فيه».

كما دعا ذلك الوجيه في اللقاء الصحافي، الذي نشــرته «البعثة» إلى «إنشاء قاعة للمحاضرات وسيلة فعالة لتشجيع المثقفين ومحبي الإصــلاح في هذا البلد على معالجــة أحوالنا الاجتماعية والبحث في عوامل تأخرنا الأدبي، وعرض الأفكار الجديدة وطرق الإصلاح على الجمهور».

وتكرر انتقاد وضع المكتبة العامة والمطالبة بالنهوض بها وتأسيس قاعة للمحاضــرات في مقالات أخرى نشــرتها «البعثة»، من بينها مقــال ليعقوب الحمد يحمل عنوان «من مطالب التربية الشــعبية»، ينتقد فيه وضع المكتبة العامة بسبب «قلة عدد كتبها وعدم تزويدها بالكتــب الحديثة، وعدم وجــود الصحف المتنوعة فيهــا، وصعوبة الاســتعارة منها.... ويطالب بمكتبة جديدة تنشئ إلى جانبها «قاعة ومسرحًا كبيرين يسعان ما لايقل عن ٨٠٠ كرسي، لأن الكويت بأشد الحاجة إلى قاعة ومسرح».

كما كتب الشيخ أحمد الشرباصي في «البعثة» مقالاً يدعو فيه إلى الاهتمام بالأدب الكويتي، يحمل عنوان «الكويت في موكب النهضة»، جاء فيه: «الناحية الأدبية في الكويت تحتاج أيضًا إلى عناية واهتمام، فيجب أن تكون هناك الندوات الأدبية التي تجمع الشعراء والأدباء للمدارســة والمباحثة والإنتاج الفني الجميل، ويجب أن تكون هناك بجوار ذلك مطابع حديثة تنشــر آثار الكويتيين الأدبية، وتطلع على أهل الإمارة بكنوز العلوم والآداب والفنون».

ومع أنّ مجلة «البعثة» كانت تؤدي دورها كمجلة ثقافية كويتية، فإن صدورها خارج الكويت لم يكن ليغني عن تأســيس صحف ومجلات كويتية تصدر داخل الوطن، وهذا ما أدركت «البعثة» أهميته، وأثره في إصلاح الحياة الثقافية والاجتماعية في البلاد، حيث نشرت العديد

من المقالات، التي تدعو إلى تأسيس صحف ومجلات أخرى، فيكتب الأستاذ عبدالله أحمد حسين مقالاً يحمل عنوان «نريد صحافة وطنية، يقترح فيه على الشباب الكويتي تكوين «شركة تتولى إصدار مجلة شهرية أو أسبوعية حسبما تحكم الظروف، وأن يتولوا الإنفاق عليها وأن يسهروا على إنتاجها. ففي هذه الحركة نواة لوثبة جبارة يثبها الشعب الذي قبع مدة طويلة رازحًا تحت أثقال الجهل».

وفي الاتجاه ذاته كتب الشيخ أحمد الشرباصي مقالاً في «البعثة» يتساءل فيه: «لست أدري متى يأتي اليوم، الذي تعرف فيه الصحف الكويتية طريقها إلى الوجود والحياة، فإن الصحيفة اليومية أصبحت اليوم من ألزم اللوازم وأوجب الواجبات، لا للشعوب الكبيرة والأمم الضخمة فحسب، بل لسائر الإمارات والجماعات... كما لا أستطيع أن أفهم السبب الذي جعل الكويت تتخلف إلى الآن عن الإكثار من المجلات الاسبوعية والشهرية، مع أن ذلك سهل ميسور؟!».

وتجاوباً مع هذا الاستحقاق الإصلاحي الثقافي نجد أنّه في العام ١٩٥٠، بعد تولي الشيخ عبدالله السالم مسند الإمارة في الكويت، وحدوث إنفراج سياسي في البلاد، فقد صدرت ثلاث من المجلات داخل الكويت، هي: «البعث»، التي أصدرها الأستاذان أحمد مشاري العدواني وحمد الرجيب، و«الكويت» في إصدارها الثاني، الذي تولاه الأستاذ يعقوب عبدالعزيز الرشيد، حيث استأنف إصدار المجلة الأولى في الكويت، التي سبق أن أصدرها والده الشيخ عبدالعزيز الرشيد بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٠، وكذلك مجلة «الفكاهة»، التي أصدرها الأستاذ عبدالله الحاتم، ورأس تحريرها فترة من الوقت الأستاذ فرحان راشد الفرحان، وهي مجلة ساخرة.

إلا أنّ المجلات الثلاث سرعان ما توقفت عن الصدور لأسباب مختلفة، فيكتب الأستاذ يوسف السيد هاشم الرفاعي مقالاً في «البعثة» يحمل عنواناً ذا دلالة: «لماذا فشلت الصحافة في الكويت؟» يذكر فيه: «لقد استبشرنا بمستقبل زاهر للصحافة في الكويت يتمشى وتقدمها العمراني والثقافي المحسوس عندما قامت نخبة من شبابنا المثقف في أوائل العام السابق بإصدار مجلتين ثقافيتين

همـــا «البعث» و«الكويت» ولكن هذه الحركة الصحافية المباركة كتب لها مع الأسف أن تموت قبل أن تولد، إذ سرعان ما احتجبت المجلة الأولـــى وتلتهـــا الثانية، وعَـــدّ البعض آنذاك هذا دليلاً على فشـــل الصحافة في الكويت».

وعزا الأســـتاذ يوسف الســـيد هاشم الأســـباب إلى «عدم توافر آلات الطباعة الفنية الحديثة، والحاجة الماســـة إلى مساعدة مالية مـــن الحكومة، وعـــدم إقبال تجارنـــا على الإعلان عـــن بضائعهم ومســـتورداتهم في الصحـــف، وقلة عدد المشـــتركين، وعدم انتظام أوقـــات صدور المجلة وتأخرها في ذلك... عدم تفرغ القائمين على المجلة».

ولأن نشـــر الكتب كان محدودًا في الكويـــت، فقد وجهت «البعثة» «صيحة من الأعماق (...) إلى جميع أدبائنا وشـــعرائنا وكتابنا لكي يطبعوا مخطوطاتهم إذا وجدت».

ودار على صفحات مجلة «البعثة» جدل حول إنشـــاء دور للعرض السينمائي في الكويت، فكتب الأســـتاذ سليمان عبداللطيف المدير مقالاً تحت عنوان «الكويت والسينما»

«فنحن إذ ننشـــئ ســـينما في الكويت فإنما نســـاعد على تنمية المستوى الثقافي للشعب».

كما علّق أحد الكتّاب على مقال ســـابق نشـــرته «البعثة» للأستاذ عبداللـــه الســـيد عبدالمحســـن لا يعدّ فـــي تأســـيس دار للعروض الســـينمائية من الأولويات، فكتب: «إنّ أعظم ما تشـــكو منه الكويت هو جفاف الحياة فيها، وخلوها من كل مبهج ممتع يرضي به الذوق وترتضيه المشـــاعر الرفيعة فالنفوس المجهـــودة والأعصاب المنهكة فـــي الكويت أبدًا تفتش عن ذلك الجـــو البهج لتجد فيه الراحة بعد التعب، وتستنشق منه عبير البهجة بعد الكدر وانحراف المزاج، لكنها لا تجده. فكم أنت يا كويت مسكينة، مسكينة والله».

ويبرز في المقالة أهمية الدور التنويري للســـينما والمسرح فيكتب: «إن القصص السينمائية والمســـرحية إنما هي أداة فعالة في إقرار القيم والمعنويات الســـامية، وأنها وســـيلة ناجعة في تهذيب النفوس

والسمو بمشاعرها، وأنها أداة طيعة لمعالجة الأدواء النفسية والمشكلات الاجتماعية، وأنها دروس يبسطها ذوو العقول الكبيرة لبيان ما فسد وتقوم ما أعوج، وأنه ليس أصلح ولا أفعل منها في نبذ ما استقر من عادات وتقاليد بغيضة مميتة للحس والذوق، وإنها سجل حافل يصور لنا التالد والطريف»، ليخلص في النهاية إلى أنّ «القصص السينمائية والمسرحية إذن من وسائل العلم الحديث للتنوير والتثقيف». وبالفعل فقد تأسست شركة السينما الوطنية الكويتية في الخامس من أكتوبر من العام ١٩٥٤، أي بعد نحو ثلاث سنوات من إطلاق تلك الدعوات لفتح دور للعرض السينمائي في الكويت.

وتكررت على صفحات مجلة «البعثة» دعوات كتّابها لتأسيس دار للإذاعة الكويتية، كأحد المرافق الثقافية والإعلامية، التي تحتاج إليها البلاد، فكتب الشيخ أحمد الشرباصي: «إن إمارة الكويت تستطيع أن تتخذ من محطة الإذاعة - لو استجابت لنداء الإصلاح وأنشأتها - وسيلة فعالة لتثقيف الشعب وإخراجه إلى باحات الحضارة الصحيحة والمدنية السليمة».

كما كتب حامد عبدالسلام: «إن أمل كل كويتي هو أن يكون في الكويت محطة إذاعية يستمع منها إلى أخبار وطنه الداخلية والخارجية، وإلى أغاني بلده». وبالفعل فقد تأسست إذاعة الكويت وافتتحت رسمياً في الثاني من فبراير من العام ١٩٥٢.

وحظيت قضية إصلاح التعليم باهتمام مجلة «البعثة»، حيث نظمت المجلة ندوة دارت حول سؤال محوري: «ما هي أوجه النقص التي نحسها في التعليم بالكويت وما هو العلاج؟» أشار فيها المشاركون إلى مشكلات من بينها: عدم تعاون البيت والمدرسة، عدم وجود مدرسة ثانوية للبنات، وتطوير مدرسة المعلمين، ، ومشكلة التعليم في القرى.

ودعا أحد كتّاب «البعثة» إلى إصلاح أوضاع المدارس الأهلية غير النظامية «أسأل دائرة المعارف أن تضع ما لا يزال موجودًا من هذه المدارس تحت إشرافها المباشر لكي تبطل هذه المهازل

وتجبر أصحابها على اتباع النظم التي تعمل بها دائرة المعارف، حتى تتعاون مع المدارس الحكومية على تخريج جيل ناهض يستطيع أن يخدم أمته ووطنه». وبالفعل فقد اضمحلت المدارس الأهلية غير النظامية، بعد انتشار مدارس التعليم العام الحكومية. أما المدارس الخاصة، التي تأسست بعد ذلك على أسس حديثة فهي خاضعة لإشراف وزارة التربية.

ونشرت «البعثة» مقالاً آخر تحت عنوان «خواطر في شئون التعليم» للأستاذ يعقوب الحمد، طالب فيه بإنشاء معهد صناعي للتدريب على العمل في صناعة النفط. وبمعاهد للمعلمين والمعلمات.

أما الأستاذ يوسف السيد هاشم فطالب في مقال آخر بـ «سنّ قانون يجعل مرحلة الدراسة الابتدائية إجبارية، وذلك لكي يقف في طريق الكثيرين من ضحايا الجهل والجشع المادي - خصوصًا من العمال - الذين يدفعون أبناءهم لهجر الدراسة للاستفادة من كسبهم المبكر».

ولم يتحقق مطلب سنّ قانون التعليم الإلزامي في الكويت إلا في العام ١٩٦٥ أي بعد نحو أكثر من خمسة عشر عامًا على نشر ذلك المقال!

وفي إطار الاهتمام بتطوير الحياة الثقافية في الكويت، نظمت مجلة «البعثة» ندوة دارت حول سؤال: «ماهي الوسائل، التي يمكننا بها أن ننهض بالمستوى الثقافي للكويتيين خارج المدرسة؟»، دعا فيها المشاركون إلى إقامة النوادي الثقافية والرياضية، وإصدار الصحف والمجلات، وتأسيس دور للعرض السينمائي، ونشر المكتبات العامة، في تلك الندوة اقترح الأستاذ محمد زكريا انتخاب «لجنة تتولى التفاهم مع أولي الأمر، وشرح المزايا التي تجنيها البلاد من وجود النوادي، والأضرار التي تعود عليها من عدمها».

مثلما حظيت قضايا الإصلاح الثقافي في الكويت باهتمام مجلتي «الكويت» و«البعثة» فقد حظيت قضايا الإصلاح الاجتماعي وتطوير مؤسسات المجتمع ومرافقه وخدماته الاجتماعية العامة باهتمامهما.

فعلى سبيل المثال، يعود السبب الأساسي في استحداث بلدية الكويت إلى مقال نشرته مجلة «الكويت» للشيخ يوسف بن عيسى القناعي بعد زيارته البحرين، حيث اطلع هناك على تجربة البلدية، واقترح الأخذ بها في الكويت، فقد نشرت مجلة «الكويت» رسالة بعث بها الشيخ يوسف إلى الشيخ عبدالعزيز الرشيد حول البلدية، وأرفق معها مقالة حملت عنوان «البلدية في البحرين والحكم الشرعي» جاء فيها: «ما كنت أظن أن البحرين تبدلت هذا التبدل العظيم، ووصلت إلى هذا الحد من النظافة وطيب الهواء، حتى ليخالها المرء قطعة من بلاد الهند، والفضل في ذلك كله راجع إلى البلدية، التي أنشئت فيها. نسأل الله أن ينبه أمراءنا إلى ما فيه الخير والصلاح».

ودعت مجلة «الكويت» في مقال بقلم الشيخ عبدالعزيز الرشيد إلى تأسيس «المشاريع النافعة» وبينها المستشفيات، أثار فيها الموقف السلبي المتزمت ضدها باسم الدين، حيث كتب: «يوجد إلى هذا اليوم أناس يتركون التداوي تورعًا، ويعتقدون أن تركهم له من الدين، بل من التوكل، الذي أمر الله به في كتابه العزيز».

وعُنيت مجلة «البعثة» بأوضاع المجتمع القروي الكويتي، الذي كان قائمًا حينذاك، ويعاني التأخر، ففي مقال ليوسف الشايجي نقرأ: «والآن وهذه القرى لا تزال بدائية البناء، لم تتسع رقعتها وتتعدد مرافقها ويكثر سكانها، إن علينا أن نستغل هذه الفرصة السانحة لتحويلها إلى قرى نموذجية، على ضوء ما نعرفه عن قرى الأمم المتقدمة»، مضيفاً «يجب أن نضع التعليم نصب أعيننا فرفع المستوى الثقافي في هذه القرى يرفع من شأن أهلها ويجعلهم في مأمن مما يجهلون، وسيكون التعليم وسيلة إلى إدراكهم معنى الحياة الصحيحة».

وبعد اكتشاف النفط في الكويت وبدء إنتاجه وتصديره، أخذت تتشكل طبقة عاملة مرتبطة بصناعة النفط بالأساس، وببعض المناشط الاقتصادية الجديدة، وكانت ظروف عمل تلك الطبقة العاملة بالغة السوء، في ظل سيطرة شركات النفط الأجنبية،

والتمييز ضد العمال الكويتيين، حيث تكررت التحركات المطلبية لتحسين ظروف العمل وشروطه، وهو أمر لم يكن بعيداً عن اهتمام مجلة «البعثة»، حيث كتب يوسف محمد الشايجي مقالاً عنوانه «مع الطبقة العاملة»، حدد فيه المطالب العمالية، جاء فيه: «يجب علينا أن نضع قانونًا خاصًا بالعمال يحدد لهم ساعات العمل كما هو متبع في الخارج حتى يتفرغوا لشئونهم الخاصة، وينص في هذا القانون على أن تكون أجورهم مناسبة لتكاليف المعيشة والجهود، التي يبذلونها، وحبذا لو خصص لهم وقت لتعليمهم وتوجيههم توجيهًا يساعدهم على تفهم المهن التي يزاولونها (...) وكذلك يجب علينا أن يساعدهم على تكوين نقابة خاصة من بينهم تسهر على مصالحهم ورفاهيتهم على أن نستمع إلى شكواهم ونجيب مطالبهم...».

وفي ذلك الوقت كان المجتمع الكويتي يمر بمرحلة انتقال من النشاطات الاقتصادية والانتاجية المرتبطة بالبحر كالغوص على اللؤلؤ وتجارته، والنقل البحري، التي بدأت تضمحل، للسير في طريق التطور الرأسمالي، الذي ارتبط بنشاط شركات النفط الأجنبية، وكان البحارة المشتغلون على سفن الغوص على اللؤلؤ وفي اسطول النقل البحري الكويتي يعانون الأمَرّين جراء ما كان يرهق كواهلهم من ديون فرضتها علاقات الإنتاج، التي أخذت في الاضمحلال، وهذا ما اهتمت به مجلة «البعثة» كجزء من استحقاقات الإصلاح الاجتماعي، فكتب الأستاذ يوسف السيد هاشم مقالاً طالب فيه «أن تقوم الحكومة بتسديد الديون التي لحقت البحارة عن طريق الغوص وغيرها خصوصًا بعد كساد سوق اللؤلؤ في السنوات الأخيرة. وهذه الديون قد جعلت كثيراً من البحارة كالرقيق عند أرباب السفن».

وفي مقال آخر للكاتب نفسه يحمل عنوان «كياننا الاجتماعي» حدد مسئولية الحكومة في أربعة بنود أساسية في مجال إصلاح الأحوال الاجتماعية، وهي:

«١- يجب عليها أن ترفع مستوى المعيشة وتكافح الأمية، وتحافظ محافظة تامة على الصحة العامة، لتقضي على الفقر وتستأصل الجهل والمرض بتاتاً من مجتمعنا.

٢- يجب عليها أن تنفذ ما فكرت فيه من إنشاء مصلحة للضمان الاجتماعي تكفل معيشة كريمة للمريض الذي لا يستطيع أن يعمل وللشيخ الفاني، الذي صيرته الشيخوخة إلى مثل حال المريض، ولليتيم الضائع، ولذلك الذي نزلت به الجوائح وقلبت له الحياة ظهر المجن.

٣- يجب على الحكومة أن توجد مصلحة للشئون الخاصة بالعمل والعمال، يكون واجبها إيجاد العمل لكل عامل، وترقية أحوال العمال، وحماية مصالحهم ومساعدتهم في حالة المرض أو التعطل ورفع أجورهم لتتناسب مع تكاليف المعيشة الباهظة.

٤- نحن في حاجة إلى إدارة للشئون الاجتماعية لتنظيم الجهود المبذولة في سبيل إسعاد المجتمع، ولنشر الرعاية الصحية، ومحاربة الآفات الاجتماعية...».

وفي مقال ثالث للكاتب نفسه دعا إلى «تعميم نظام التأمين الاجتماعي».

وهذه المطالب تحققت تباعًا بعضها في وقت مبكر، وبعضها الآخر في وقت لاحق.

وكذلك دعا كتّاب مجلة «البعثة» إلى استحداث قيام نظام الجمعيات التعاونية الاستهلاكية، لما فيه من مصلحة لذوي الدخول المحدودة، وللحد من ارتفاع الأسعار، حيث كتب محمد عبدالله الدرويش مقالاً تحت عنوان «حاجة الكويت إلى جميعات استهلاك تعاونية»، جاء فيه: «الكويت في وضعها الحالي بحاجة ماسة إلى هذه الجميعات تفادياً لما يفرضه التجار من أسعار باهظة على المواد المستهلكة من قبل الجمهور، واجتناباً للغش في المنتجات (...) فمن الواجب إذن أن يكوّن الشباب النابه في البلاد جمعية استهلاكية تعاونية يتكون رأس مالها من إصدار أسهم أو حصص تكون قيمتها زهيدة كي يتمكن من شرائها أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب والانتماء إلى هذه الجمعية».

وبالفعل فقد تأسست في العام التالي ١٩٥٥ أول جمعية تعاونية استهلاكية في الكويت لموظفي الحكومة.

ولا يمكن فصل التوجه نحو الإصلاح الاجتماعي عن جانبين آخرين مهمين هما الإصلاح الاقتصادي، والإصلاح السياسي، وهذه نماذج من تلك الكتابات الداعية لإحداث إصلاحات اقتصادية وسياســية في الكويت خلال تلك الفترة.

فمثلما كانت مبادرة طلعت باشا حرب رائد التحرر الاقتصادي في مصر لتأسيس «بنك مصر» علامة فارقة في تطور الاقتصاد الوطني المصري وتحرره من التبعية، فإنّ الدعوة لتأسيس مصرف وطني في الكويت، كانت هي الأخرى بدايات بلورة مثل هذه الفكرة في الكويت، التي تحولت إلى واقع، فكتب الأستاذ يعقوب الحمد مقالاً في «البعثة» جــاء فيه: «يزاول العمليات المالية، الخارجية والداخلية في الكويت، مصرف أجنبي وحيد، فهو المسيطر على العمليات المالية، وفيه تضع الحكومة ماليتها، وكذلك التجار والأغنياء وأصحاب الأعمال، وباقي طبقات الشعب.

والكويت في مركزها التجاري الحالي، تســتطيع خمسة مصارف أو أكثر أن تشــتغل وتنتــج فيها بحرية تامة، وبذلــك تخدم التاجر الكويتي، ولكن هذا المصرف قد احتكر عمليات المصارف في البلاد لمدة ليســت بالقصيــرة، وأخذ يتحكم في هذا الميدان حســب هواه ورغبته».

واختتم مقاله بالاســتنتاج التالــي، الذي ثبتت صحتــه، وهو أنّ «أهم وأنجح مشــروع في نظري اليوم في الكويت هو إنشاء مصرف وطني».

وعلــى صفحات «البعثة» زفّ الخبر الســعيد حول تأســيس أول مصرف وطني كويتي، وهو «بنك الكويت الوطني»، الذي تأسس في العام ذاته، الوجيه محمد عبدالمحسن الخرافي بمقال يحمل عنوان «المصرف الكويتي الأهلي» نُشِرَ في العدد الثامن - أكتوبر ١٩٥٢.

وفــي إطار الإصلاح الاقتصادي وتطــور الاقتصاد الوطني كانت الدعوة إلى تأســيس شركات مساهمة على صفحات مجلة «البعثة» تمثــل فكرة ريادية للنهــوض الاقتصادي في الكويت، وقد نشــرت «البعثة» مقالاً للأستاذ يعقوب الحمد جاء فيه: «الشركات المساهمة

في الكويت قليلة جداً، وكذلك معلوماتنا عنها، لعدم وجود إحصائيات أو ميزانيات لها تقدم للجمهور».

أما دعـوات الإصلاح السياسـي على صفحات مجلـة «البعثة» فقد ارتبطت بالمطالبة بالأسـاس بتحديث النظام الانتخابي المعمول به لتشـكيل المجالـس المتخصصة في مجالات البلديـة، والمعارف، والصحـة، والأوقاف، وتعميمـه لقيام مجلس تشـريعي، وارتبطت كذلك بالتبشـير لفكرة وضع دستور للبلاد، وهو أمر كان قائماً في العام ١٩٣٨، ولكن تم التراجع عنه بعد حلّ مجلس الأمة التشـريعي في مارس من العام ١٩٣٩، وهذه نماذج مما نشرته مجلة «البعثة»:

فقد نظمت «البعثة» ندوة حول انتخابات المجالس، ندوة للمبعوثين للدراسـة في بريطانيا وبعض الشـخصيات الكويتية، التي صادف وجودها هنـاك، وذلك في بداية العام ١٩٥٢، شـارك فيها سـمو الأمير الوالد الشـيخ سعد العبدالله السالم، والشيخ خالد العبدالله السـالم، والشـيخ مبارك العبدالله الجابر، والسـيد يوسف أحمد الغانم، والأسـتاذ عبدالعزيز حسـين، وغيرهم، وطُرِحَت في الندوة أفكار جريئة، عبّر عن بعضها أفراد من الأسـرة الحاكمة نفسـها، بينهم الشـيخ مبارك العبدالله الجابر، الـذي دعا بالحرف الواحد إلى «تأليف مجلس تشـريعي استشـاري من وجهاء البلد والأسـرة الحاكمة للتشاور في شـئون البلاد الداخلية والخارجية»... مؤكداً بـأن يتم هـذا «عن طريق الانتخابات، التي يتقـدم لها من يرى في نفسـه المقدرة من أبناء البلاد بمن فيهم أفراد الأسرة المالكة»، و«أنّ الانتخابات أصلح من التعيين».

وفي سياق التبشـير بالفكرة الديموقراطية نشرت مجلة «البعثة» مقـالاً بعنـوان «الدولـة الحديثة» وقعّه كاتبه باسـم مسـتعار هو «مواطـن»، جـاء فيه: إنّ «أهـم الصفات المميزة للدولـة الحديثة، القوانين العادلة: وبالطبع فإن القوانين ضرورة بشـرية واجتماعية، وبهذه القوانين يسـتطيع الفـرد أن يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات، فالقوانين تحدد علاقة الفرد بالدولة، والدولة بالفرد، والقوانـين مهما اختلفت وتنوعت فإنها تخضـع لقانون أعلى يطلق

عليه الدستور. فالدستور يعلو كل القوانين، فهو سيد القوانين، والحكام دائماً يراعون ويضعون نصب أعينهم الدستور وما يشتمل عليه من مبادئ وأصول، فهم يجب عليهم أن يتصرفوا وفق أحكام الدستور».

أما الأستاذ حمد يوسف بن عيسى فقد كتب مقالاً يحمل عنوان «حول الانتخاب»، أعلن فيه بوضوح لا لَبس فيه: «إن الديموقراطية لا تتحقق مطلقًا إلا ببرلمان يمثل إرادة الشعب وتكون له الكلمة الأولى والأخيرة».

تجربة مجلة إسلامية في الكويت «الوعي الإسلامي» نموذجاً

د. نواف عبد العزيز الجحمة *

أما وقد بلغت المجلة الإسلامية في الكويت اليوم هذا الشأو البعيد من التقدم والانتشار والتأثير في الرأي العام العربي والإسلامي، وقد رأينا من الواجب وضع هذه الدراسة، تحدونا إلى ذلك رغبات شتى، أهمها تلبية حاجة المكتبات والندوات إلى مثل هذه الرؤية النقدية التي توخينا فيها العرض والتحقيق قدر الإمكان، ثم ننبه المسلمين إلى فائدة المجلة الإسلامية باعتبارها خير وسيلة للتوجيه الإسلامي ونشر الشريعة الغراء في شتى أنحاء المعمورة. وإن هدفاً من هذا النوع وبهذا الحجم، لا يتأتى إدراكه إلا من خلال إمعان النظر الموضوعي في تتبع المسارات والمآلات المختلفة التي مرت بها مجلة إسلامية كـ (مجلة الوعي الإسلامي نموذجاً).

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، جاء اختيارنا لهذا الموضوع الذي يتلخص هدفه الأساس في توضيح نوع الإسهامات والتأثيرات

* كاتب من الكويت.

التي كونتها مجلة الوعي الإسلامي في الساحة العربية الإسلامية انتشاراً وقراءة. فالمجلة الإسلامية ما زالت منبرا مفتوحا أمام كل من يشاركها انشغالاتها الفكرية، ومستعدة للإنصات إلى توجيهات وتوصيات الدارسين من مختلف التخصصات.

أولاً: مجلة الوعي الإسلامي:

إحدى وأربعون سنه من الريادة لصحافة إسلامية متميزة

١- في معنى الوعي الإسلامي:

● في اللغة:

ليس هناك أي التباس في مادة «و - ع - ي» فالمعجم الوسيط يحددها «الحفظ والتقدير، والفهم وسلامة الإدراك وفي علم النفس: شعور الكائن الحي بما في نفسه وما يحيط به» أما ابن فارس فيقول: «كلمة تدل على ضم الشيء. ووعيت العلم أعيه وعيا، وأوعيت المتاع في الوعاء أعيه» وهذا ما نجده في قوله تعالى ﴿وتعيها أذن واعية﴾ وقوله تعالى ﴿وجمع فأوعى﴾

● في الاصطلاح:

فالتحديد يستعصى والمصطلح ينفلت لحظة الإمساك به فعندما نحاول التعريف نجد أنفسنا أمام مركب إضافي: «الوعي الإسلامي». والالتباس ينتج عن هذه العلاقة المولدة بين كلمة «الوعي»، وكلمة «الإسلامي». فالموضوعات الموضوعة بـ «الوعي الإسلامي، لا تتضمن فقط ما هو عقيدة، تاريخ، فقه، وسيرة، وعلوم، وفنون وعمارة إلى آخر النظائر. ولكن ما هو دور الوعي الحضاري، وأثر فقده على واقع أزمتنا الراهنة التي تعيشها البلاد الإسلامية، ومن خلال غياب الأمة عن الشهود الحضاري، وتخلفها وانحطاطها في عدد من الميادين، هذا التوصيف الواقعي لعله يقودنا لنعرف حقيقة الخلل ولا نتشاغل بالعرض عن توصيف المرض. لذا من المعتقد أن أزمتنا الراهنة في جميع المجالات الحياتية، سواء كانت فكرية أو سياسية أو اقتصادية أو أمنية أو غيرها هي - أزمة وعي - في فهم الدين وفقه التدين، وخلل في معرفة الفرد بواجبات وحقوق الانتماء للمجتمع. بالإضافة

إلى تلك الغشاوة المزمنة التي أفقدتنا رؤية المدخل الحضاري، بالولوج في أزقة الوهن والولوج في ملذات الوهم، والعيش في وهدة الحضارات.

مع مجلة الوعي الإسلامي، الوعي كان فعلاً إدراكا فكريا واضحا بالواقع الراهن واحتياجات المرحلة، بعيداً عن المؤثرات والعوارض الصارفة، كل هذا يتم تقديمه لنا بلغة تعتمد وسائل أدبية كثيرة.

يذكر رئيس التحرير في افتتاحية العدد الأول من المجلة ما نصه: «وقد رأت وزارة الأوقاف أن نقوم بعبئها في هذا المجال، فأصدرت مجلة (الوعي الإسلامي) التي يصافحك الآن أول أعدادها، إيماناً منها بأن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها، وأن بناء أية نهضة لابد أن يتم على الأساس الذي قامت عليه النهضة الأولى للمسلمين.. لنصل حاضرنا الطريف بماضينا التليد.

و«العقلية الجديدة لم تعد تقتنع بأن باب الاجتهاد قد أغلق للأبد، أو أن الأوائل لم يتركوا للأواخر شيئا كما يقال.

«وأصبح الباحثون الإسلاميون يؤمنون بضرورة الاجتهاد – ولو بشكل جماعي – لمواجهة أساليب الحياة الحديثة وتكييفها من الوجهة الدينية، فأين الاجتهاد إذن، وأين محاولات العلماء المتخصصين لوضع حلول لمشاكلنا الجديدة؟ ذلك هو ما أريد أن يحاوله كتابنا وما أريد أن أفتح صدر المجلة له، وأعرضه للمناقشة لعلنا نصل بذلك إلى خطوة تتبعها خطوات فيما نأمل ونرجو».

٢- في ميلاد الوعي الإسلامي.

أعلن استقلال الكويت في يونيو عام ١٩٦١م، وقد واكب ذلك ظهور نوع جديد من الدوريات الصحفية، بالرغم من قلة العناصر الإعلامية في الكويت. والملاحظ أن الظروف العامة في الستينيات تغيرت، فقد قدمت الدولة من المنح، والمعونات للصحف والدوريات، فور منحها إذن الصدور وكانت نقطة الانطلاق لمفهوم الصحافة الإسلامية بشكلها العصري، ففي غرة محرم عام ١٣٨٥هـ الموافق ١٥ مايو ١٩٦٥م، أصدرت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في الكويت

العدد الأول من مجلة الوعي الإسلامي لتقف إلى جانب زميلاتها من المجلات الإسلامية في توعية المسلمين والدفاع عن قضاياهم بعيداً عن الخلافات المذهبية والسياسية، وقد نأت المجلة بجانبها عن الجدل العقيم وأمسكت عن مناقشة الذين لا يقفون عند منطق ولا يقتنعون ببرهان، وقد كان لهذا الالتزام والنهج الأثر في رواج المجلة وانتشارها في سائر أقطار الوطن العربي والإسلامي.

وقد دونت هذه اللحظة التاريخية في افتتاحية العدد الأول للمجلة حديثاً في غاية الأهمية عند ميلاد أول مجلة دينية رسمية في الكويت، وذلك بإجراء حوار مع السيد/ خالد الجسار - وزير الأوقاف الأسبق -يقول: «سكرتير التحرير: كنتم أول من عمل على إصدار مجلة دينية في الكويت فما الدوافع التي أوحت إليكم بهذا العمل؟

قال وزير الأوقاف الأسبق: «عندما عينت وزيراً للأوقاف أخذت أستعرض ما تؤديه الوزارة من رسالة للمجتمع، فتبين لي أن أعمالها منحصرة داخل نطاق «روتيني» يمكن إيجازه في الإشراف على الأوقاف وتحصيل ريعها وإحالتها بدورها للجهة المختصة.. مع الإشراف على المساجد.. مما حدا بانطلاق كثير من الأصوات المنادية بجعلها إدارة تابعة لوزارة العدل، ولكن كانت هناك أصوات أخرى تؤمن بالإصلاح وتنادي بضرورة بعث الروح في وزارة الأوقاف لتنهض برسالتها الحيوية في مجتمعنا.

«فوزارة الأوقاف في البلاد أمر تحتمه الضرورة للحفاظ على قيمنا الروحية.. فوزارة الأوقاف تأتي في المرتبة الأولى من ضرورات البلد، لأنها ذات رسالة روحية تعمل على نشر الثقافة الإسلامية وخلق جيل قوي من الشباب المسلم المؤمن بربه ووطنه».

«وعالمنا اليوم عالم تغزوه الأفكار الدخيلة، وتتصارع فيه مبادئ طارئة، وهي وإن كانت غريبة علينا باعتبارنا أمة الإسلام أصيلة، إلا أنها تعمل عملها بلا شك في بلبلة الأفكار وزعزعة العقيدة، ما لم يكن هناك مجهود لصد تياراتها وتبديد آثارها ....».

«والأمة العربية - كما نعلم - دينها الإسلام، وهو روحها الذي لا يمكن أن تعيش بدونه، وهو مصدر سعادتها وسبب نهضتها من

كبوتهـا، وهو الذي فتح أمامها الآفاق، ودفع بها إلى أقصى المشـرق والمغرب تحمل رسالة السماء إلى الأرض، رسالة الحق والعدل والإطار والمساواة..».

«وهـذا هو الذي دفعني، حين أسـندت إلي هذه الوزارة، إلى وضع مخطط شـامل لأجهزتها، مهمتها النهوض برسالتها كما يجب، وفي طليعة هذه الأجهزة جهاز «الدعوة»، فنشـأت إدارة الدعوة والإرشاد وجعلت في مخططها إصدار مجلة تحمل رسـالتها وتوضح أهدافها، وتساهم في نشر الثقافة الإسلامية في الداخل والخارج...

سـكرتير التحرير: «وهذا يدعونا إلى أن نسـألكم عن المنهج الذي تختارونه لها وقد اطلعتم على الكثير من المجلات الدينية التي تصدر في البلاد الإسلامية...، فقال الوزير: «وأنا أعرف أن كبار الكتاب في العالم الإسلامي قد لبوا الدعوة للمساهمة في الكتابة بها مشكورين.. وآمل أن يكون النهج الذي تنتهجه مجلتنا الجديدة «الوعي الإسلامي» بعيـداً عن كل ما يعكر صفو رسـالتها، وأن يكون رائدها الحق ترفع صوته، وتذود عنه بكل صراحة ووضوح، وأن تعرض الإسلام في ثوب قشيب محبب للقراء، وأن تساهم في النهضة الفقهية التشريعية التي يتطلبها مجتمعنا، وأن يعالج كتابها مشكلاتنا الجديدة على هدى من الشريعة حتى يمكن إيجاد حل لهذه المشكلات».

سـكرتير التحريـر: هل راعيتـم في مخططكم حـين فكرتم في إخراجها أن تقوم بنصيب في تثقيف المسـلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية؟

قـال الوزير: «نعم - ومـن واجبنا أن نلبي حاجـة هؤلاء الإخوان، مـن أجل هذا راعيت في مخططي للمجلـة ولإدارة الدعوة، أن تقوم بنصيبهـا فـي هذا المجال، وآمـل أن يتحقق هـذا المخطط على يد المسـئولين الآن في الوزارة، وأن تتم ترجمة بعض الموضوعات المهمة التي بين دفتيها تعميماً للفائدة، وتحقيقاً للهدف المنشـود، حتى تكون الكويت قد ساهمت بقسط في هذا المجال..».

سكرتير التحرير: «هذا أمر طبيعي لابد للمجلة أن تقوم به. وذلك بالإضافة إلى ما يقوم به قسـم النشر والترجمة بالوزارة من ترجمة

بعض الكتب للغات الحية، وقد بدأ بترجمة كتاب «شبهات حول الإسلام» للأستاذ محمد قطب، وقطع شوطاً كبيراً في الترجمة».

قال الوزير: «هذا ما نرجوه وأسأل الله العلي القدير أن يحقق لهذا (الوليد الجديد) التقدم والاستمرار والتوفيق...».

٣ - سياسة تحريرية أم تحرير سياسي:

من الملاحظ أن جل من تولى رئاسة تحرير المجلة من سنة ١٩٦٥ إلى ١٩٩٠م(٨)، كانوا من الصفوة الممتازة، من علماء جامعة الأزهر، فقد تركوا لنا مجموعة كبيرة من المقالات الصحفية والأبحاث العلمية والفقهية التي تعالج قضايا الأمة الإسلامية، أضف إلى الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية ومجموعة من الفتاوى الشرعية وهذا ما يعطينا بعض التفسير للمنطق الفكري الذي حكم نشأة المجلة وحددت وظيفتها من خلاله. فمن كتاباتهم المتوالية خلال عمر المجلة قيد الدرس - يمثل انفتاحا واسع الطيف على الاتجاهات والتيارات الإسلامية المختلفة، ومما يؤكد على صحة هذا الخبر - المقال المعنون «تحية الأمام الأكبر شيخ الأزهر إلى مجلة الوعي الإسلامي» في العدد الأول للمجلة يقول الإمام:

«فقد سررت أبلغ السرور حينما علمت عزم الكويت - ذلك البلد العربي الشقيق - إصدار مجلة (الوعي الإسلامي)، وأن الأمل في هذه الدولة الشقيقة التي تعتز بعروبتها وإسلامها أن تصدر مجلة إسلامية واعية تحمل إلى العالم الإسلامي الفكر الإسلامي في أرفع مستوياته، كما أصدرت من قبل مجلة (العربي) تحمل إلى البلاد العربية الفكر العربي في أنبل أهدافه.

«وليس مصدر سرورنا أن مجلة إسلامية جديدة تضاف إلى عشرات المجلات الإسلامية التي تنتشر في سائر البلاد الإسلامية، ولكن لأن رجاءنا كبير في أن تصدر (الوعي الإسلامي) - جديدة في منهجها فتعرض الفكر الإسلامي الخصيب النابض بالقوة والحياة معا، ومن جانب آخر تواجه موجات الإلحاد والانحراف التي زحفت إلى عقول بعض الشباب في العالم العربي الإسلامي لتغزو الإسلام

والعروبة في عقر ديارهما، وتناوئ عقيدة الإسلام ومبادئه ونظمه بأفكار دخيلة مستوردة يمولها الاستعمار عن طريق أذنابه وأبواقه المسخرة».

المستفاد .لقد التزمت المجلة منذ عددها الأول سياسة تحريرية واسعة الأفق بعيدة، عن المحلية، ويلاحظ هذا أن المجلة حرصت على حضور أقلام مختلفة الاتجاهات من مختلف الأقطار الإسلامية، تقديراً لها وانتفاعاً بها، وجذباً للقراء الذين يحبون أن يقرأوا لكتابهم الذين نشأوا في بيئتهم، كما يحبون أن يقرأوا للأقلام البعيدة عنهم.

ومن بين كتاب العدد الأول نستطيع أن نعثر على أقلام معروفة، لكن الأعداد التالية شهدت أقلام علماء كبار، فهم بين فقيه وأديب وحقوقي ومؤرخ وصحفي ونقابي. وغيرهم.

ويلاحظ أن هذا التنوع قد انخفض في السنوات الأخيرة، بسبب صدور مجلات أخرى لا تقل قيمة وأهمية عن مجلة الوعي الإسلامي (مجلة الحج والعمرة نموذجاً).

٤ - حول استراتيجية الأهداف:

حرصت رئاسة تحرير المجلة طوال عهدها على أن تكون واقعية، فهي لا تفقد تواصلها مع العالم الإسلامي وأخباره من جهة، وتحاول أن تتناول موضوعات ذات أهمية عامة، خصوصاً فيما يتعلق بالقضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وفي مواجهة التيارات المخالفة.

كما حرصت المجلة على التركيز على الجوانب المشرقة في التاريخ الإسلامي، مع عدم إغفال بعض الإخفاقات ومعالجتها وفق منظور علمي يستقي منه العبر والفوائد المتصلة بواقع الأمة اليوم.

ووقفت المجلة خلال مسيرتها على إبراز الرأي الشرعي المتسق مع معطيات العصر ومستجداته بما يكفل تمسك الأمة بدينها، وبما لا يؤدي إلى وقوعها في حرج شرعي يفضي إلى المحظور، هذا مع التركيز على أهمية مؤسسية وعلمية، هيئة الإفتاء وتشجيع المجامع

الفقهيـــة على مواكبة المســتجدات وإدراك ظروف الأمة بما يحقق - «فقه الواقع» -.

واعتمدت المجلة على فن المقال الإســلامي ســواء كان على شــكل (المقال الخبــري) أو (الخبر المقالي) - بمعنى أنهــا لا تكتفي بإيراد الخبر، وإنما تصبغه على شــكل مقالي، موضحـــة أبعاده ومغزاه من خــلال وجهة نظر إســلامية. ولكن لا يكاد يخلو عــدد من أعدادها من أحد البحوث المتخصصة في العلوم الإســلامية. وكل ذلك يعطي انطباعا بأن المجلة ذات حس دعوى، وليســت مجلة دينية تخصصية بالمعنــى الذي نتداوله اليوم، على الرغم من أنها تعرف نفســها على الغلاف بأنها (شهرية إسلامية ثقافية).

٥ - نافذة على الأبواب:

من الصعوبة بمــكان حصر موضوعات المجلة، ذلــك أنها متنوعة بتنوع موضوعات الحياة العامــة، ومتعددة بتعددها. غير أن الأبواب وبعض العناوين التي وردت أو نشرت في المجلة ذات دلالة خاصة، إذ تكشف في الوقت ذاته عن اهتمامات وتفكير القائمين على المجلة:

فقد دأبت المجلة على إيراد أبواب ثابتة لا يخلو منها أي من أعدادها، والأبــواب على الترتيــب هي: الافتتاحية، كلمة العــدد، بريد القراء، أنشــطة الوزارة، البيت المسلم، الســاحة الأدبية، الوعي الاقتصادي، نافذة على العالم، قطوف إسلامية، الفتاوى، مسك الختام.

كمــا أن المجلة تضم أبوابــا متغيرة، ويتضمن فــي الغالب قضايا ومســائل تتعلق بــ (الفكر السياســي، والاقتصــادي، والاجتماعي، والفكري، والديني) من منظور إسلامي، مثل:

تاريخ وحضارة، أحكام، قضايا معاصرة، قضايا اجتماعية، دراسات أدبية، فنون وعمارة، شــخصيات، دراسات قرآنية، فقه وتشريع، طب وعلوم.

وهنــاك أبواب يمكن وصفها بأنها «ظرفيــة» - وهي أبواب تتقطع أحيانــاً لكنهــا حاضرة فــي الأذهان - مثل: مــع الصحافة، قصص ومسرحيات، موسوعات ومعاجم، كتاب الشهر.

فـي كل الأحوال - تتداخل موضوعات الأبـواب ومنطق معالجتها للمـواد التي تتناولها، حتى لنجد في بعض الأحايين أن بعض الأبواب تقوم بنفس الوظيفة.

٦ - قراءة في العناوين:

المتتبع لمجلة الوعي الإسـلامي منذ نشأتها يلاحظ أنها استقطبت خلال مسـيرتها عددا مهما من الكتاب المتميزين من مختلف الأقطار الإسلامية نذكر منهم مثلاً:

د. عبد العزيز كامل، د. عبد المنعم النمر، الشـيخ محمد الأباصيري، الشـيخ محمد الغزالي، حسـنين محمد مخلوف، البهي الخولي، رشدي فكار، د يوسف القرضاوي، د. محمد عمارة، فهمي هويدي.. من مصر.

د. سـعيد رمضان البوطي، على الطنطاوي، د. وهبة الزحيلي، د. مصطفي الزرقاء، د. خالص جلبي من سوريا.

مالك بن نبي، احمد عيساوي من الجزائر محمد الصالح بن عزيز من تونس

د. حسـن عزوزي، محمد الحجوي، عبد الله كنون، أحمد بن سودة من المغرب..

عبد العزيز المطوع، أحمد الخميس، بدر القصار، د. عجيل النشمي، يوسف الحجي من الكويت...

ومن أبرز العناوين التي كان لها صدى إيجابي، وأثارت القارئ على سبيل المثال لا للحصر:

- الكويت تمنع الخمر، أحمد الخميس، عدد ٤، ص ٤٩.
- التصوف الذي نريده، محمد الغزالي، عدد ٢٨، ص ٥٢.
- حاجتنا إلى الإيمان، د. يوسف القرضاوي، عدد ٢٩، ص ٥٠.
- بين الفكر الإسـلامي والفكر الوضعي، د. محمد سعيد رمضان البوطي، عدد ٤٤، ص ٤٨- عدد ٤٦، ص ٢١ -عدد ٤٨، ص ٢١.
- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، مالك بن نبي، عدد ٤٩، ص ٣٠ -عدد ٥٢، ص٢٨.
- الإسـلام في أصوله الأولى والأخيرة، د. وهبـة الزحيلي، عدد

١٠٢، ص ٦٤.

● الفكر الإسلامي بين المنهج الرباني والفلسفي، أنور الجندي عدد ١٥، ص ٧٧.

● أزمة الفكر وفكر الأزمة جمال سلطان، عدد ٢٨٠، ص ٢٨.

● التيارات الإسلامية والديمقراطية، فهمي هويدي، عدد ٣٢٤، ص ٧١

● أزمة عقل أم أزمة في طريقة التفكير، أ. محمد الصالح بن عمر عزيز، عدد ٣٣٠، ص ٧٢.

● إنسانية واحدة وتعددية في الأمم، د. محمد عمارة، عدد ٣٨٨، ص ٥٤.

● عبثية الحرب، د. خالص جلبي، عدد ٤١٠، ص ١٣.

● توصيف الواقع عند الجامعات الإسلامية، غازي التوبة، عدد ٤٧٠، ص ٣٤.

● أشوري أم ديمقراطية، د. عبد العزيز الخياط، عدد ٤٧٧، ص ٣٤.

وبشكل عام يلاحظ أن المواضيع التي تثير قضايا علمية أو فكرية بروح اجتهادية وتجديدية هي التي تثير القارئ أكثر.

وهناك مواضيع أخرى كذلك يهتم بها القارئ وتجذبه كثيراً مثل المواضيع التي تتناول قضايا الفن عموماً وموقف الإسلام منه، وقد نشرت المجلة ملفات خاصة حول هذه المسألة وناقشتها في أعداد مختلفة وطرحت المسألة في افتتاحية العدد ٤٥٩ مثلاً وعنوانها: «حاجتنا إلى الفن الملتزم».

ومن الملاحظات العامة كذلك نذكر:

أن قضايا المرأة كانت غائبة تماماً عن اهتمام المجلة في العشرين سنة الأولى، وبدأ الاهتمام بها يزداد منذ منتصف التسعينيات وخصصت لها ملزمة (١٦ صفحة) تحت اسم «البيت المسلم»، يلاحظ كذلك قلة الموضوعات التي تهتم بالاقتصاد في الفترة الأولى، وقد بدأت المجلة في أعدادها الأخيرة تتدارك هذا الأمر ونفس الشيء يلاحظ في القضايا المتعلقة بالإعلام.

والمجلة تبقى أسيرة كونها مجلة حكومية خاضعة لإشراف وزارة الأوقاف ورؤيتها وهو ما يجعلها فاقدة للاستقلال في الطرح والتوجه العام.

ثانياً: مجلة براعم الإيمان:

التخييل الطفولي والحاجة إليه

بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» حديث صحيح.

من المتفق عليه بين رجال الإعلام والتربية أن مجلة الطفل أداة ثقافية وإعلامية وتربوية وترفيهية يمتلكها الطفل وتعبر عن عصرها وزمانها، وتقوم بمهمة نقل وغرس القيم والمبادئ ومعايير السلوك، وتدعمها إيجابياً وسلبياً من خلال التعبير اللغوي، والصور الذهنية، وشغل الطفل بالأفكار والقيم والفضائل التي تؤكدها له، ونقنعه بها من خلال قصصها وموضوعاتها وأبطالها، وتتميز أيضاً بقدرتها على تشكيل ذوق الطفل والمساهمة في تكوين شخصيته بل وتعتبر مسئولة إلى حد كبير عن تحديد نوعية القراءات في المستقبل، والجاد منها أو التافه والرخيص، وبذلك فإنها مسئولة إلى حد كبير عن تحديد نوعية وملامح هذه الشخصية مستقبلاً».

يبدو لي أن مضمون مجلات الأطفال الإسلامية من المتوقع أن يكون مصاحباً للتربية الدينية الخاضعة لأوامر الله ونواهيه، وأن تكون بمجملها مستسلمة لشريعة الله عز وجل، فهذه المضامين الكتابية هدفها شخصية الطفل المسلم، ومما لا شك فيه أن مرجعية هذه المضامين قديمة قد وردت في شذرات نصية في مدونات تاريخية وسيطة فعلى سبيل المثال: «رسالة أيها الولد» لأبي حامد الغزالي، «تحفه المولود بأحكام المولود» لابن القيم الجوزيه، «وسياسة الصبيان وتدبيرهم» للقيرواني، وما يتعلق بكتاتيب الصبيان (مقدمة ابن خلدون).

وفي هذا الصدد يذكر لنا ابن سينا ما نصه: «ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار الصنعة أن يزن أولاً طبع الصبي، ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك فإذا اختار إحدى

الصناعـــات، تعرف قدر ميله إليها ورغبته فيها، ونظر هل جرت منه علـــى عرفان أم لا، وهل أدواته وآلاته مســـاعدة له أم خاذلة، ثم يبت العـــزم.. فإن ذلك أحزم في التدبير، وأبعد من أن تذهب أيام الصبي فيما لا يؤاتية ضياعًا».

أمـــا المضامين الحديثة والمعاصرة فقد ارتبطت بخصائص متطورة تعتمد تارة على تصوير المعاني وتجسيدها من خلال الكلمة المطبوعة النابضـــة بالحياة، عن طريق تحويل الصفحات إلى لوحات فنية ذات جمال ومعنى، وتارة تعتمد على الصوره باختلاف أنواعها (ســـاخرة، توضيحيـــة) ، مع مـــا تميز به الصورة من لغة يســـتطيع الطفل مهما اختلفت قدرات ذكائه وتعلمه. فهماً وتأثراً.

فعلى ســـبيل المثال لا الحصـــر: مجلة «ســـعد» (١٩٦٩م)، «براعم الإيمـــان» (١٩٧٥م)، «افتح يا سمســـم» (١٩٨٠م)، «العربي الصغير» (١٩٨٦م)، «كويتنا» (١٩٩١م) «أزهار» ١٩٨٨م، «شاهين» (١٩٩٨م).

١ - أضواء على مجلة براعم الأيمان:

تصدر المجلـــة كهدية عن مجلة الوعي الإســـلامي التي تصدر من وزارة الأوقاف والشـــئون الإسلامية، في غرة كل شهر عربي - صدر العـــدد الأول في رجب ١٣٩٥هـ، الموافـــق يونية ١٩٧٥م، بهدف الأخذ بأيدي الأطفال إلى ميادين العلم والمعرفة، وغرس قيم الإسلام وآدابه، ومثلـــه العظيمة في القلـــوب، يقول رئيس التحريـــر: «إن الهدف من إصدار» «براعم الإيمان» - توعية وتعليم أبناء المســـلمين أمور دينهم قولاً وفعلاً، وغرس القيم الإسلامية، التربوية، وتوسيع دائرة المعارف من العلوم الشـــرعية والأدبية والعلمية، وهي تخدم شـــريحة الأطفال من سنة ٦ إلى ١٠ سنوات». وكان عدد صفحاتها في بداية صدورها (١٦) صفحـــة، وتطورت تدريجياً لأكثر مـــن الضعف، فوصلت نهاية ١٩٩٨م إلـــى (٣٦) صفحة من الحجم الكبير (١٧-٢١ســـم)، وتطور عدد نســـخها من خمسة آلاف شـــهرياً إلى مائه ألف عام ١٩٨٦م، ثم انخفض بســـبب تقليص الموازنة إلى ٧٠ ألفًا، ثم ٥٠ ثم ٣٥ ألفًا، وفي نهاية ١٩٩٨م وصل إلى ٣٢ ألف فقط.

ورغم هذا التراجع في الإعداد ورغم التناقص، حافظت المجلة على مستواها وأهدافها، ورفعت من مستوى إخراجها وطباعتها، وخطابها لتواكب العصر، ولم تضع نفسـها في بوتقة ضيقة، حيث نلاحظ أنها تمكنت من تقديم مجموعة من الموضوعات القيمة مضموناً وشـكلاً.
ولعلها واحدة من مجلات الأطفال التي تنشـر من الوزارة التي تؤكد أنها غير مسئولة عما ينشر في المجلة من آراء، فهذه العبارة لا تذكر عادة في مجلات الأطفال، خاصة الديني منها.

٢ - آراء واهتمامات:

قام قطاع الشـئون الثقافية التابعة لوزارة الأوقاف باستطلاع آراء الجمهـور من داخل وخارج الكويت حول عادات وأنماط قراءة كل من مجلة الوعي الإسـلامي، ومجلة براعم الإيمـان، حيث يلقي الضوء على الكثير من النتائج والمقترحات، يجب عدم إغفالها في أي دراسة تتناول مجلتي الوعي الإسلامي وبراعم الإيمان، ولكن تجدر الملاحظة أنه استطلاع غير منشور، وقد صدر في سنة ١٩٩٨م.
كما تأتي أهمية الاسـتطلاع الأخير، والـذي قام به الباحث طارق البكـري عن عادات قـراءة مجلة براعم الإيمان وأنماطها في سـنة ١٩٩٩م وذلـك بتحليل عينة البحث وبـذل جهده الواضح في مراعاة الدقـة في أثناء عمليـة الإحصاء الكمي للموضوعـات عبر جداول ونسب إجمالية ومئوية .
وعليه، فإننا نود أن نسـتعرض أهم ما جـاء من نتائج تحليلية في الدراسـة الميدانية المذكورة للباحث. هذا إلى جانب بعض الملاحظات العامة على مستويين (الفني والأدبي)، وهي النحو التالي:
- أن أكثر اهتمامات المجلة تكراراً، القصص المصورة، حيث حازت أعلى النسـب (٢٣,٧٪) بفـارق يفوق النصف عـن الاهتمام التالي، وهو القصص السـردية (١٠,٢٪) وربما ذلك يرجع إلى أن القصص المصورة هي من أبرز الأشـكال الصحافية وأكثرها جاذبية بالنسـبة إلى الأطفال. ويرى الباحث أنه يجب ألا يطغى هذا الشكل الصحفي على الأشـكال الأخرى، وقد يكون اعتماد المجلة بشـكل رئيس على

القصص المصورة دليل ضعف، لأن كثرة القصص المصورة لربما أدت إلى محاذير، مثل الشعور بالملل السريع بالقراءات الأخرى، والتعود على الواجبات الفكرية الخفيفة.

- يبدو أن القصص الحوارية تجذب الطفل، لأنها أكثر تشويقاً وحماسة وحركة، وتفتح الباب لانطلاقة أخيلة الطفل في عوالم القصص الحوارية لتمثيل شخصياتها.

- يجب ألا يطغى النمط القصصي على جميع الأنماط الأخرى. فالباحث يذكر أنه عند جمع نسب القصص المصورة والسردية والحوارية وجد أنها تقارب نصف العينة (١, ٤٣٪)، وهذا خلل بيِّن يجب على المجلة أن تتداركه، بالرغم من أهمية القصة وأثرها في شخصية الطفل المسلم.

- لا شك في أن مشاركة القارئ الصغير في تحرير مجلة، تحفز في نفسية الطفل دافعية القراءة والكتابة والاطلاع والابتكار، وهذا يشكل اتحاداً ضمنياً وفعلياً بين الطفل ومجلته، وبين الطفل وكل أنواع القراءة الخاصة بالصغار.

- الجدير بمجلة ذات أهداف ووسائل إسلامية ألا تقدم التسلية لمجرد التسلية، بل بإمكانها أن تستغل انجذاب الطفل إلى هذا الباب المسلي، بأن تركز عليه بشكل كبير، وألا تعتبره مجرد صفحات متأخرة.

- يفضل الباحث أن تزداد الجرعة العلمية، والمهارات الأدبية (الحوارات الشعرية، المسرحيات الشعرية)، وبذلك تظهر «المجلة» عناية مثلى بهذين الجانبين، لما لهما من أهمية في تنمية شخصية الطفل العلمية، وتنمية الذوق الحسي والجمالي واللغوي في نفسية الطفل.

- بالرغم من إقرار الباحث بأهمية توضيح الصفات (باب صفات براعم الإيمان) بشكل مباشر، فإن هذه الصفات برأيه - كانت مبثوثة في معظم أبواب المجلة، حيث وجدها في القصص والأناشيد والمسرحيات والحوارات.

- يلاحظ من خلال الأبواب والمحتويات، غياب عنصر مهم، وهو

محاولة جذب الأطفال غير المسلمين إلى الإسلام، وتوضيح الحقائق لهم بعيداً عن التزييف والتشويه بأسلوب ممتع وجذاب.

- يغلب على المجلة طابع الإعداد، لا التأليف والتوجيه، وليس الدعوة إلى الابتكار، لذا تضم المجلة أقل عدد من التسالي والمسابقات، والكلمات المتقاطعة وإمعان الفكر ولعبة الحروف، والمطلوب تعزيز هذه الصفحات بكل ما هو ممتع ومفيد وجديد.

- ليس هناك شعار للمجلة سوى اسمها وليس هناك فهرس أو إشارات على الغلاف لما يتضمنه العدد. وبسبب قلة الصفحات وكونها شهرية اقتصر عدد الكتاب في المجلة على أفراد معدودين، فأخذت المجلة طابعاً ضيقاً في الطرح ونوعية الموضوعات المقدمة، بينما المفروض هو استكتاب عدد كبير من المهتمين في هذا المجال، ودفع مكافآت مجزية لهم لحثهم على الكتابة ونشر أفضل المعروض وليس كل المعروض.

- عدم وجود سياسة عامة تحدد الموضوعات المنشورة، إذ يلاحظ وجود اضطراب وعدم تجانس وتناسب وتنسيق، وكأن الهدف هو وضع كم من الموضوعات الخاصة بالطفل يكفي لإتمام كل عدد كيف اتفق، دون دراسة كل جانب من هذه الجوانب ومعرفة حاجات الطفل وميوله ورغباته وتطلعاته وآماله من مواد المجلة التي يتابعها. كما أن خطاب المجلة لم يراع التنويع الجذاب، حيث جاءت الأبواب كقوالب متكررة نراها في مختلف الصحف والمجلات وهذه الأمور أفقدت المجلة الكثير من الخصائص التي كان ممكنا لها أن تحقق أكبر قدر من الإيجابية المطلوبة.

- إن ربط ميزانية مجلة البراعم بميزانية مجلة الوعي لا يفي بمتطلبات المجلتين، والأفضل تخويل رئيس التحرير حرية التصرف بميزانية مستقلة تلبي احتياجات خطته في التطوير والإبداع.

من صفوة القول. يقول الباحث طارق البكري ما نصه: «إن مجرد التفكير بإصدار مجلة إسلامية للأطفال، قد يكون أمراً مرعباً، ولاسيما بالنسبة إلى الذين خبروا الإعلام ومارسوا المهنة، ولم يكونوا مجرد متطلعين إليها، لأن الحديث عن المعاناة من الداخل لا يشبه

مطلقاً من يــرى المعاناة ويتحدث عنها دون تجربة حقيقية، لكن ذلك يجب ألا يؤثر في مســيرة الإعلام الإســلامي، فسلاح الكلمة أصبح في عصرنا الحديث من أخطر الأسـلحة فتكاً وتدميراً، لما يستوجب مزيداً من الإصرار والمثابرة لتحقيق أعلى مستويات النجاح في مجال الإعلام الإسلامي عامة، ومجلات الأطفال الإسلامية خاصة».

ثالثاً: من أجل استئناف النظر:

المعوقات والتوصيات.

أما بعد - فإن الكلام عن تجربة مجلة الوعي الإسلامي في الكويت لم يبدأ بعد، وما هذا البحث إلا محاولة أولى لتدشــين نوع من القول فيه ضمـــن أنواع أخرى من الــكلام مازالت كلها ممكنـــة تنتظر من يفــك العقال عنها والحصار، من أجل هذا ســنعمد هنا إلى نوع من استئناف النظر فيما سبق. واستئناف النظر هو وجهة نظر يراد منه الارتفاع بالنقاش إلى مســتوى أعلى، كان النظر منصرفاً في مدخل هذا البحث إلى مســائل الرؤية والمفاهيم والتصورات التي نعتقد أن توظيفها نوع من التوظيف قد يساعدنا على رؤية موضوعنا عن قرب من موقع أفضل. إن هذه المفاهيم والتصورات التي مكنتنا على الأقل، من الانتظار إلى النظر على كثير من المعوقات التي تقيد تطوير العمل وتمنعه من اكتشـــاف الطريق إلى تاريخه: إلى إماطة اللثام عن كيفية تكوينه وتتبع مساراته.

● المعوقات:

- مجلة الوعي الإسلامي لا تعامل معاملة خاصة تتناسب، وطبيعتها ومهمتها الصحفية، حيث إنه لا توجد لوائح مالية تعتمد نظامًا ماليًا خاصًا بالعمل الصحفي.

- لا توجد سياسات واضحة تمكن المجلة من التعاقد مع مؤسسات صحفية لإجراء التحقيقات والاستطلاعات اللازمة.

- لا توجد هناك لائحة تمكن المجلة من تعزيز شبكة المراسلين في دول العالم الإســلامي، وفتح مكاتب للمجلة في بعض الدول العربية (مصر والمغرب نموذجا).

- لا توجد بالمجلة سياسة تضع خطة سنوية وشهرية للمواضيع التي يجب تغطيتها بالمجلة، مما يجعل المجلة خاضعة لما يصل من الكتاب، أو تكرار بعض المواضيع.

- لا يوجد بالمجلة نشاط إعلامي واسع وملحوظ داخل المجتمع الكويتي، حيث إن المجلة على سبيل المثال لا تقوم بتنظيم ندوات متخصصة حول القضايا الساخنة تدعو فيها المتخصصين، وبصفة دورية، ثم تنشر وقائع الندوة بالمجلة.

- المجلة تعاني قصورًا حادًا في الكوادر الصحفية المؤهلة والمدربة والمتخصصة في فنون التحرير الصحفي.

- مقر المجلة الحالي لا يتناسب مع الطموحات والأهداف المرسومة لها.

- اللائحة المالية للمجلة تبين قصور المكافآت المخصصة للكتاب، كما لا يوجد بالمجلة نظام الحوافز التشجيعية.

- لا يوجد هناك خطط تسويقية لترويج المجلة وانتشارها.

- غياب بعض الفنون الصحفية المهمة كالتقارير الصحفية، والتحليلات الإخبارية، والتعليق على الأحداث، وندرة الأحاديث الصحفية، وكذلك التحقيقات بصورة واضحة، وإن كان هذا الغياب هنا مرتبطا بكونها مجلة حكومية.

- أسلوب التحرير الصحفي المستخدم يغلب عليه السطحية مع طغيان أسلوب السرد التقليدي ولا تستخدم المجلة الأساليب الحديثة في تحرير المواد المنشورة فيها.

- من المعوقات التي تقف حجر عثرة أمام تطوير مجلة براعم الإيمان موضوع الرسوم والصور، حيث تحتاج إلى فتاوى ثابتة تتيح للمصور أو الرسام أن يعمل دونما خوف أو ريب.

- هناك خلط واضطراب في صفحة المحتويات، إذ لم نجد تصنيفا مبرمجا للعناوين بدءاً من الافتتاحية إلى مسك الختام، هذا وقد بلغ عددها (٩٨) عنواناً.

- عدم التركيز على القضايا المحلية مثل: البدون، العمالة الأجنبية، ووضع المرأة وحقوقها السياسية، وغير ذلك من الأمور التي لم يتم

التعامل معها.

- ما يؤخذ على المجلة عدم وجود ذكر للمساهمات البرلمانية الكويتية إزاء القضايا التي تهم الأمة الإسلامية كـ (المشاركات في المؤتمرات الإسلامية، وإصدار البيانات السياسية المتعلقة بالقضايا الإسلامية على الساحتين العربية والإسلامية، هذا فضلاً على أثر المساهمات البرلمانية في لجان الصداقة بين البرلمان الكويتي والبرلمانات الإسلامية.

من هنا يتجلي واضحاً أن إعادة تأصيل. استراتيجية التطوير في المجلة ضرورة ملحة ويجب أن تنطلق من استراتيجية التطوير التي تؤسس النموذج الذي نريد، ولكن هل يكفي ذلك وحده لتجديد المجلة وإصلاحها؟ هذا ما سنذكره في أهم المقترحات والتوصيات بشأن تطوير عمل المجلة والتي جاءت على النحو الآتي:-

● التوصيات:

- تحديد الهوية المطلوبة للمجلة بشكل واضح، ومن خلالها طبيعة المخاطب المستهدف: فالمجهود المبذول حالياً كبير جداً لتغطية مجالات عديدة بالمجلة، لكن الحقيقة أنه لا يمكن أن نقول كل شيء عن كل شيء في فضاء محدود مثل «المجلة».

- من الأهمية بمكان إطلاق حملة لاستقطاب الأقلام الجادة بمراسلة المفكرين والكتاب واستكتابهم، وربما الاتصال بهم شخصياً، والذين يشهد لهم الرأي العام بالموضوعية والنظر المعتدل.

- التوسع في مجال الاستطلاعات السكانية والتي تمثل الجوانب المعيشية، وعادات وتقاليد الشعوب المسلمة والخلفيات التاريخية لكافة الشعوب المسلمة.

- الاهتمام بالجاليات الإسلامية في الغرب الأوربي والولايات المتحدة، وتيسير الاتصال الفكري والثقافي معهم عبر المجلة وأبوابها.

- العهد إلى المختصين بترجمة الدراسات التي ترد من قبل مفكرين غربيين، أو تلك التي ترى الوزارة أهمية ترجمتها، ثم فحص الترجمة وتوظيف الهامش للتعليق والاستدراك على ما يخالف النظر

الإسلامي.

- إبـراز دور نشـاطات وزارة الأوقـاف والمؤسسـات التابعة لها، والاستفادة من الكفاءات الوطنية المتخصصة.

- تنظيم ندوات دولية على فترات حول القضايا الإسـلامية ودعوة المفكرين والباحثين ثم تفريغها في إصدارات خاصة تابعة للمجلة.

- تعزيز شـبكة المراسـلين وزيادة عدد المحرريـن المتفرغين ورفع مستواهم وتجديد مهاراتهم من خلال الدورات التدريبية.

- فتـح مكاتب للمجلة في بعض الـدول العربية، وذلك لتعزيز قوة المادة المنشـورة وتنوعها وسـهولة تحديد هيئة التحريـر للمواضيع المطلوب تغطيتها مع ضمان الاستمرار.

- انتقاء كفاءات تحريرية وقيادية وإدارية قادرة على التمازج مع كل الأحداث، والتناغم مع المستجدات.

- من الأهمية بمكان اسـتقلالية المجلة في صنع قراراتها، وهذا لا يتم إلا من خلال تبعية المجلة لمجلس استشـاري يتبع لمعالي الوزير أو من ينيبه.

- يجب أن يكـون موقع المجلة متميزاً وظاهـراً للعيان مع مواقف خارجية، وأن يتناسب التقسيم الداخلي مع الهيكل الإداري.

- تقتـرح أن تكون زيـادة المـوارد الحالية للمجلة بزيـادة الدعم الحكومي لها، أسوة بالدعم الحكومي المقدم لمجلة «العربي».

- زيادة طباعة نسـخ مجلة براعم الإيمان وبيعها بشـكل منفصل لزيادة الموارد مع الاحتفاظ بالبرعم المرفقة كهدية مع المجلة.

- ارتيـاد آفاق جديدة تتصل بمسـتقبل الجاليات الإسـلامية في البلاد العربيـة، وتمثل المخيـال الجماعي الغربي لصورة الإسـلام والمسـلمين بعد خفوت أصوات التصعيد والتوصيف السلبي لهما في وسائل الإعلام المتنوعة.

- التوسع في عرض رسائل بريد القراء خصوصاً فيما يتعلق بالآراء المؤيـدة والمعارضة للأحداث والقضايا المطروحة فيما لا يتعارض مع سياسات النشر بالمجلة.

- الاهتمام بتحرير ملف لكل عدد يتناول أهم قضايا الأمة يشارك

فيه المحررون، والمفكرون، وأساتذة الجامعات.

- الاتفاق على مصادر محددة للفتوى كـ (مجمع الفقه الإسلامي المنبثق من مؤتمر الدول الإسلامية)، والبعد عن الفتاوى الشاذة التي تخالف جمهور الفقهاء.

- الاستعانة بفريق استطلاعي مجهز يعنى بتغطية المؤتمرات الإسلامية التي تعقد في أنحاء العالم، بحيث يتم تغطية المؤتمر كالاستطلاع عن الحضور البرتوكولي لقادة الدول الإسلامية، وملخص عن الأوراق المقدمة كقادة رأي في بلادهم والعالم الإسلامي. والاستطلاع يجب أن يكون جذابا ويكون في الوقت ذاته غنيا فكرياً.

- إيجاد ملحق لها بالإنجليزية يوسع دائرة التوزيع ، خاصة في البلدان الإسلامية الناطقة بالإنجليزية، ويبدو أن الأقلام القادرة على الكتابة بالإنجليزية في مجال الفكر الإسلامي، وإن كانت قليلة إلا أنها موجودة.

- عمل دراسة متكاملة وتاريخية عن مجلة الوعي الإسلامي من ناحية الإخراج والشكل العام لمعرفة واقع المجلة، وتحديد الهوية المطلوبة للمجلة بشكل واضح، ومن خلالها طبيعة المخاطب الملائم للفئة المستهدفة، وبناء على هذه الدراسة يتم إعادة تصحيح المجلة إلى الشكل الذي يعطيها المكانة المرموقة التي يجب أن تكون عليها.

المجلاّت الثقافية العراقية دورها ومكانتها

د. محسن الموسوي*

دائمًا يُختلف بشـأن مكانة المجلات الثقافيـة في تكوين النخب الثقافية، وكذلك في تنشيط المناخ الثقافي ورفده بشتى التيارات والاتجاهات، التي قد لا تتسـع لها الكتب، وكلمـا برز موضوع المجلات الثقافية في البلدان المتطلعة للاسـتقلال، أو تلك التي نالت اسـتقلالها خلال العقود العشر الأخيرة، بدا هذا الدور أكثر وضوحًا لطبيعة العلاقة الوثيقـة بين هـذا التطلع وبين الوعـي الثقافي الذي تشـكل المجلات والصحافة والكتب ملمحه البارز، بالإضافة إلى الركيزة التعليمية، متمثلة بالجامعـات ومراكز الأبحاث. ولما كان المثقفون يشـكلون واجهة عريضة في البلدان المستقلة حديثًا، لنا أن نتصور الكيفية، التي تتشكل بموجبها الأولويات الثقافية في هذه البلدان، فمَن منا يمكن أن ينسى دور المجلات النهضوية كالمقتطف والجامعة والهلال، والرسالة، والكاتب المصري؟ ومَن منا ينسـى الدور اللاحق للأديب، ثم الآداب بسـعتها وريادتها، والثقافة الجديـدة، والبيان النجفية، قبل أن تحل مجـلات أخرى كثيرة، صغيرة

* أستاذ الدراسات العربية - جامعة كولومبيا في نيويورك.

وكبيرة، كالمعرفة السورية والطليعة والكاتب وغيرها؟

والأمر الذي يستحق الإشادة قبل الشروع في تقديم المجلات الثقافية العراقية، أن هذه المجلات غالبًا ما شكلت المنابر الفعلية لاستجماع الرأي وتحريـــك الاتجاهات، أو حتى توليدهـــا ودفعها، كما أن هذه المجلات لا يمكـــن أن تدرس على أنها ولادات متشـــابهة، متماثلة الحضور والعلاقة بالجمهـــور، فما يقـــال عن الآداب مثلاً، قد لا ينطبـــق على الأديب، وما يقال عن مجلة (العربي) قد لا يتماشـــى مع (عالم الفكر) أو (فصول) أو (فكر) التونســـية في الثمانينيات. وهناك مجلات صغيرة، أو هامشـــية، تخرج من التخوم بمجهود شخصي، قد يكتب لها النجاح، ولكنها غالبًا ما تمنى بالإخفاق. أما قيمة المجلة الصغيرة، فتكمن في التدليل على وجود هاجس ما، نبض خفيض لم يكتب له بعد آن يشـــغل الصدارة، أو لا يراد له أصلاً أن يكون متصدرًا في ظل ثقافة أخرى مهيمنة وقوية. إن ساحة الثقافة ليســـت أمرًا واحدًا، علـــى الرغم من وجود مجموعة من العوامل المشـــتركة التي قـــد تفوق حضورها فـــي مجالات أخـــرى تعتمد مبادئ المنافســـة، وصراع القوة والنفوذ. فما نقوله عـــن مجلة الكلمة العراقية، التي أخذت بالظهور في النجف قد لا ينطبق على الأقلام، التي ســـبقتها بعامين، على الرغم من اشتراك بعض الكتّاب في الكتابة للمجلتين. لكن تكرار أســـماء بعض الكتّاب لا يعني اختفاء الفوارق، التي تجعل المجلات الثقافيـــة متفاوتة حضورًا وتأثيرًا ونفوذًا علـــى صعيدي الدولة الوطنية والمجتمع.

ومن جانب آخر، لكل مجال ثقافي سلالة نسب لا يمكن تجاهلها: فهل كان ظهـــور مجلة الأقلام في أيام حكم الأخوين عارف في العراق – مثلاً – مقطوعًا عن سلالة المجلات، التي ظهرت أثناءحكم الزعيم عبدالكريم قاســـم، وتحت تأثير اليســـار العراقي النشـــيط حينذاك مثلاً؟ ماذا عن الثقافـــة الجديدة وكتّابهـــا المبرزين من بين الوســـط الجامعي العراقي كالدكتور مهدي المخزومي وإبراهيم الســـامرائي وصلاح خالص ونزيهة الدليمي وغيرهم؟ وكيف نقارن هذه الأسماء بالأسماء، التي ستشغل مجلة الأقلام – مثلاً – من على شـــاكلة ناجي معروف وجمال الدين الألوســـي وخيـــري العمري وفيصل الوائلي وجميل ســـعيد ونعمان ماهر وعبدالله

الجبوري والشيخ جلال الحنفي ونوري حمودي القيسي وعبدالوهاب الأمين؟ وهي أسماء قد لا تظهر فيها منذ منتصف السبعينيات!

لقد ظهرت الأقلام عام ١٩٦٤عن وزارة الثقافة والإرشاد، ويرأس تحريرها الوزير حينذاك عبدالكريم فرحان. ومن هيئة التحرير: نازك الملائكة ومصطفى جواد وجميل سعيد، وعبدالهادي محبوبة وأحمد شاكر شلال ويوسف عزالدين وخالد الشواف ونعمان ماهر. وعهدت سكرتارية التحرير إلى عامر رشيد السامرائي.

وعندما نريد أن نقرأ حضور الأسماء في ضوء المواقف الفكرية والانتمائية للمثقفين والجامعيين يمكن أن نرى الفرق بين مجموعة الثقافة الجديدة - مثلاً - ومجموعة مجلة الأقلام، وهو فرق كان يمكن أن نتبينه في إصدارين آخرين طيلة نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات بين كتّاب مجلة الأديب المعاصر لسان حال الأدباء العراقيين في ظل اليسار العراقي، والشيوعي تحديدًا، ومجلة الكتاب والمؤلفين، التي يرأسها الدكتور يوسف عزالدين، والتي تنطق بلسان الكتّاب القوميين، أو غير المحسوبين على أحد. لكن هذا الفرق الظاهر يخفي فروقًا أخرى تخص مادة الثقافة المنشورة: فالمحافظة أو الاستقرار هي صفة الجناح القومي أو المستقل عن اليسار، والابتكار والثورية والاختلاف والتحزب صفة الطرف اليساري. لكن الأقلام تبقى حلقة في سلالة نسب، وهي سلالة سرعان ما تتوزع في فروع حسب النمو الذي لابد منه لأطراف هذه السلالة.

فالأقلام ورثت عن الثقافة الجديدة، التوجه نحو الجامعة للاستحواذ على الأقلام المؤهلة للكتابة، والتي تدفعها الرغبة والحاجة إلى النشر والتأليف والتأثير. وكان لابد لها أن تؤكد هوية النظام الذي تنتمي إليه، على الرغم من أن سكرتير التحرير كان يتصل بنا، ونحن لم نزل طلبة للتأليف والمشاركة والاتيان بالأفكار والتيارات الجديدة. كما أنها كانت تدرك حجم المنافسة، التي أخذت بالتزايد بعد إطلاق سراح مجموعة من المثقفين الشيوعيين الذين شغلوا الصحافة الأدبية، ونشروا مقالات ومسرحيات وقصصًا لكتّاب لم تتمكن الأقلام من بلوغهم بعد. وبعضهم خاض في مناقشات مهمة تخص الثقافة الثورية ومفاهيم غرامشي

وآراء علي الوردي في المجتمع والشخصية العراقيين. ومثل هذا التنافس سيكون له أثره في انفراط السلالة، سلالة النسب، في مجموعة سلالات تبنى على أســاس التخصص بديلاً عن انتمــاءات الكتّاب. وهذه قضية مهمة جدًا عندما نريد البحث في موضوع المجلات الثقافية.

ولكن هل يتم هذا الانفراط في ســلالة النســب على نحو عشــوائي؟ دعونــا نحدد معنى الانفراط على أنه توزع العائلة الأم إلى مجموعة من العوائل حسب التخصص. فإذا كانت الأقلام في بداياتها (١٩٦٤) تجمع التراث والمعاصرة، المســرح والقوالب القديمة في الشــعر، والتاريخ مع الجغرافيا، والعروبة والإســلام، وألفاظ البنان مع دراســة في الفحولة، وتســعى لضمان مشاركة اســم عربي على الأقل في كل عدد تماشيًا مع رايتها القومية، فإن هذا الجمع لا يمكن أن يســتمر طويلاً. وحالما حلت ١٩٦٨، ومعهــا انقلاب الأفكار والنظام اثــر ١٩٦٧، وظهور قيادة البعث لمجموعة الجبهة الوطنية، تغيرت خارطة المجلات، وانبعثت سلالات عدة من داخل السلالة القديمة، أي سلالة الأقلام:

فظهرت مجلة المورد ســنة ١٩٧١، والتراث الشــعبي ١٩٧١، والطليعة الأدبيــة ١٩٧٥، وآفــاق عربية ١٩٧٥، والثقافــة الأجنبية ١٩٨٠. ويمكن أن يكــون ظهور المجلات محض مصادفة، أو عبارة عن اســتجابة لرغبة مجموعة من الأدباء أو مبادرة شــخص ما. ولكننــا نخطئ كثيرًا عندما نتحدث عن (الوعي) الفردي، أو (الجماعي) على أنه مقطوع عن تعددية الســلالة في لحظة تاريخية ما. وما يســميه بيير بوردو بالطباع المؤلفة، لا يعــدو أن يكون وليد مجموعــة من العوامل، التي تلعــب فيها التربية والثقافة والظروف العامة دورًا حاســمًا تكوينًا وتمثيلاً ودورًا: فالانقلاب الجــاري أراد فعلاً مجموعة من التغييرات علــى أصعدة الحياة العامة، وهي تغييرات رآها النظام وثيقة العلاقة بثقافة غير دينية وغير تقليدية: أي أنها ثقافة علمانية أولا ترعى التراث الشعبي و(الرفيع) حسب مبادئ أخرى، كما نتبين بعد حين: وليس غريبًا أن ينصب التفكير على تشــكيل وإصــدار مجلتين تســتكملان الأقــلام وتتيحان لها اختطــاط (حداثة) ثقافية، علمانية طلائعية أولاً. وهكذا كان صدور المورد كتأســيس تراثي رصين يستكمل أيضًا ما تقوم به مؤسسة الآثار من إصدار متمثلاً بمجلة

سومر. أما (التراث الشعبي) فتمثل إصداراً رغبة (ثورية) مزدوجة لمجاملة (الجماهيـر) ورغباتها وفنونها، واحتواء هذه الرغبات وتمثيلها وعرضها على أنها مخزون قابل للانقراض، أو على وشـك ذلك في ظل التغييرات المرتقبـة على صعيد التحولات الداخلية. إن التراث الشـعبي تسـتكمل المتحف العراقي بالنسبة للآثار القديمة: إنها خزين مدوّن للموروث.

لكـن المورد تمتلك دورًا آخر. إنها الجسـد الموصـل لأطراف التاريخ الثقافي العربي. فهي لا تخص العراق وحده، كما تفعل التراث الشـعبي، وعنايتها بالموروث تشـمل التاريخ واللغة والأدب، وهي عناية لا نهاية لها لأنها تفتح أفقًا واسـعًا أمام تحقيق النصوص، لاسـيما القصيرة منها، والتـي قد لا يجد المحقق مجلة مسـتعدًا للعناية بها، أو دارًا متخصصة لنشرها وتوزيعها.

ولكن دعونا نرى رسـالة المـورد في عددها الأول لنـدرك آفاق هذه الرسالة ومداها وطموحاتها وأهميتها.

كان رئيس تحرير المورد سـنة ١٩٧١، أي سـنة تأسيسها، هو الوزير، الشـاعر شفيق الكمالي، والذي كتب (مع المورد) في تقديم المجلة لنخبة معينة من القراء. وكتابته عبارة عن إيضاح لمعنى العناية بالتراث وتوظيفه ليصبح رافدًا حياتيًا. وهو في ذلك يمثل أيضًا تفضيله الشخصي لمفهوم التراث على أنه امتزاج ووسـطية بين فاعلين. يقول: (في كل عطاء أدبي أو فكري جديد بعد زمني وصدى تاريخي يشير إلى جذور عميقة، ويربط بينه وبين تراثه. وتتحقق هذه العلاقة بين الماضي والحاضر، بين القديم والجديد، سـواء أكان موقـف المحدثين إيجابيًا أو كان موقفهم سـلبيًا، فالإيجاب استمرار، والسـلبية تحدد. والحضور... حضور الأسلاف في كليهما وارد في كليهما، ذائب كذوبان السـكر في قدح من الماء – ص٣/ العـدد الأول). أما اهتمامات المجلـة وموضوعاتها فهي (تعميق العلاقة الجدلية بين التراث والفكر المعاصر)، ولهذا فالوزارة (تعتبر إصدار مجلة غنية تعنى بالمخطوطات والدراسـات القديمة، وتتخصص بها، مساهمة لابـد منها للدفاع عن شـخصية المواطن الحديث وحمايـة أصالته من التبعية والاهتزاز – ص٤).

هذا الموقف الأيديولوجي – إذن – يرى حضور المجلة لابد منه للحيلولة

دون انحرافات محتملة تأتي بها الأفكار والمناقشات في مجلات أخرى، وبضمنها الأقلام. ولهذا يمضي حميد العلوجي، الذي سيكون العلم الرئيسي في إغناء المجلة وتحريكها، في تقديم رأي مكمل يفسر على الأقل هنا التراث على أنه غنى فعلي يستحق أن يوفر (الحماية)، التي نوه بها رئيس التحرير بحماس المبشرين. فيكتب حميد العلوجي عن دور المجلة كأنها سلاح (هذه المجلة... وعتادها). ويصف تركة العرب كما يلي:

(وراء تلك التركة عقلية ثقافية ثاقبة استطاعت أن تتغلغل حتى الأعماق وأن تتشامخ على القمم: عقلية ولدت ما يسمى بالتجربة الشعرية، وكشفت عن طبيعة الواقع الجمالي، وتمادت في التخاشع الصوفي، وعايشت الفن والعلم والأخلاق، وجادلت بالتي هي أحسن، وغنت للإنسان في غده الضاحك، وهذا كله جدير بأن يكون للمورد عتادًا في حياته، التي أرجو ويرجو معي من أدرك ضرورة الارتباط بالتراث أن تكون عريضة مديدة حافلة بما ينفع ويفيد - ص٥).

ولتقديم تصوّر أدق عن المورد، والذي سيسم أغلب أعدادها، دعونا نختر محتويات العددين الأول والثاني من مجلدها الأول، والعددين المماثلين من مجلدها الثاني، لنرى شخصية المجلة: فالمحتويات تحوي بابًا للأبحاث والدراسات، وبابًا للنصوص التراثية، وآخر لفهارس المخطوطات، ثم يأتي باب العرض والنقد والتعريف، والنتاج الجديد.

المحتوى

العددان الأول والثاني ١٩٧١/ المورد

مع المورد... للأستاذ شفيق الكمالي ٣ - ٤

هذه المجلة وعتادها... عبدالحميد العلوجي ٥ - ٦

الأبحاث والدراسات

الكاتب العربي الطوبائي... الدكتور منذر البكر ٩ - ١٢

مقدمة في الشعر الصوفي... طراد الكبيسي ١٣ - ٢٦

الدرهم الحمداني... مهاب درويش البكري ٢٧ - ٤٦

هل يعزف النغم الدفين في كتاب الأغاني.. الدكتور داود سلوم ٤٧ - ٥٠

توثيق نسبة كتاب «فعلت وأفعلت»... خليل إبراهيم العطية ٥١ - ٥٤
المكتبـات العربية العامة والخاصة في العراق.. فؤاد يوسـف قزانجي ٥٥ - ٦٢
النصوص التراثية
كتاب النخل... تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي ٦٥ - ٧٠
شعر العطوي... جمع وتحقيق: محمد جبار المعيبد ٧١ - ٩٦
المهذب فيما وقع في القـرآن من المعرب... تحقيق: عبدالله الجبوري ٩٧ - ١٢٦
نسيم السحر... تحقيق: ابتسام مرهون الصفار ١٢٧ - ١٤٢
رسالة في اللامات... تحقيق: طه محسن ١٤٣ - ١٥٠
فهارس المخطوطات
ذخائر التراث العربي في مكتبة جسـتر بيتي.. إعداد: كوركيس عواد ١٥٣ - ١٧٢
المخطوطـات الأدبية في مكتبة الحرم المكي، إعداد: الدكتور محسـن جمال الدين ١٧٣ - ١٨٠
المسـتدرك على مؤلفات ابن الجوزي... إعداد: محمد بار علوان ١٨١ - ١٩٠
العرض والنقد والتعريف
شعر الأغاني - ١٧... الدكتور علي جواد الطاهر ١٩٣ - ١٩٧
نظرة أخرى على العين... الدكتور مصطفى جواد ١٩٨ - ٢٠٦
مسائل في النحو واللغة... الدكتور رمضان عبدالتواب ٢٠٧ - ٢١٢
أشعار أبي الشيص الخزاعي .. هلال ناجي ٢١٣ - ٢١٨
تاريخ ابن الفرات... بشار عواد معروف ٢١٩ - ٢٣٨
مضمار الحقائق وسر الخلائق... بدري محمد فهد ٢٣٩ - ٢٤٣
روضة القضاة وطريق النجاة... محيي هلال السرحان ٢٤٤ - ٢٥٠
النتاج الجديد
المخطوطـات المطبوعة في سـنة ١٩٧١... إعداد: كوركيس عواد ٢٥٣ - ٢٥٨
وسـتأخذ الأبحـاث والنصوص المحققة مجـالاً أكبر في السـنوات

القادمة مع انتشــــار التعليم الجامعي وكثرة الرســائل الجامعية، وتعاون المجلة مع الدارســين العرب. لكن الذي لا بد من ذكره، أن انفتاح العراق في الســبعينيات والثمانينيات على المثقفين العرب صادف أمرين مهمين آخريــن يخصان تقهقر الوضع الثقافي والسياســي في عدد من البلدان العربيــة ممــا أدى إلى حرص المثقفــين العرب على ضمــان حضورهم الثقافــي في رقعة أخرى، تمثلت بالمجــلات الثقافية التي فتحت آفاقها وصفحاتها لمشاركاتهم.

وينطبق هذا الأمر بشــكل أكيد على الأقــلام والمورد والطليعة الأدبية وآفاق عربية والثقافة الأجنبية.

أما العامل الآخر فيخص سياسة العراق السياسية التي أتاحت مثل هذا الانفتاح الثقافي: فالعراق السبعيني والثمانيني كان يسعى لضمان ساحة عربية واســعة وإيجابية متفاعلة مع تطلعاته لأحكام الثقافة القومية من جانب وتعزيز الصفة الإسلامية الشكلية لهذه التطلعات استعدادًا لحربه مع إيران. وما كان غائبًا عن الثقافة القومية سرعان ما أخذ يظهر بشكل أختام ســريعة متفرقة في الكتابات (التراثية) والدراســات (القرآنية) وغيرهــا كلما جــرى ضرب الجماعات الدينية في الداخل أو اســتخدم ذلك تباعًــا لتحجيم الظواهر الدينية والطقوس الشــعبية وكذلك لهدم الانتمــاءات العاطفيــة الدينية لبعض الأفراد داخــل دفة الحكم تمهيدًا لطرحهم خارج الواجهات الرسمية.

ويتضــح هذا الأمر بجلاء أكبر في إصدارين آخرين، يتفاوت أحدهما كثيرًا مع بقية المجلات، أي إصدار آفاق عربية، والذي سيكون آخر هذه المجلات قراءة وذكرًا في هذا العرض.

فالطليعة الأدبية التي صدرت عام ١٩٧٥ مثلت أيضًا خروجًا من رحم الأقلام، ذلك لأنها تعنى بنتاجات الشــباب أولاً. وكان رؤســاء تحريرها، لاسيما أمجد توفيق، ينتمون إلى شريحة الأدباء الشباب. وعلى الصعيد الحياتــي/ الثقافي كانت الدولة تبذل عناية خاصة بالشــباب. كإصدار نائب رئيس الدولة، ورئيســها بعد حين، كراســين لهــذا الغرض بعنوان (نضمن الشباب لنكسب المســتقبل) وعدا الحقيقة السكانية التي تشير إلى أن الشــباب يشــكلون حينذاك قرابة ٥٥٪ من الفئــة العمرية ١٢ -

٣٠ سنة، وأنهم يمكن أن يكونوا النواة الفعلية لعمل الدولة السياسي الاجتماعي، فإن الشباب يمكن أن يكونوا الخميرة المستقبلية للمجتمع في ظل الحركة الجديدة التي مثلتها اتجاهات ثورة تموز (يوليو) ١٩٦٨.

إنهم يمكن أن ينتفعوا من فرص التعليم والعمل ويستقلوا عن اتجاهات مجتمعاتهم المختلفة ليكون عجينة محتملة. وعلى الرغم من أن السنوات التالية، لاسيما سنوات الحرب، أفصحت عن تقاطعات كثيرة في قطاعات الشباب، إلا أنهم أصبحوا فعلاً مادة الدولة ومجالها الأساس للتأثير والاستخدام وفي مجال الآداب والثقافات تمثل تطلعاتهم وتجريباتهم مخاضًا آخر مختلفًا عما درج عليه الكبار في المجلات التي اتخذت خطًا أكثر استقرارًا واحترافًا وتوافقًا مع ما هو سائد.

وما لا يمكن أن يظهر في الأقلام أو في المورد يمكن أن يجد مجاله في الطليعة الأدبية، وكذلك في سعي محرريها للتعديل والتشذيب والتحرير وملاقاة الكتاب الشباب والتحاور معهم حول قضايا مختلفة تخص الأسلوب والمادة. وظهرت مهارات شابة كثيرة من داخل الطليعة الأدبية، وكان بعضها قد فاز بجوائز عديدة واصبح لامعًا بعد حين، بينما انشق آخرون، كجنان جاسم حلاوي وحيدر الكعبي، وغادروا البلاد ضمانًا لاستقلالية ينشدونها.

والطليعة الأدبية لهذا السبب لسيت محطة اعتيادية بين المجلات العراقية، فقد كانت نافذة شابة متطلعة إلى النتاجات الجديدة التي يكتسبها الشباب.

لكن مجلة آفاق عربية لها شأن مختلف. إنها تمثل أولاً استجابة لرغبة المرحوم شفيق الكمالي الذي رحل عن الوزارة ليحل السيد طارق عزيز بديلاً عنه. ولم يزل السيد أحمد حسن البكر رئيسًا للبلاد حينذاك. وبحكم العلاقة التي تربطهما استجاب الرئيس البكر لهذه الرغبة في أن يقيم مؤسسة مستقلة، بمطابعها وعدتها وموظفيها، لها قانونها الخاص، ويحتفظ رئيس مجلس إدارتها بصلاحيته الخاصة التي لا تربطه بالوزارة. وستستمر هذه الحالة لحين رحيل الرئيس البكر وإعادة ربطها بقانونها بالوزارة ضمن علاقة استمرت غائمة لاعتقاد الوكلاء المتعاقبين أن المؤسسة تشبه المديريات العامة داخل الوزارة. والقانون الذي تشكلت

آفاق عربية بموجبه هو قانون جريدة الثورة كمؤسسة مستقلة، مع بعض التعديلات التي تتوافق مع طموحات السيد شفيق الكمالي، شاعرًا ورسامًا وهاوٍ أيضًا!

وجمع رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير نخبة حسنة من الفنانين كضياء العزاوي والطباعين كهاشم سمرجي، والشعراء كيوسف الصايغ، وآخرين.

وسعت المجلة أن تستجيب لرغبات رئيس التحرير فنًا وشكلاً وتوجهًا أيضًا: فهي مجلة تعنى بالشكل الطباعي، والدراسات، والفنون، وتقيم علاقة باليسار، لكن عمادها الفعلي قومي أولاً. وهويتها التاريخية قومية أيضًا.

وكما أشير من قبل لا يمكن أن يكون توجه شخص ما، أو المجموعة المحيطة به التي شجعت مشروعًا ما وشاركت فيه، ضربًا مستقلاً من التطلعات. فكل رغبة تطمح إلى بلوغ (المجال العام) وتريد لنفسها مثل هذا المجال تنطلق من وعي بحاجة ما. فلم تكن هناك مجلات كثيرة منافسة إلا مجلة واحدة نشيطة وجيدة، هي مجلة المثقف العربي التي كان سكرتيرها (لطيف السعدون) ثم (أرشد توفيق) يحرصان على جعلها مثيلة للكاتب المصرية التي يرأسها أحمد عباس صالح. وأدرك السيد شفيق الكمالي أن هذه المجلة تتقاطع مع مشروعه فألغى امتيازها بصفتها مجلة تصدر عن الوزارة. ومجرد الوعي بهذا التقاطع يعني أن آفاق عربية لم تكن مجرد رغبة شخصية طارئة. إنها رغبة تمثل استجابة لظرف راهن، واحتوت داخلها فئات اليسار والبعث والقوميين العرب وبعض الأسماء التقليدية أيضًا. واعتمدت لوحات الفنانين العراقيين أيضًا، وجعلت حضورهم فيها شرطًا من شروط هويتها، لكنها سرعان ما اصطدمت بمشروع آخر خرج من رحم دائرة المخابرات، هو مشروع مجلة كانت فنون عربية تريد أن تكون بديلاً عصريًا لمجلة حوار البيروتية التي اتهم رئيس تحريرها توفيق صايغ بالعمالة للمخابرات الأمريكية. وليس غريبًا أن تستعين فنون عربية بطاقات خمسينية معروفة وكفاءات نادرة كجبرا إبراهيم جبرا وبلند الحيدري وعشرات الأسماء الفنية والأدبية والمعمارية التي تمتلك رهافة ما وذوقًا رفيعًا. إنها تسعى لتكون محطتها

لبلوغ الثقافة الأرستقراطية واختراقها. لا سيما وسطها اللندني، وهو أمر لم يكن واضحًا ضرورة في أذهان العاملين. وإذا كان كذلك فإنهم ليسوا بصدد مناقشته أو الاختلاف معه، وليس غريبًا أن ينشأ التصادم بين المرحوم شفيق الكمالي وبرزان التكريتي حول هذه المنافسة وعشرات غيرها. لقد أخذت فنون عربية من حصة آفاق عربية، بين الفنانين والمؤرخين والأدباء.

لكن آفاق عربية تأخذ منذ ١٩٨٣ استقطاب جماعات أخرى لم تكن خلال العقود الثلاثة المنصرمة شريكة في الحياة العامة: ومن هذه الجماعات ثوار ١٤ تموز ١٩٥٨، وواجهات الأحزاب في العهد الملكي. وكما استقطبت أسماء عربية كثيرة، ووظفت أرباحها منذ ١٩٨٣ لاستضافة الأدباء العرب ونشر نتاجاتهم ودعم ندواتهم. ولكن أرباحها الطباعية دفعت الوزارة إلى توريطها بإصدار بقية المجلات عن موازنتها الخاصة، وهو أمر مربك لمشروعها وكذلك لخطتها الأساس لتركيز اهتماماتها الثقافية والتاريخية والمعرفية.

ومهما يكن، فإن المجلات العراقية مثلت واجهة عربية نشيطة، لاسيما في فترة تعرضت فيها مناطق الإصدار الثقافي إلى شلل نسبي في مصر ولبنان، وكان حضور المجلات وكثرة استقطابها الثقافي رافدًا مهمًا، ليس للوعي الثقافي العراقية والعربي فحسب ، ولكن أيضًا للتطلعات المختلفة داخل الفئات العراقية المنظمة كالقوات المسلحة التي احتوت عددًا كبيرًا من الخريجين الذين خضعوا للخدمة الإلزامية.

وعلى الرغم من أن الحصة (الأيديولوجية) المتفقة مع الشروط الرسمية تأخذ حيزًا في بعض الأحيان لضرورات مختلفة لا تمثل سياسة الإصدار ضرورة إلا أن ميل المجلات إلى شراكة فكرية وتعبيرية واسعة جعلتها واجهة معرفية ليست اعتيادية. وهي بالإضافة إلى الكتب والمؤتمرات والندوات تمثل النشاط الثقافي لا للدولة الوطنية فحسب ولكن للمثقفين أيضًا الذين يسعون إلى تقديم ما هو جديد أو تحريضي أيضًا تحت شتى العروض والدعاوى. ولهذا ظهرت مجموعة من السمات الكتابية المتكررة في المجلات العراقية، يمكن إجمالها كما يلي.

١ - استخدام المداخل وعبارات الاستهلال كتبرير لما هو تحريضي

أو انتقـــادي ضمنًا كما هو حـــال ندوات ١٤ تموز في آفاق عربية (١٩٨٣ - ١٩٨٥)، أو الملفات الخاصة في مجلة الأقلام عام ١٩٨٩ - ١٩٩٠.

٢ - الإكثار من الترجمة والعروض الفلســفية التي تتيح منفذًا أوســع للثقافة خارج الحدود التي يرســمها بعض الدعــاة حبًا بمضايقة بعض المشــرفين على المجلات أو الواجهات الثقافية. وتتعزز هذه المناقشــات كالتي حفلت بها آفاق عربية عن ميشيل فوكو ودريدا مثلاً بما تتخصص به مجلة الثقافة الأجنبية (١٩٨٠) التي تركزت عنايتها على الترجمة.

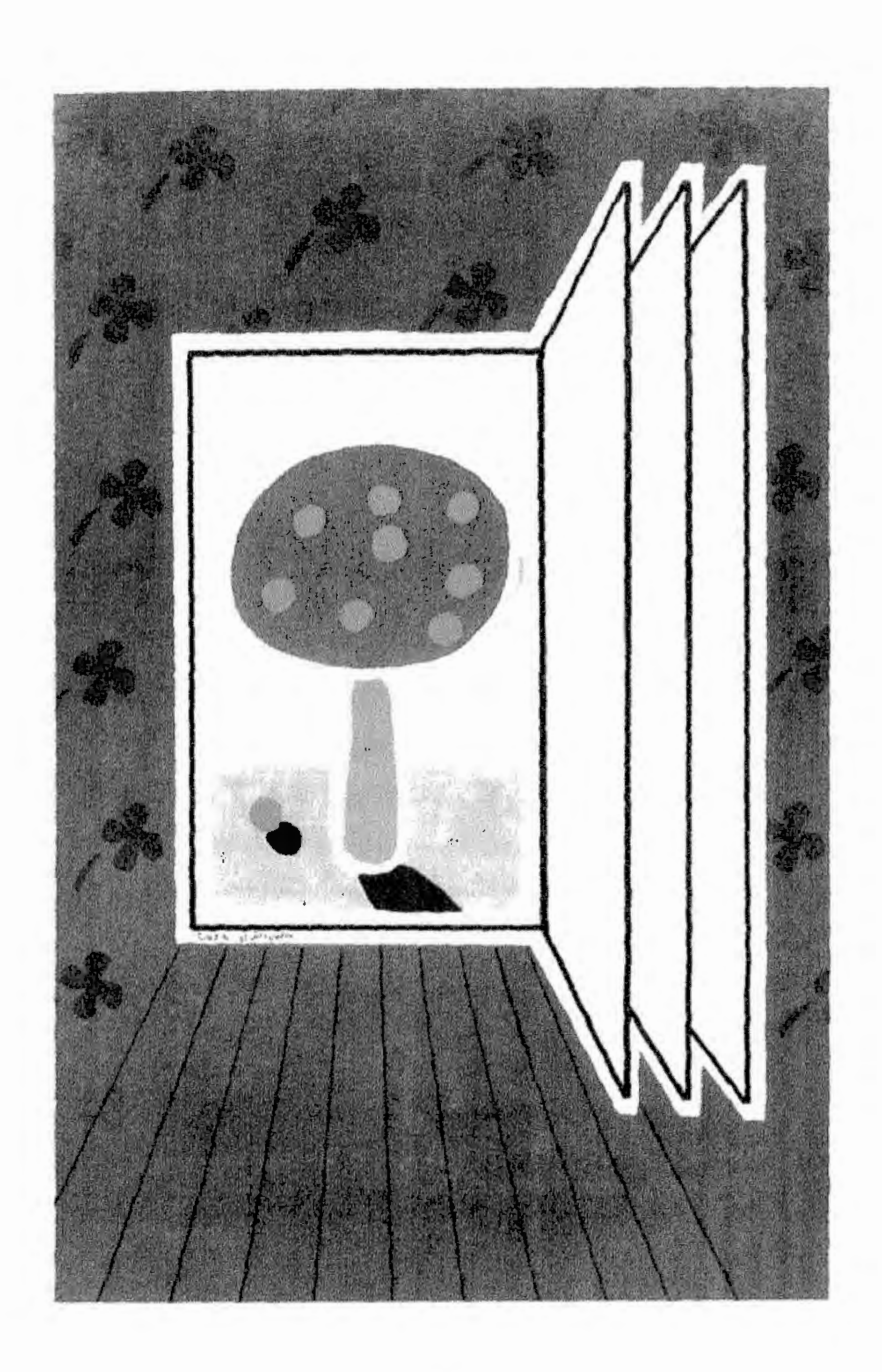
٣ - التوسع في نشر الكتب المحققة، لاسيما تلك التي تنتج أفقًا تراثيًا أوسع، كما فعلت المورد طيلة الثمانينيات.

٤ - تأكيــد دور الثقافــة الخمســينية مجددًا لما فيها مــن قدرة فنية وانتقادية عالية.

٥ - دعم أدباء القصة القصيرة الذين اختطوا جادة فريدة على أصعدة الكتابة الفنية والاختراقية لمتاريس البلاغة الإعلامية.

٦ - الإكثــار من الندوات لضمان تعددية صوتية تتيح الاجتهاد وتبادل الرأي واختراق واجهة الصوت العليم الواحد.

وبمقدور المرء أن يمضي في ذكر مواصفات أخرى تفصيلية، ولكن لكل مقام شأنه من مقال.



المحور الثاني

المجلات الثقافية النوعية

- د. قاسم عبده قاسم
- أشرف ابو اليزيد
- خالد عزب

المجلات التاريخية في الوطن العربي

د. قاسم عبده قاسم *

هل أسهمت «المجلات التاريخية» في إثارة الوعي وشاركت في تحريك الساحة الفكرية التي عانت الركود زمنًا طويلاً في العالم العربي؟

هذا السؤال أول ما يطرأ على الذهن عندما يرد الحديث عن المجلات التاريخية في العالم العربي. ويستدعي هذا السؤال، بالضرورة، أسئلة أخرى جوهرية عن مدى ما حققته هذه المجلات والدوريات المتخصصة في الدراسات التاريخية في مجال تقدم هذه الدراسات على المستوى الأكاديمي، ومدى ما قدمته للباحثين والمؤرخين من خدمات لتطوير مجال دراستهم. المهم أن نشير هنا إلى عدة حقائق أساسية تتعلق بهذه المجلات: أولها أن «عمر» هذه «المجلات التاريخية» في الحياة الفكرية والثقافية العربية عمومًا قصير بالقياس إلى «السوابق» و«النماذج» الأوربية التي حاولت هذه المجلات تقليدها، وثانيتها: أن التوزيع المحدود جدًا لهذه المجلات

* أكاديمي من مصر

والدوريات كان مقصورًا، في أحسن الأحوال، على الدوائر العلمية والأكاديمية في مجال البحث التاريخي، وثالثة هذه الحقائق، أن هذه المجلات والدوريات - حتى بعد تكاثرها - ظلت رهينة المحبين: ضعف الإمكانات المادية وضآلة عدد الجمهور الذي يطلبها.

وإذا كان من المتفق عليه بصفة عامة أن مهمة المؤرخ أن يحاول العثور على إجابة السؤال الذي يبدأ بالكلمة السحرية «لماذا؟» فإن محاولة تطبيق هذه الفكرة أيضًا تستوجب النظر إلى المجلات والدوريات ذاتها في الوطن العربي من ناحية، ومدى وعي الناس بحقائق تاريخهم - في خطوطها العريضة على الأقل - من ناحية أخرى. بيد أن الإجابة على السؤال المطروح، والأسئلة التي تولدت عنه، تستحق منا أن نلقي نظرة على المسرح الذي ولدت فيه أولى «المجلات التاريخية» في العالم العربي، والتي باتت «السابقة»، و«النموذج» الذي قلدته المجلات التاريخية الأخرى التي ظهرت وكأنها من أفراخ المجلة الأم، مع استثناءات قليلة هنا وهناك.

كان ذلك المسرح الذي وُلدت عليه فكرة «المجلة التاريخية المصرية»، وتجسدت على خشبته واقعًا حيًا ملموسًا، يتسم بالإثارة والصخب من حيث الأحداث التي تجري ومن حيث الإطار العام أو المشهد العام الذي جرت فيه هذه الأحداث على السواء. وكان ذلك كله من نتائج الظروف التاريخية الموضوعية التي جرت على العالم العربي طوال القرن التاسع عشر وفي بدايات القرن العشرين. إذ كانت حركة الاستعمار الأوربي قد أحكمت قبضتها على سائر مناطق العالم العربي وأقاليمه إبان ذلك القرن. واقتسمت عدة دول استعمارية أوربية كعكة العالم العربي فيما بينها، وأعادت تقسيمها وتوزيعها فيما بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

لقد كان الاحتلال واقعًا جديدًا غريبًا ومثيرًا بالنسبة لأبناء الوطن العربي، وكان الأمر بالنسبة لهم يختلف بشكل جذري عن الواقع الذي ألفوه في ظل الحكم العثماني منذ القرن السادس عشر. إذ إن قوى الاحتلال الأوربي كانت «العدو» التاريخي الذي عرفه التراث التاريخي العربي متراجعًا ومهزومًا إبان حركة الفتوح

الإسلامية، وفي غمار أحداث الحروب الصليبية، وكان انتصاره في الأندلس قريب العهد، وفي مناطق نائية. ومن ناحية أخرى، كان ذلك الاحتلال الأوربي حدثًا غير مسبوق بالنسبة لأبناء المنطقة العربية، ومنذ بداياته الأولى في القرن التاسع عشر حرّك المياه الراكدة في بحيرة الثقافة العربية. وقد تمثل صدى هذا في شتى صنوف الاستجابات الثقافية والفكرية. ولم يكن التاريخ استثناء من ذلك الحال، بل ربما كانت الكتابات التاريخية هي الأبرز من بين هذه الاستجابات بسبب طبيعة التاريخ ذاته، وعلاقة الإنسان بالتاريخ.

فالتاريخ ممارسة ثقافية مفتوحة أمام الجميع. ودراسته لا تحتاج إلى تدريب خاص أو تمرينات معقدة، وإنما تحتاج إلى مهارات بسيطة يمكن لأي إنسان اكتسابها بقليل من الجهد الذاتي، ودون مساعدة خارجية متخصصة (ويبقى أن ما يميز مؤرخًا عن آخر هو الموهبة والقدرة على تلمس الحقائق من بين المصادر».

ولعل هذا كان السبب في أن الكتابات التاريخية التي ظهرت آنذاك كانت كلها مكتوبة بأقلام مفكرين لم يتخصصوا - بشكل أو بآخر - في الدراسات التاريخية.

وهكذا، كانت أحداث الاحتلال في كل بلد من البلاد العربية، وما أدت إليه من نتائج والمقاومة التي كانت ردود أفعال لممارسات الاحتلال، وللاحتلال ذاته، والأفراد العاديون والقادة والزعماء الذين انخرطوا في أعمال المقاومة، والإدارة الاستعمارية، وما جرى في شتى مجالات الحياة من جراء وجود الاحتلال الأوربي، وما إلى ذلك - كلها فتحت مجالات جديدة للكتابة التاريخية العربية، وأفرزت موضوعات جديدة لم يعرفها تراث التدوين التاريخي في العالم العربي من قبل. بيد أن أهم ما حدث في هذا المجال تمثل في «الدهشة»، و«الصدمة» التي عبّرت عنها كتابات عبدالرحمن الجبرتي عن الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، وعلى الرغم من المبالغات المتكررة عن تأثير الحملة الفرنسية على الجانب الفكري والثقافي في مصر، فإن استمرار الهجوم

الاستعماري النشط، ثم نجاح الاحتلال منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشـــر في المغرب العربي (فرنســـا)، ثم ما حدث في بلدان المشرق العربي (إنجلترا وفرنسا وإيطاليا)، كان هو الذي ترك الأثر الثقافي الخطير في العالم العربي ضمن التأثيرات الأخرى.

من جهة أخرى، كان النشـــاط الصهيوني المحموم في فلســطين منذ بدايات القرن التاسع عشــر على الأقل، وثورات الفلسطينيين المتكررة، وممارسات ســلطات الانتداب البريطاني لصالح المشروع الصهيوني، طوال الفترة السابقة على «النكبة الكبرى» وإعلان قيام دولة إســرائيل علـــى الأرض العربية في فلســطين - كل هذا كان من عوامـــل حفز البحث التاريخي ضمن الحركة الفكرية والثقافية العامة التي هبّت رياحها على كل مناطق العالم العربي.

باختصار، كانت الظــروف التاريخية الموضوعية التي تعرض لها العالم العربي منذ القرن التاسع عشر وراء الحركة الفكرية والثقافية التي أفرزت في نهاية الأمر - ضمن إفرازات أخرى كثيرة على عدة جوانب - الدراســـة التاريخية الأكاديمية التي اســتوجبت بدورها ظهور المجلات التاريخية في معظم مناطق العالم العربي. فقد كانت الدولة العثمانية «الرجل المريض» في العيون الأوربية الاســتعمارية النهمة، ولم تنتظر القوى الأوربية وفاة المريض لاقتســـام تركته، بل استولت على أملاكه قبل الوفاة بزمن طويل. ومن هنا جاءت «صدمة الاحتلال» موازية لصدمة أخرى على المســتوى الثقافي تعرض لها العرب الذين تم احتلال بلادهم في مشــرق العالم العربي ومغربه. وقد تمثلت أهم نتائج هذه الصدمة الثقافية والفكرية بشكل إيجابي عندما انتبه العرب إلى أن هزيمتهم العســكرية والسياســية كانت نتيجة للفارق الحضاري الذي يفصل بينهم وبين الدول الاستعمارية الأوربية التي احتلت بلادهم.

كما أدركوا أن العالم الذي ألفوه وعاشـــوا في رحابه تحت الحكم العثماني قد ولّى زمانه إلى غير رجعة، وأن الأوربيين ســبقوهم في مضمار الحضارة والتقدم بفارق كبير.

كان طبيعيًـــا أن يحاول أبناء النخب العربية في المشــرق والمغرب

سدّ الفجوة الحضارية بينهم وبين الغرب الأوربي، مستفيدين من تجارب مهمة في هذا السبيل جرت في مصر والشام في عصر محمد علي باشا، ثم محاولات حفيده الخديو إسماعيل، والمحاولات الأخرى الموازية التي جرت في تونس أو سورية ولبنان أو العراق... أو غيرهما. ولأن أبناء النخب العربية أدركوا أن موازين القوة العسكرية، والتوازنات السياسية، والقدرة الاقتصادية، لم تكن في مصلحتهم (على الرغم من أن ذلك لم يمنع حركات الكفاح المسلح، ومحاولات تنمية القدرات الاقتصادية، ومناورات الحركة السياسية) فإن فريقًا منهم اختار النضال في مجال الفكر والثقافة والعلم. وعلى الرغم من أن النضال السياسي والكفاح العسكري كان الأعلى صوتًا، فإن نضال أبناء النخب العربية في مجال الفكر والثقافة والعلم كان أبقى أثرًا من ناحية، كما كان دعمًا وسندًا للكفاح المسلح والنضال السياسي من ناحية ثانية، فضلاً عن أن نتائجه ظلت قائمة على الأرض العربية حتى بعد رحيل الاستعمار من ناحية ثالثة.

لقد كان النضال الثقافي والفكري والعلمي من جانب أبناء النخب العربية في جوهره بحثًا عن الخلاص، وسعيًا وراء الحل لأزمة التخلف العربي. ولكن اللافت للنظر أن هذا البحث وهذا السعي وراء الخلاص من السيطرة الأوربية كان في رحاب الفكر والثقافة الأوربية ذاتها. لقد كان بحث «المغلوب» عن حل أزمته عند «الغالب». فالمغلوب دائمًا مولع بتقليد الغالب، وهذه سنة تاريخية راسخة وحقيقية أيضًا. وكان طبيعيًا أن يحاول الباحثون عن الحل لأزمتهم أن يجدوا هذا «الحل» لدى أوربا. ومن هنا ذهبت البعثات، والأفراد، وأقيمت المؤسسات العلمية والثقافية - بل والسياسية - على غرار مثيلاتها في أوربا. فقد كانت المجلات والصحف، والمسارح ودور السينما، والندوات والمؤتمرات والاجتماعات، والجمعيات العلمية بشتى أنواعها، والجامعات - كلها تقليدًا محمودًا لنماذج أوربية. وتشهد مذكرات الرواد من المفكرين والباحثين والأدباء والفنانين العرب، ويومياتهم، عن الرحلة إلى أوربا بهذا القدر

الكبير من الافتتان بالحضارة الأوربية، وتجليات الحياة الفكرية والثقافية هناك، ومدى الولع بتقليدها باعتبارها طريقًا للخلاص. كانت هناك - بطبيعة الحال - مظاهر سلبية عديدة لتقليد أوربا، ولاسيما في مجال السلوك الاجتماعي لأبناء الشرائح العليا في المجتمعات العربية، ولكن هذا ليس مجال اهتمامنا في هذه الورقة على أي حال.

كان أهم هذه التجليات الفكرية والعلمية والثقافية لنضال الشعوب العربية، إنشاء الجامعة المصرية في العقد الأول من القرن العشرين. وفي ظني أنه كان أهم حدث في التاريخ الفكري والثقافي في العالم العربي في العصر الحديث (لأن الجامعة المصرية كانت بؤرة التفاعل الثقافي العربي، كما تربت فيها أجيال من المفكرين العرب، فضلاً عن أنها صارت نموذجًا أنشئت على مثاله الجامعات العربية الأولى في بغداد ودمشق وغيرها، كما أنها خرجت أجيالاً من الأساتذة والمفكرين الذين ساعدوا على إنشاء جامعات كثيرة بعد ذلك في مصر وغيرها من البلاد العربية) لقد تأسست الجامعة المصرية، بمبادرة أهلية وباعتبارها أداة نضال ضد الاستعمار البريطاني في مصر سنة ١٩٠٨م، ثم تحوّلت إلى جامعة حكومية سنة ١٩٢٥م، ويهمنا هنا أن نركز على مدى تأثير الجامعة على الدراسات التاريخية بصفة خاصة، مع اعترافنا بأهمية ما قدمته في المجالات الأخرى بطبيعة الحال.

كانت كلية الآداب في الجامعة المصرية، ثم جامعة فؤاد الأول، من أولى الكليات التي قامت الجامعة عليها، ومنذ بداية هذه الكلية حظيت الدراسات التاريخية فيها بحظ وافر، فقد كان قسم التاريخ واحدًا من الأقسام الخمسة التي ضمتها الكلية عند نشأتها. فقد ضمت كلية الآداب خمسة أقسام: التاريخ، واللغة العربية، واللغات الشرقية، واللغات الأوربية والفلسفة.

ويهمنا في هذا المجال أن نشير إلى أن الدراسة التاريخية الأكاديمية، بمعناها الحديث قد نشأت للمرة الأولى في العالم العربي، بقسم التاريخ بالجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول ثم

جامعة القاهرة)، وهو ما جعل الدراسات التاريخية تتعطف منعطفًا جديدًا في القرن العشـــرين. بيد أن أهم نتائج هذا التحول الجديد في اتجاه الدراســات التاريخية، فــي رأيي، تمثلت في ظهور المؤرخ المحتــرف (أي الــذي يتخذ من البحث التاريخــي وتدريس التاريخ مهمة يكرّس حياته لها، ويكســب عيشه منها)، وعلى الرغم من أن هــذا لم يمنع ظهور مؤرخين موهوبين ممن لم يتخذوا التاريخ مهنة لهم، فإن ظهور «المؤرخ المحتــرف» للمرة الأولى في الحياة الفكرية العربية أدى إلى نتائج غاية في الأهمية. فقد بدأ يظهر بين صفوف المؤرخين المحترفين شعور بالذات جعلهم يتطلعون إلى تأكيد هويتهم من خلال الجمعيات التاريخية، والمجلات التي تحمل ثمار عملهم في مجال تخصصهم، رغبة منهم في التمايز عن زملائهم المتخصصين في فروع المعرفة الأخرى.

وربما يكون من المهم أن نشــير هنا إلى أن ظهور المؤرخ المحترف فــي الفضاء الفكري العربــي لا يعني بالضــرورة أن المؤرخين من خــارج الأكاديمية كانوا من الهواة حســبما ظن البعض. فالمؤرخ هو المؤرخ بغض النظر عن مهنته، وقدراته العلمية ومواهبه هي المعيار الوحيد لتميزه عن غيره.

مــن ناحية أخــرى، كانت إســهامات المؤرخين العــرب، من غير المحترفين (بالمعنى الذي أشــرنا إليه في الســطور الســابقة) في النصف الأول من القرن العشــرين، والمصريون منهم بوجه خاص، قــد حملت بصمــة المؤثرات الأوربيــة في الفكــر التاريخي. ولكن كتابات أولئك المؤرخين لم تخضــع تمامًا لهذه المؤثرات لأن أنفاس التــراث العربي في مجال الكتابة التاريخية كانت مازالت تتردد في ثنايــا كتابات أولئك المؤرخين، الذين كانوا بمنزلة الجســر الواصل بين أصحاب الكتب والمؤلفات التاريخية في القرن التاســع عشــر، من أمثال عبدالرحمن الجبرتي، وعلي مبارك، ورفاعة الطهطاوي، وفيليب جلاد، ويعقوب آرتين، وســليم نقاش (في لبنان)، وميخائيل شاروبيم، ونقولا الترك.. وغيره من ناحية، والمؤرخين الذين تتلمذوا على أيدي الأوربيين من ناحية أخرى.

وربما يكون مفيدًا في هذا السياق أن نشير إلى أن بداية الدراسة الأكاديمية للتاريخ في العالم العربي كانت موصومة في بعض الفترات بتبعية هذه الدراسة لفكرة التاريخ الأوربي، وتقسيم الزمن التاريخي حسب الرؤية الأوربية. فقد ظل قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) تحت رئاسة الأساتذة الأجانب، وتوجيههم، حتى سنة ١٩٣٦م، وإن ظلت بصمتهم باقية حتى الآن في تقسيم العصور التاريخية، وتنظيم مناهج الدراسة. وما نتج عن هذا، بطبيعة الحال، من مشكلات مازالت الدراسات التاريخية تعاني منها في شتى أنحاء العالم العربي.

ومن ثم جاءت الدراسة التاريخية في مصر، وفي العالم العربي عمومًا، وكأنها فرخ من أفراخ الدراسات التاريخية الأوربية. وبغض النظر عن النتائج والآثار السلبية العديد لهذه الحقيقة «التاريخية»، فإن تأثير الأساتذة الأجانب كانت له جوانبه الإيجابية أيضًا.

فقد ظهرت في الأجيال التالية محاولات جادة لتعريب «التاريخ»: أي محاولة «قراءة» التاريخ من وجهة نظر عربية ومصرية أسهم فيها المؤرخون المحترفون وغير المحترفين معًا. وظهر عدد من المؤرخين الذين كان طموحهم يدفعهم إلى محاولة بناء «مدرسة تاريخية» عربية يكون قوامها ذلك العدد المتزايد من المؤرخين العرب «المحترفين» الذين تخرجوا من أقسام التاريخ في الجامعة العربية المتزايدة في كل قطر من أقطار العالم العربي إلى جانب نفر من المؤرخين الذين كانت كتاباتهم تجديدًا مثيرًا ومفيدًا أفادت منه الدوائر الأكاديمية في مجال الدراسة التاريخية كثيرًا. وحاول الكثير من المؤرخين العرب تصحيح الأخطاء والخطايا الناجمة عن اتباع خطى المؤرخين الأوربيين، والأخذ بمفاهيمهم، وعدم فهم انحيازاتهم التاريخية.

كان إنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (الجمعية التاريخية الملكية) في النصف الأول من القرن العشرين بالقاهرة أولى الخطوات الجادة والناجحة في هذا السبيل. وقد كان الفضل في إنشاء هذه الجمعية راجعًا إلى عدد من رواد الدراسات التاريخية

المصريين ولقوا مساندة مهمة من أبناء النخبة المصرية ولاسيما من أبناء الأسرة الملكية الحاكمة آنذاك. وكانت أهم أهداف هذه الجمعية ترقية البحث التاريخي، والعمل على تطور الدراسات التاريخية في العالـم العربي. ومن الطبيعي أن تضم هذه الجمعية في عضويتها، على مدى أجيال متعاقبة، عددًا كبيرًا من المؤرخين العرب، والمهتمين بالدراسات التاريخية العربية. ومن ناحية أخرى، أصدرت الجمعية المصرية «المجلة التاريخية المصرية» لتكون أول مجلة مصرية عربية تحتضـن جهود المؤرخـين العرب في تطوير البحـث التاريخي في العالم العربي من ناحية، ونشـر ثمار الدراسة الأكاديمية من ناحية ثانيـة، وإثارة وعي النخبة بتاريخها من ناحية ثالثة. وقد لعبت هذه المجلة دورًا مهمًا في ميدان الدراسـة التاريخية وفتحت صفحاتها للدراسـات الجديدة في فروع الدراسـات التاريخية الجديدة التي ارتادها المؤرخون والباحثون العرب.

ويكشـف أي جهد إحصائي في فهارس الأعداد التي صدرت من «المجلـة التاريخية المصرية» عن أن كتّابها من الباحثين العرب، على مرّ الأجيال، قد طرقوا أبواب البحث في التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الاقتصادي، والتاريخ العسكري، وتاريخ الفن، والتاريـخ الفكري.. وهلم جرا. بل إن صفحات المجلة اسـتضافت البحـوث التي تتنـاول الآثار على اعتبار أن مجـال التاريخ ومجال الآثار مرتبطان ارتباطًا عضويًـا. وبالإضافة إلى هذا التنوع المثير فـي الموضوعات التي ضمتها صفحات المجلـة المصرية التاريخية، فإنها كانت تقيم في كل سـنة حلقة نقاشية حول أحد الموضوعات المهمة ويتم نشرها في كتاب مستقل، ومن أهم ما أصدرته «الجمعية التاريخية المصرية» في هذا الصدد تلك المجموعات من الدراسات عن المؤرخين العرب عن الكتابة التاريخية العربية بشـكل عام: فقد صدرت مجلدات مهمة عن ابن عبدالحكم، والمقريزي، وابن إياس.. وغيرهم. كما أن الدراسات التي تتناول مناطق التداخل بين التاريخ وغيره من فروع المعرفة، مثل الاجتماع، والسياسة والاقتصاد والفن والآثار وغيرها، لقيت المزيد مـن اهتمام المجلة التاريخية المصرية

بحيث ضمت أعدادها على مر السنين بحوثًا ودراسات كثيرة في هذه الميادين. بل إنها ضمت دراسات عن العلاقة بين الشعر والتاريخ، والأدب والتاريخ بشكل عام بدأت تظهر على استحياء في هذه المجلة العريقة.

ولأن «المجلة التاريخية المصرية»، تحمل جزءًا مهمًا من «تاريخ» الدراسة التاريخية في مصر، وفي العالم العربي بشكل عام، فإنها عكست التطورات الفكرية التي جرت على الساحة المصرية والعربية في النصف الثاني من القرن العشرين. إذ كان من الطبيعي بعد ثورة ١٩٥٢، وتصاعد المد القومي العربي من ناحية، وبروز الاهتمام بالشعب وطبقاته الفقيرة بشكل خاص من ناحية أخرى، أن يتجه البحث التاريخي بعيدًا عن المدرسة الليبرالية القديمة التي كانت تمجد الفرد الحاكم، وتأخذ بنظرية البطل في التاريخ. وبدأ جيل المؤرخين الذي برز في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين يبحث في أحوال العمال والفلاحين، وبدأت دراسات التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي لأبناء هذه الطبقات تنتشر على صفحات المجلة. ومن ناحية أخرى، أدى تصاعد المد القومي العربي إلى إعادة النظر في الكثير من المسلمات التي كانت سائدة بشأن التاريخ العربي القديم، والحضارة العربية الإسلامية، والحروب الصليبية... وما إلى ذلك. كما تنوعت الدراسات التاريخية من حيث الكيف تنوعًا كبيرًا، واقتحمت مناطق عديدة لم تكن مطروقة من قبل. فقد ظهرت فروع الدراسات التاريخية واضحة جلية على صفحاتها وانعكس دورها الإيجابي على التنوع المذهب في موضوعات الدراسات التاريخية التي تناولتها رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات المصرية والعربية.

وقد شهدت فترة السبعينيات من القرن العشرين تغيرات هائلة في البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في العالم العربي على اتساعه، إذ إن تلك الفترة التي بدأت بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م شهدت تحولات أيديولوجية عميقة، وظهور قوى سياسية واقتصادية منافسة للقوى السياسية القديمة في المنطقة العربية،

إلى جانب الانتعاش الاقتصادي الذي شهدته سنوات النصف الثاني من السبعينيات وما تلاها في جميع أنحاء العالم العربي، ومنطقة الخليج العربي على وجه الخصوص، وما أدت إليه من مشروعات تنموية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. وكان إنشاء الجامعات العربية بكثرة من أهم تجليات تلك التغيرات التي شهدتها المنطقة العربية منذ السبعينيات. وكانت النتيجة الحتمية لهذه الطفرة في أعداد الجامعات العربية، التي كانت حتى ذلك الحين محدودة العدد، ومقصورة على بعض البلاد العربية دون البعض الآخر، أن زادت أعداد مجال الطلاب في مرحلة ما قبل التخرج، وأعداد طلاب الدراسات العليا على السواء. ولم يكن مجال الدراسات التاريخية استثناء من ذلك بطبيعة الحال. ففي مصر، مثلاً، لم يعد الأمر مقصورًا على جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية، وإنما انضمت إليها جامعة الأزهر بفروعها العديدة - بعد تطويرها في ستينيات القرن العشرين - بالإضافة إلى الجامعات العديدة، التي تم إنشاؤها في العديد من المحافظات المصرية طوال الربع الأخير من القرن العشرين.

وعلى مستوى العالم العربي، شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن زيادة كبيرة في عدد الجامعات العربية في العراق، وسورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن بالمشرق العربي، وجامعات المغرب وتونس والجزائر وليبيا في المغرب العربي، فضلاً عن جامعات السودان واليمن. أما منطقة الخليج العربي، التي كانت جامعة الكويت من أوليات جامعاتها الكبيرة والمتقدمة، فقد شهدت توسعًا هائلاً في إنشاء الجامعات بالسعودية، وسلطنة عمان، ودولة الإمارات، والبحرين، وقطر.

ولم تكن هذه الزيادة في أعداد الجامعات العربية مجرد زيادة كمية فحسب، بل أفرزت النتائج الكيفية الحتمية عندما بدأ خريجوها يدخلون الفضاء الفكري والثقافي والعلمي العربي، فاعلين ومتفاعلين في شتى نواحي الممارسات الفكرية والثقافية. وكان الباحثون في التخصصات التاريخية المختلفة من أبناء هذه

الجامعات هم الذين دفعوا بعربية الدراسات التاريخية العربية قدمًا في بلادهم. ومع تزايد عدد المؤرخين ودارسي التاريخ في هذا البلد أو ذاك من البلاد العربية تصاعد شعورهم بأهمية الدراسة، التي كرّسوا حياتهم لها، كما تصاعد شعورهم بالحاجة إلى رابطة ما تجمعهم في نوع من الوحدة العلمية أو الأكاديمية. ومن هنا ظهرت «الجمعيات التاريخية». وأخذت تصدر «مجلة» أو «حوليات» خاصة بها تتضمن بعض الدراسات التاريخية، ولكن هذا لم يكن كافيًا في نظر المؤرخين العرب في كل بلدٍ عربي (تجدر الإشارة هنا إلى أن جامعة الكويت كانت الأوفر حظًا في إصدار عدد من الإصدارات، التي حملت صفحاتها الدراسات والبحوث، التي أسهم فيها الباحثون العرب من كل مكان، ومنهم المؤرخون بطبيعة الحال).

فمن اليمن إلى دمشق، ومن الخليج إلى المغرب، كانت هناك إصدارات بعضها تم تخصيصه للدراسات التاريخية الخالصة، على حين كانت بعض الإصدارات تضم كل الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

وهنا، يجدر بنا الوقوف قليلاً أمام تجربة المغرب العربي، ومنطقة الخليج العربي، باعتبارهما نموذجين دالين في موضوع المجلات التاريخية في العالم العربي.

فمن المغرب بدأت في أوائل سبعينيات القرن العشرين عملية تعريب كلية الآداب في الرباط. وكانت تلك الفترة مناسبة تمامًا لكتابة تاريخ المغرب بحيث بدأت آثار الميراث الاستعماري تزول (بعد أن ظلت البلاد تحت الاحتلال، أو الحماية. الفرنسية والإسبانية من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٥٦م حسبما يقول نيقولا ميشيل، الباحث بالمعهد الفرنسي للآثار الرقية بالقاهرة «نشأة المدرسة التاريخية المغربية». ١٩٩٥م. ص٤٧ وما بعدها). ولكن المغرب استطاع بفضل عدد من أبنائه الذين درسوا في فرنسا وضع أسس المدرسة التاريخية المغربية. بيد أن الثمانينيات من القرن العشرين، هي التي شهدت الازدهار الحقيقي في أحوال الجامعات. وانتشار كليات الآداب، وصار لكل كلية آداب وعلوم إنسانية مجلة خاصة بها، وقد

يضم كل عدد من هذه المجلات مقالاً أو مقالين في التاريخ.

بيد أن ما يلفت النظر حقًا، أن المجلة التاريخية المغربية حتى منتصف العقد الأخير من القرن العشرين، كانت تحمل اسمًا غير عربي Hesperis-Tamuda، وأكثر مقالاتها مكتوبة باللغات الأجنبية، وعلى الرغم من حداثة المدرسة التاريخية المغربية، فإن «المجلة» التي تحمل صوتها لا تخاطب العالم العربي، ولا تتواصل معه (بشكل ملموس حتى الآن على الأقل)، وهي في هذا الصدد تختلف عن تونس والجزائر. فالأولى قطعت شوطًا كبيرًا في تعريب مدرستها التاريخية من ناحية. كما أن الجهود الباهرة للدكتور عبدالجليل التميمي في تونس، جعلتها تتفرد باثنتين من المجلات التاريخية المتخصصة في العالم العربي: إحداهما عن الدراسات العثمانية، والأخرى عن الدراسات الموريسكية.

والمثال الثاني من منطقة الخليج العربي. فعلى الرغم من الإصدارات الكثيرة، التي تصدرها كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية بالجامعات الخليجية. فإن المؤرخين والأثريين من أبناء هذه المنطقة، نجحوا في تكوين جمعية علمية تضمهم هي «جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية». وقد نجحوا أيضًا في إصدار مجلة تحمل اسم «مجلة التاريخ للتاريخ والآثار». وقد صدر منها عددان حتى الآن بتمويل ذاتي تقريبًا. وعلى الرغم من أن الوقت لايزال مبكرًا للحكم على مدى فعالية هذه المجلة، فإنها يمكن أن تكون صوتًا حقيقيًا للبحث والدراسات التاريخية في هذه المنطقة من العالم العربي.

ولست أظن أن هذين المثالين على جناحي العالم العربي يجسدان حقيقة ما يجري في القلب، حيث المجلات التاريخية العربية العريقة، ولكني لا أشك في أنهما علامتان على بداية يمكن أن تكون لها تداعياتها الإيجابية القوية على إثارة الوعي بالتاريخ من ناحية، والتواصل مع الأصوات التاريخية الأخرى في المنطقة العربية من ناحية أخرى.

وإذا كنا قد تحدثنا حتى الآن عن المجلات التاريخية الصادرة

عن جمعيات المؤرخين بشكل عام. فإننا يجب أن نشير إلى تلك المجالات التاريخية، التي تصدر عن العديد من أقسام التاريخ في الجامعات المصرية والعربية.كما أن مراكز البحوث والدراسات التاريخية. (التي لايزال بعضها مستمرًا وتوقف بعضها الآخر)، أصدرت مجلات خاصة بها. ومن ناحية أخرى، فإن «اتحاد المؤرخين العرب» (الذي كان مقره في بغداد، ثم انتقل إلى القاهرة بعد عدوان صدام حسين على الكويت)، مازال يصدر مجلة بعنوان «المؤرخ العربي». وخلاصة القول إن المجلات التاريخية العربية قد شهدت نوعًا من «التكاثر» الشديد في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. وقد أدى هذا «التكاثر» إلى نتائج إيجابية على المستوى الكمي من حيث إتاحة الفرصة لمزيد من الباحثين والمؤرخين العرب لنشر نتائج بحوثهم ودراساتهم. كما أتاح مساحة أرحب للدراسات في الفروع المتنوعة للدراسات التاريخية. بيد أن السؤال يطرح نفسه عن مدى نجاح هذه المجلات في التواصل مع عامة المثقفين وأبناء النخب الفكرية، فضلا عن نجاحها في الوصول إلى القارئ العربي العام.

وإذا كنّا قد بدأنا حديثنا بالمجلة التاريخية المصرية، فإن ما حققته هذه المجلة من نجاح طوال مسيرتها يكاد أن يتوقف الآن لأن هذه المجلة العريقة لاتزال حتى الآن تسير على الخطوط نفسها، التي قامت عليها منذ إنشائها، فلم تتغير بنيتها التحريرية، وعلى الرغم من أن «المجلة التاريخية المصرية»، نشرت بحوثًا قيمة على مدى تاريخها الطويل، فإن حركتها العلمية ظلت أسيرة الفلك الذي أراده لها مؤسسوها منذ أكثر من نصف قرن مضى.

ولأن العدد الأكبر من المجلات التاريخية العربية قد صدر على غرار «المجلة التاريخية المصرية»، سواء المجلات، التي تصدرها أقسام التاريخ في مصر، أو المجلات التاريخية الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب (القديم والجديد) والجمعيات التاريخية العربية. فإنها ظلت تدور في فلكها، ولم تستطع أن تخرج من جلبابها. وتفسير ذلك أن البنية التحريرية لهذه المجلات ظلت قائمة على نشر

البحوث والدراسات في مختلف فروع الدراسات التاريخية: سواء على أساس التقسيم المصطنع للزمن التاريخي وعصوره: العصور القديمة، والعصور الوسطى، والعصور الحديثة والمعاصرة)، أو على مستوى التقسيم النوعي (التاريخ السياسي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافي... وما إلى ذلك)، ثم أخبار الندوات والمؤتمرات وعرضها. وربما دراسة أو عرض لبعض الكتب.

وأبادر إلى القول إن هذا ليس عيبًا، ولكن تكراره في جميع المجلات هو العيب العلمي. إذ يلفت النظر في هذه المجلات جميعًا أنها نسخ تكرر بعضها بعضًا، ولو أنك نزعت العنوان الدال على جهة إصدارها لما وجدت فروقًا، جوهرية أو ثانوية بينها. فكلها تقريبًا تنشر الموضوعات نفسها. والبحوث والدراسات في شتى فروع الدراسات التاريخية. وفي مختلف العصور التاريخية. في مزيج يشبه المزيج الذي بدأت به «المجلة التاريخية المصرية»، منذ عشرات السنين، وليست هناك مجلات أو دوريات تاريخية متخصصة في فترات تاريخية معينة (باستثناء حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، التي أصدرتها مجموعة من المؤرخين المصريين في ثمانينيات القرن العشرين، ولاتزال تصدر بجهود عدد من شباب المؤرخين، ومجلة الدراسات العثمانية، ومجلة الدراسات الموريسكية اللتين سبقت الإشارة إليهما)، ولا توجد حتى الآن مجلة عربية متخصصة في أحد فروع العلم التاريخي. إذ يمكن للمرء أن يعدد عشرات المجلات المتخصصة في التاريخ الاجتماعي أو التاريخ الاقتصادي، أو غيرهما في أوربا والولايات المتحدة وكندا، وهناك مجلات ودوريات متخصصة في تاريخ الحروب الصليبية، أو الدراسات البيزنطية، أوالتاريخ الديني، أو في التاريخ المحلي لأحد البلاد في هذه المناطق.

ويلفت النظر هنا، أن الدراسات التاريخية في الوطن العربي قد تقدمت بالفعل وصار هناك تراكم كمي، وثراء، نوعي أيضًا، في فروع الدراسات التاريخية، في العالم العربي، لم يكن يوازيه تقدم في المجلات التاريخية العربية. وفي ظني أن هذا الموقف

الغريب (تقدم الدراســـات التاريخية، وزيـــادة عدد المؤرخين العرب المتخصصين في مختلف فروع الدراسة التاريخية من جهة، وجمود المجــلات التاريخية العربية في قالب واحد متكرر من جهة أخرى) ناتج عن ضعف التمويل، وانعدامه أحيانًا.

ومشـــكلة توزيع هذه المجلات، التي لاتزال محصورة داخل نطاق ضيق تمامًا (بعض هذه المجلات لا يطبع أكثر من مائتي نســخة). كمـــا أن عددًا كبيرًا من هذه المجلات والدوريات قد صارت مجرد أداة لنشــر البحــوث والدراســات، التي يتقدم بهــا أصحابها إلى الترقية في الوظائف الأكاديمية. وهو ما يعني أنها صارت «وســيلة مهنية». أكثر من كونها «وســيطًا علميًا» للعمل على تطور الدراسة التاريخية بشكل عام. وتجديد الفكر التاريخي في فروع الدراسات التاريخية، ذلك أن شــباب الباحثين الذين يكتبون في هذه المجلات (بســبب عزوف الكبار لأسباب عدة عن الكتابة في هذه المجلات)، يميلون عادة إلى الالتزام بالقواعد الراسخة، والتي لا تثير الجدل، ويبتعــدون عن «المغامرة» بدخول مجلات جديدة خوفًا من إغضاب «الشــيوخ» الذين يميلون عــادة إلى تصديق أنهــم «الأفضل»، وأن الأفــكار والــرؤى التاريخية التي عملوا في إطارها هي الأحســن. ويؤدي ذلك بالضرورة إلى جمــود المجلات التاريخية في المضمون زيادة على جمودها في الشكل.

ومــن المثير أن هذه الحقيقة لا تنطبــق إلا على معظم الدوريات المنتظمة، على حين أن بعض الإصدارات الخاصة حول مشــكلات البحث التاريخي، أثبتت أن هناك قدرًا كبيرًا من الحيوية في مجال البحث التاريخي «تعجز» المجلات التاريخية عن أن تســتوعبه. فقد عقدت ندوات ومؤتمرات لمناقشة الجوانب المختلفة للبحث التاريخي في العالم العربي. ونشــرت أعمالها (منها المائدة المســتديرة التي عقدتهــا مجلة «فكر» في ١٩٨٥م، واســتضافت عددًا من المؤرخين والمفكرين، والندوة الموسعة التي عقدها المعهد الهولندي للدراسات العربية في القاهرة تحت إشــراف المرحوم الدكتور أحمد عبدالله ســنة ١٩٨٧م، والنــدوة التي عقدهــا «مركز الدراســات والوثائق

الاقتصادية والقانونية والاجتماعية»، التابع للسفارة الفرنسية بالقاهرة (السيداج) بعنوان الدراسة التاريخية المصرية ١٩٧٠-١٩٩٥م، بإشراف الدكتور محمد عفيفي، وغيرها من الندوات)، على حين ظلت المجلات التاريخية العربية قانعة بدورها التقليدي.

وربما يكون من الإنصاف أن نحاول تبرير ذلك القصور «الظاهري» الذي تبدو عليه المجلات التاريخية العربية، وبداية نقرر أن المسئولين عن هذه المجلات عادة ما يكونون من أكثر الباحثين حماسة ونشاطًا. ومن ثم فإن معظم المجلات تصدر بمثابرة شخصية منهم، كما أن مشكلة تمويل هذه المجلات تقف عائقًا حقيقيًا دون صدورها بشكل منتظم وعلى نحو لائق، وتحول بالضرورة دون «المغامرة» سواء في تطوير المضمون أو الشكل أو طباعة عدد كاف لطرحها على عامة القرّاء، ومن هنا يتحمل الباحثون عبء التمويل حين يدفع كل منهم «تكاليف» نشر البحث!!!

حقًا، إن المجلات التاريخية العربية - في معظمها - رهينة المحبسين: ضعف التمويل وضعف التوزيع، فهل يمكن بعد هذا أن نتحدث عن «تأثير» خارج نطاق الدوائر الأكاديمية!

لقد كان من حسن حظ التاريخ والمؤرخين في العالم العربي أن الدراسات والكتابات التاريخية لم تكن وقفًا على المجلات التاريخية العربية. فقد كانت جميع المجلات الثقافية والأدبية العربية تخصص مساحات محترمة للدراسات التاريخية، بل إن الصحف والمجلات السيارة أسهمت في هذا المجال بقدر وافر. وشاركت الإذاعة والتلفزيون والسينما أيضًا بالكثير، ثم جاءت شبكة المعلومات الدولية لتقدم ما لم تستطع أي من الوسائط الأخرى تقديمه في مجال المعرفة التاريخية.

وهو ما يؤكد الحقيقة القائلة إن الرغبة في المعرفة «التاريخية» البسيطة تكاد تقترب من الغريزة عند الإنسان العادي، فلكل امرئ تاريخه الخاص، أي ماضيه، الذي يحب أن يعرفه، وكل منا يريد أن يعرف «ماذا كان»، و«لماذا كان». وأصول ما هو ماثل أمامه من حقائق وظواهر وعادات وتقاليد، وعلى مستوى العقلية الجماعية

ترغب الجماعة الإنسانية عامة في معرفة حقائق ماضيها، ليس في الشكل الأكاديمي الجامد بطبيعة الحال، وإنما في قالب سردي حكائي يلعب فيه الخيال دوره، وهو ما نجحت فيه مجلة، الهلال، مثلا منذ تأسيسها قبل قرن من الزمان، وقد لعبت المجلات الثقافية الدور الأكبر في هذا الصدد.

أما المجلات التاريخية العربية فقد عجزت، حتى الآن. عن الوصول إلى القارئ العادي، ولست أظن أنها تستطيع. بيد أن هذا ليس دورها، وليس مطلوبًا منها. ولكن هذه المجلات بحاجة إلى كسر الطوق الأكاديمي للوصول إلى النخبة المثقفة، التي يقوم أفرادها دائمًا بدور الوسيط بين الأكاديمية والجمهور العام.

xxx

ربما لم تستطع هذه الورقة أن تجيب عن الأسئلة المطروحة في بدايتها، ولكنني حاولت أن أعثر على الإجابة من خلال عرض «تاريخ» هذه المجلات التاريخية والفضاء الفكري الذي ظهرت فيه، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من العثور على الإجابات، فإنني خرجت ببعض الملاحظات.

أولاً: أن الظروف التاريخية الموضوعية التي أفرزت أولى «المجلات التاريخية العربية» قد تغيرت بشكل جذري - أكثر من مرة - ولكن البنية التحريرية للمجلة العريقة لم تتغير على الرغم من تنوع محتواها تنوعًا هائلاً.

ثانيًا: أن المجلات التاريخية العربية، التي صدرت بعد ذلك لم تكن سوى تكرار في الكل والوظيفة والمحتوى للمجلة الأولى - باستثناءات قليلة جدًا - بحيث يمكن أن تكون «ملاحق» لها.

ثالثًا: أن المشكلات والمصاعب، التي واجهت المجلات التاريخية، التي تكاثرت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، والتي صدرت غالبيتها بمبادرات فردية وشخصية من جانب المسئولين عنها، حالت دون تحقيق طموح المؤرخين الذين أصدروا هذه المجلات.

رابعًا: إن حال التراجع العام في العالم العربي قد تركت تأثيراتها

بالضـــرورة على كل نواحي الحياة العربية، وكانت النواحي الثقافية والفكرية أولى ضحايا هذا التراجع، لاســيما أن الحكومات العربية اهتمــت بتأمين نفســها، وأنفقت معظــم موارد البــلاد على هذه الجوانب البوليسية.

خامسًا: إن الصورة التي تبدو قاتمة صورة خادعة، تخفي الكثير من الملامــح الحيوية، التي تشــي بأن التراجــع الثقافي والفكري الظاهــر ســببه حال «المنع» التي تســود الكثير مــن مناطق العالم العربــي، وتحول دون ظهور الفعاليــات الثقافية والفكرية الجديدة إلى العلن.

هذه «الملاحظات» تقودنا بدورها إلى وجوب مراجعة الدور الذي تقــوم به المجلات التاريخية العربيــة، ولكي يمكن لهذه المجلات أن تــؤدي دورها بشــكل فعال، لابد مــن أن تتوافر لها مــوارد الدعم الثابتة والمستمرة (على غرار ما حدث للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ومجلتها من دعم قدمه الشيخ القاسمي، وما قدمته دولة الكويــت من دعم لاتحاد المؤرخــين العرب في القاهرة والمجلة التي يصدرها).

ولاتــزال الحاجــة قائمة إلــى مجلات تاريخيــة متخصصة في فروع الدراســات التاريخية، وفي الفكر التاريخي، ونظريات تفسير التاريخ، ومشــكلات البحث التاريخي بجوانبهــا المختلفة، ومتابعة كيفية تدريس التاريخ في المدارس والجامعات العربية. ولأن الوعي التاريخي شــرط من شــروط المواطنة الحــرة الواعية، فإن المجال مفتــوح أمام مجلات تاريخية عربية مــن نوع جديد: مجلات تكون مهمتها «تبسيط» التاريخ، على غرار «تبسيط العلوم». وتكون مهمتها «تبســيط» التاريخ، على غرار «تبسيط العلوم»، وتكون مهمتها نشر الوعي بالتاريخ من خلال ما يمكن أن نســميه «التاريخ الشــعبي»، أي الدراســات والبحوث، التي تخاطب عامة الناس بأسلوب سهل ســلس لتعريفهم بحقائــق تاريخهم دونمــا تعقيــد أو إفراط في الشــكل الأكاديمي (الذي يجب أن يبقى أيضًا داخل دوائر البحوث والدراســات الجامعية والأكاديمية). ودونما ذلك التعالي الذي نراه

في خطـــاب بعض الأكاديميين. إن مثل هــذه المجلات «التاريخية» البسيطة موجودة بالفعل في أوربا وأمريكا وبعضها موجه للأطفال والشباب والصغار على هيئة شـرائط spirtS. وتؤدي دورًا مهمًا، ويمكن أن يكون هناك الكثير في هذا المجال.

إن نظرة على التنوع والتطور الذي شـهدته الدراسات التاريخية فــي العالم العربي فــي أثناء العقــود الثلاثة الأخيــرة من القرن العشرين ونصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. تكشف عن حجم ومدى ما حققته الدراســات التاريخية في العالم العربي. كمــا أن نظرة موازية على المجلات التاريخية العربية، التي صدرت في الفترة ذاتها، تكشــف عن أن عدد هــذه المجلات قد زاد حقًا، ولكنها تكشف أيضًا عن أنها كثرة «التكرار»، وليست كثرة «التنوع».

مجلات الفن التشكيلي
ملامح الحضور وأسباب الغياب

اشرف أبو اليزيد *

ليس أدلَّ على أهمية الفن التشكيلي في رصدِنا لسيرة المجلات ومسيرتها أهم من كون ذلك الفن وحده هو من يحوِّل الكتابَ إلى مجلة، ويضع ما يُسطره الحبر في مصاف ما ترسمه الرِّيشة. فمن دون أساليب الفن الإبداعية لا تكتسب المجلة سمتها وصفتها، وتبقى بضع أوراق مرصوفة بكلمات صماء بين غلافين صامتين.

وتلك هي الخطوة الأولى في ارتباط كلٍّ منهما بالآخر. المجلة والفن التشكيلي. منذ بواكير صناعة الصحافة.

ويمكن في البداية، أن نحدد ملامح حضور الفن التشكيلي في أي مجلة مطبوعة، لنجد الآتي:

* كاتب من مصر

ملامح حضور الفن التشكيلي ـ التشكيل الخطي

تبدأ ملامح هذا الحضور التشكيلي بفن الخط العربي، وسينسحب ذلك على تشكيل اســم المجلة وشعارها (LOGO)، واختيار أسلوب عرض العناوين الداخلية الرئيســية والفرعية، ورسم أسماء الأبواب، وتحديد أنماط الحروف الطباعية، وألوانها، واستخدام الخط اليدوي (Calligraphy) أو الحرف الآلي.

وحين ندرس هذا الحضور التشكيلي بالرجوع إلى أسماء المجلات التي اخترناها بشــكل عشــوائي، لأن العيِّنة بيِّنة، كمــا يقول العامةُ، سنجد ارتباط هذه القيمة بالمحتوى ارتباطا كبيرًا.

● ففي مجلة هدى شــعراوي «المصرية» التي خصت جُلها للثقافة والفنون، سنجد ذلك النزوع إلى الحرف الكوفي المعماري في تشكيل الاسم باللغة العربية، أما الاسم باللغة الفرنسية، فقد عمد الخطاط إلى خداع بصري، شــكَّلَ به الاســم الفرنسي برســم كوفي مرونق ومتأنــق، محليا أطرافه بأوراق نباتية، إمعانا في الإيهــام البصــري بـ «عروبة» الإسم والمحتوى رغم «لاتينية» الحرف واللغة.

● والأمــر نفســه ـ فيمــا يخصُّ تشــكيل الاســم ـ يقال عــن مجلة «GOHA» التي صدرت بالفرنسية وظهر عددها الأول في مصر مطلع شهر نوفمبرسنة ١٩٢١، وكان صاحبها الرسام الإسباني المتمصر خوان سانتيز، الذي يُعدُّ رائد فن الكاريكاتير في مصر، لذا كانت موضوعاتها تشــرح للأجانب بالبلاد أحوال السياسة، وظروف الاقتصاد، وألاعيب الســلطة، ومواجع الشــعب. والمهم في هذا الصدد أن الحروف الأربعة التي تشــكلت منها كلمة «جحا» باللاتينية رسمها بتشكيل عربي، يخدع الناظر إليه، فيحسبه القراء ـ على اختلاف ألسنتهم ـ من لغتهم.

● أما مجلة «صباح الخير» التي قدمتها مؤسســة «روز اليوســف» في ١٢ يناير ١٩٥٦، لتكون مرآة للعقول الشابة المتحررة ونهرًا للقلوب الجريئة، فلم تجــد أكثر ملاءمة لقيمة «الحرية» التي تدعو إليها من أن يكون الاســم بخط حر، وريشة مغموسة في حبر سخي لم يجف، فلا قيد على الاسم، ولا قيد أيضا على الرَّسم، ولا حجْر على المحتوى الذي قدَّم ـ كما سنعرض فيما بعد ـ فنونا تشكيلية بشكل مغاير.

● وحين نقــرأ «العربي» اليوم، نجد كيف احتفظت بالخط الكوفي المبسّــط في تشكيل اسمها، رغم أنه تطوّر أربع مرات، منذ صدورها فــي ديســمبر ١٩٥٨، لأن ذلك الخط هو الأكثر شــيوعا على المحك الثقافي، حتى أصبح لصيقا بالفن.

وقد ســار على درب اختيار الحرف الكوفي مجلات فنية تشكيلية متخصصــة مثل الدوريــة الفصلية «فنون عربيــة» التي صدرت في ١٩٨٢، و«فنــون مصرية» التي صدر عددهــا الأول في يوليو ٢٠٠٤. ونكتشف أن تدخل الكمبيوتر في الأولى اعتمد البساطة والأناقة، في حــين أن الكمبيوتر في تصميم عنوان المجلة الثانية كان دعائيا، فجاء العنوان كما لو كان لوحة معدنية لســيارة يابانية مثبتة على عمل فني كلاسيكي!

ملامح حضور الفن التشكيلي - الرسوم الشارحة والكاريكاتورية

يمكننا أن نعدَّ ظهور الرسوم الشــارحة والكاريكاتورية، والأعمال الفنيــة العالمية والمحليــة، في الصحف والمجــلات العربية - الثقافية وغيرها - ملمحًا مهمًا من ملامح حضور الفن التشكيلي في الصحافة. وإذا كان البعض يُرجع ظهور هذه الرسوم إلى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) واعتمادها طباعة منشورات فرنسية تُظهر فتاة فرنسية - هي فرنسا - تُمسكُ صولجانًا بيد، وبلطة أو عصا باليد الأخرى، بين الترغيب والترهيب.

وقــد تركــت الفتاة الفرنســية عصاهــا لتعرض شــعار الحرية والمساواة، قبل أن يتحول الشــعار الفرنسي برمته، إلى عبارة (لا إله إلا الله.. محمد رســول الله)، بالعربية، محاطا برســوم للهرم الأكبر ونخلــة وبعض من آثار مصــر. وحين يعود مبتعثــو محمد علي إلى مصر بعد دراسة الطباعة في ميلان الإيطالية، تتأسس مطبعة بولاق، أو مطبعة صاحب الســعادة في ســنة ١٢٣٥ هجرية (١٨١٩ - ١٨٢٠ ميلادية)، لتصدر بعد ذلك «الوقائع المصرية» في ٣ ديســمبر ١٨٢٨، مدشــنة ظهور الرســوم الصحفيــة الأولى في المطبوعــات العربية، وكان ذلــك عبارة عن أصيص زرع يرمز لشــجرة القطن طويل التيلة

الشـــهيرة. وفي صحيفة «وادي النيل» الأهلية التي صدرت في ١٨٦٧ كان غلافها تســجيلا أمينا لكل ما هو مصري، مزدحما بآثار البشر الحجر والشــجر. حتى تسلل الرسم إلى جريدة الأهرام التي صدرت في ١٨٧٦، بادئًا بشــعار الجريدة الأشــهر، ومثنيًا بفن الإعلان الذي ظهر مزينا بالرسوم والخط اليدوي.

وفي منفاه إلى فرنســا، وهو يقيم فــي ٢٢ رو دي لا بنك باريس، قدَّم رائد الصحافة الســاخرة يعقوب صنوع تحت شعار علم مصر ذي النجمة والهلال، وعبارة «مصر للمصريين»، وصورته التي اشتهر بلقبها «أبو نظــارة» صحفه المصورة بين عامي ١٨٨٥ و١٨٨٨، وهي عبارة عن مزيج بين الرســم والخطوط العربية والفرنســية. تسخر مــن الخديو إســماعيل، منتَخب الإنجليز كما اســماه، وصوره. في إحدى رســومه الســاخرة. يجلس بدار «الديوك أوف سويســرلند» ليحكي ســياحته في أوربا ويرجو الإنجليز الحاضرين أن يساعدوه على رجوعه لمصر. كما يرســم مشــاهد من حكم الخديو في مصر والســودان، ففي القاهرة نرى مشــهدًا لعذاب أبنائهــا لكي يقرُّوا «يعترفوا» بالمحلات التي خبأوا فيها أموالهم، وفي الخرطوم وتحت عنوان الشــهر الرابع من جور فرعون، يناشد الحضور المهدي: تعال يــا مهدي نجينا من إســماعيل. ومن يتأمل هذه الرســوم يقول: ما أشبه الليلة بالبارحة!

وفي مصر توالى ظهور المجلات التي تضيف الرسوم إليها، وأشهر النماذج (اللطائف المصورة)، التي ظهرت في ١٥ فبراير ١٩١٥ كمجلة أدبيــة علميــة تاريخية فكاهية مصورة لتصل بفن الرســم الصحفي الوليد إلى مرتبة راقية، وأشار فيها إلى موهبة مصرية نابغة في هذا الفن تعود للرســام إيهاب خلوصي الذي «امتلك رؤية ثاقبة للفوضى التــي تعم الشــارع المصري ومواطــن الخلل في هيئاتــه»، لذا كانت ثورة الشــعب في ١٩١٩ نتيجة طبيعية كرد فعل لما وصل إليه كابوس الاحتلال الانجليزي.

مع سيل من الصحف والمجلات التي ملأت الساحة بعد ثورة ١٩١٩، كتب أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته الشهيرة:

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحفْ
لسانُ البلادِ، ونبضُ العباد، وكهف الحقوق، وحرب الجنفْ
(الجنف : الميل عن الحق)

حتى أن شوقي، الذي رصد الرسوم الساخرة، والفنون الزاهرة، يقول في أبيات أخرى من القصيدة نفسها :

جَلَوْتُمْ حواشيها بالفنو ن، فكم شرفٍ فوقَ هذا الشَرَفْ
اريكة موليير فيما مضى وعرش شكسبيرَ فيما سلفْ

وفي ١٩٢٥ بدأ تاريخ جديد للصحافة الفنية بصدور العدد الأول من مجلة روز اليوسف في ٢٦ أكتوبر لصاحبتها الفنانة الكبيرة فاطمة اليوسف، واهتمت المجلة منذ عددها الأول بالرسوم الصحفية. وقد انضم لمدرسة روز اليوسف الصحفية فنان الكاريكاتير الأرمني الرائد صاروخان ليقدم شخوصه الكاريكاتورية الحية التي أثرت صفحات المجلة وكل مطبوعة عمل بها.

وقد تصدّرت غلاف العدد الأول من المجلة، وتحت عنوان : تُحف فنِّ التصوير، صورة آلهة الربيع «فلورا» وقد دون تحته هذا التعليق:

«ستوالي المجلة نشر روائع التصوير في مختلف العصور تكملة لإحدى نواحي الثقافة الفنية، ونبدأ اليوم بنشر صورتين للمصور الإيطالي النابغ نيسبان (١٤٨٢ ـ ١٥٧٦)، زعيم المدرسة الفينسية في التصوير. وتمثل هذه الصورة آلهة الربيع «فلورا». فهي كما ترى صورة رمزية لفصل الربيع حيث تزدهر الورود، وتتدفق الحياة عزيزة في كل كائن حي ولذا لم يُغفل المصور النابغ أن يحمِّل يد الآلهة زهورًا يانعة، كما أنه أسبغ عليها بهاء الأنوثة في نضوجها الفاتن».

ومع تطوُّر الطباعة في مصر، نرى استجابة المجلة ـ نموذجًا مع سواها ـ لهذه التقنيات، حيث إنها صدرت في حلة أنيقة ودقيقة منذ ١٩٣٣ في ٤٤ صفحة زيدت إلى ٦٠ صفحة مزودة بالصور والكاريكاتير والألوان.

مع هذه الرسوم الصحفية والكاريكاتورية واللوحات التشكيلية الملونة، والصور الذاتية المصوَّرة بحرفية، ظهرت في المرحلة التي سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢، مجموعة من المجلات المصورة التي حاولت أن تملأ

الحيز المتاح للرسوم التي شملت فنون الكاريكاتير والبورتريه والكولاج وكان من أشهر تلك الإصدرات الفكاهة والصرخة والبعكوكة.

ومن بين المجلات التي تعدُّ نموذجًا لمجلة «فنية تستخدم الصور والرسوم الشارحة والكاريكاتور» مجلة «الإثنين ـ الفكاهة والكواكب» التي قدمتها دار الهلال (١٩٣٤) ورسمت في ثلاثينيات القرن الماضي، صورة للمجتمع صارخة في نقدها، وشاملة في تناولها للأساليب الفنية المتاحة طباعيا ـ فرأينا فن البورتريه بريشة سانتس يصور فيه ـ كنماذج ـ علي الكسار وسامي الشوا وبهيجة حافظ وجورج أبيض، وغيرهم وتحت كل منهم تعليق ساخر، وشاهدنا رسوم الفنان رمزي تسخر وتشرح، وطالعنا الكولاج التركيبي المستخدم للسخرية والشروح لمخرج المجلة (مثل صورة وجوه وزراء مصر على أجساد عرائس المولد، يحركها مايلز لامبسون، وتحتها التعليق: المعلم لامبسون ممسكًا بيده عبد الفتاح يحيى باشا، وأمامه على الطبلية محمد باشا محمود ويحيى باشا إبراهيم، وتوفيق نسيم باشا، وعلي باشا ماهر، المرشحون للوزارة، وعلى الأرض تمثال صدقي باشا وهو مكسور)، عدا عن قراءتنا للحس الزجلي الساخر لرئيس تحريرها حسين شفيق المصري الذي اشتهر باسم «أبو بثينة»، والذي قدّم أشعارًا بالعامية، تجعل مجلته ضمن الإصدارات التي تعلي من قيم المجتمع:

يا افندي المَظهَرْ مَا يهمّشْ دَا الوَاحِدْ قيمتُه بمَجْهُودُه
كَامْ عَامِلْ بهدُومه الوسْخة ١٠٠ معمل يتمنوا وجودُه
الواحد لازم يتثقّف مش بس يزوّقْ من برّه
أنا عقلي انفع من جسمي في الدنيا مليون مرّة

كما قدمت المجلة الكاريكاتور «المستورد» من خلال بعض الرسوم التي نثرتها بين صفحاتها، واستحدثت بابا أسمته: اضحك يضحك لك العالم لتضع فيه هذه الرسوم ذات التعليقات المترجمة.

ومن الطريف، وما أعدُّه نوعًا من الثقافة البصرية التي بدأ شيوعها مع هذه المجلة وسواها، هو ذلك الإعلان الذي قرأته في مجلة «الإثنين ـ الفكاهة والكواكب» في العدد السادس الصادر يوم ٢٢ يوليو ١٩٣٤:

«زيّــنْ جدار غرفتِك بصور الممثلات أو الممثلين المفضلين لديك، تجد هذه الصور في المجموعة العظيمة التي وصلت حديثا لمحلات بشــير خوري، ١٦٢ شـــارع الخديو إسماعيل بمصر و١٤٥ شارع الملكة نازلي بمصر، وبيان الأســعار ٦ قروش عدد ١٢ صورة حجم كارت بوستال، قرشـــان مجموعة مقاس ٦ - ٩ تحتــوي على ١٠ صور، قرش واحد، مجموعة تحتوي على ٩ صور بشكل طوابع البريد ومصمغة من الخلف ليسهل لصقها». وقدمت المجلة نفسها مسابقات أدبية وفكاهية عدة، مثلما قدمت مسابقات في التصوير الفوتوغرافي منها صورة : أجمل طفل وطفلة! وفي إطار إهتمامها بالتصوير، نقرأ إعلانا على صفحة كاملة عن فيلم «فرانيا» الذي يصوِّرُ لكم جمال الآثار المصرية!

ثم كان دخول الفنانين التشكيليين إلى الصحافة إيذانا بعهد جديد من الزواج بين الثقافة والفنون. ويمكن أن نشــير للدور الكبير للفنان منيــر كنعــان (١٩١٩ - ٢٠٠٠) في مؤسســة أخبار اليــوم وبخاصة أســبوعية (آخر ساعة)، الذي أصبح بفضل مئات الرسوم التصويرية . ومنهــا التســجيلية والتوثيقية التي قدمهــا للصحافة . جبرتي الفن الحديث. وفي ١٢ ديسمبر ١٩٥٣ حين أصدرت الثورة الوليدة جريدة تنطق باســمها هي (الجمهورية) رأينا كاريكاتير الفنان طوغان الذي ســلك مع زميله عبد السميع صيغة التعامل الصاروخانية (نسبة إلى رسام رائد هو صاروخان)، مع الشخوص الكاريكاتورية، ونتعرف إلى ريشة الجرافيكي الكبير الحســين فوزي (١٩٠٥ - ١٩٩٩) في قصة حياة السيد عمر مكرم بعنوان «كفاح الشعب».

وفي مجلة «صباح الخير» مُنحَتْ الرســوم الشارحة والكاريكاتير المساحة الواجبة وقدم فنانو مؤسسة «روز اليوسف» للمجلة الجديدة أعمالا خالدة، فتعرفنا على ريشة زهدي المفكرة، وحبر عبد السميع الســاخر، وخطــوط صلاح جاهـــين الســاحرة، وكوميديا حجازي الســوداء، وتفاصيل رجائي ونيس الرقيقة، وفلســفة بهجت عثمان العميقة، ومشــاغبات صلاح الليثي اللافتة، وقدم الفنان التشكيلي الكبيــر جمال كامل البورتريه للشــعب، فطالعنــا على الغلاف أول جاليري مفتوح للفن التشــكيلي الراقي، لفتيات القاهرة ونســائها،

مثلمـــا طالعنـــا أيضا مهـــارة هبة عنايــت في التجســـيد، وغيرهم كثيرون.

ومــن أبرز الفنانـــين الذين «غيَّرُوا وطـوَّرُوا وثوّرُوا» الرســـوم في المجلات التي انضموا إليها الفنان حسين بيكار(١٩١٣ . ٢٠٠١) الذي انحاز إلى الاحتفال بالعناصر الإنســـانية وتقديمها في صياغة أنيقة ورشيقة تكشـــف عن النموذج الأمثل للجســـد الانساني، مثل مرحلة (النوبة) التي سجل فيها بريشة رائعة وتلخيص عذب تفاصيل الحياة اليوميـــة لأهل النوبة في جنوب مصر. ونذكـــر أيضا الفنان والكاتب والمناضل حسن فؤاد (١٩٢٦ - ١٩٨٥) العالم بأسرار مدينته القاهرة وروحها والذي استطاع . أيضا . التقاط روح القرية المصرية بشفافية. وكذلك الفنان محمد حجي الذي تختصر لوحاته عشـــرات المقالات التحريضيـــة بفضل قدرته على التحكم بقوانين الظل والنور بتصميم متـــين ومحكم متعة بصرية تنتمي لفنان نـــادر. والفنان حلمي التوني الـــذي أضاف للمجلات الثقافيـــة بعدا ثالثا، يختـــزل فيه روح الفن وآيات المجتمع. والفنان محيي الدين اللباد، الذي أضاف نمطًا جديدًا للإخـــراج الصحفي. باعتباره ملمحًا إبداعيا تشـــكيليا، يُكمل النص، وقـــد رأت الملايين أعماله حين جاورت الأعمـــال الإبداعية الأعمال التشـــكيلية في مشـــروع «كتاب في جريدة» الذي صممه وصدرت به سلسلة من روايات وقصص وأشعار وأفكار العرب، مصحوبة بثلة من الفنانين النوعيين.

حـــين نرى تلك الكثرة من الرســـوم الســـاخرة عنوانا وملمحا على حضور أحد أركان الفنون التشكيلية في المجلات أستدعي هنا دراسة بالإنجليزية أصدرها قســـم النشـــر بالجامعة الأمريكية في القاهرة، ضمن كتاب (ألوان الطرب) أو (Colors of Enchantment)عن صورة مصر داخلها، عبر فنون الرســـوم الساخرة، وحللت الباحثتان شـــريفة زهر وتونيا رفاعي كيف تم تجســـيد مصر الوطن في صورة الأنثى لدى رسامي الكاريكاتير.

وقد بدأت الدراســـة بسنوات العشـــرينيات من القرن الماضي بحثا في اللوحات والملصقات والمنشورات والمنحوتات، وبالتركيز عليها في

كاريكاتير الصحافة المحلية. وترى الدراسة أن تلك الصورة (الأنثى) لمصر كانت تضفي عليها براءة وقلة حيلة، بل وضعفا في ميزان القوة لمصلحة المحتل الأجنبي والقوى الخارجية.

لكن مرحلة ثورة ١٩٥٢ وما بعدها جعلت تلك الصورة الأنثى تتوارى لمصلحة توحُّد قائد البلاد مع صورة الوطن. وإذا كانت العشرينيات قد بلغت فيها تلك الصورة الذروة، مع مشروع النحات العظيم محمود مختار لتمثال (نهضة مصر) فإنها أصبحت الآن كما تقول الدراسة تتماهى مع رئيس الدولة.

ونشاهد - في هذا الشأن - رسما كاريكاتوريا قدمه خوان سانتيس في (الكشكول) يوم ١٨ يونيو ١٩٢٢ ويشير التعليق المكتوب إلى أن ذراع التمثال تغير للمرة الثالثة، والتغيير هنا في الرسالة التي تحملها اليد وبها صرة نقود كتب عليها (١٥ ألف جنيه) ومغزاها أن القارئ/ الشعب عليه أن يدفع هذا المبلغ لاستكمال التمثال.

وهكذا في مجلات الكشكول واللطائف المصورة والإثنين وسواها بدت صورة مصر: الشابة الخجول البريئة الباحثة عن استقلالها، والمطالبة بعون شعبها سياسيا واجتماعيا، وهي غير الصورة المعادلة للمرأة الجديدة التي سعى إليها مشروع قاسم أمين.

فقد كان هناك ما يشبه التوتر والتناقض بين ماضي مصر الذي يمثل القوة فيما يعرض الحاضر (الأنثوي) ضعفه وقصر يده. فمصر الأنثى هي الأم والزوجة والابنة التي يتعاطف معها الجميع ويسعى الكل إلى حمايتها وحراستها. وأعتقد أن تلك مساهمة في تكريس هذا الضعف الذي كان يجب أن يتحول إلى امرأة شجاعة محاربة، أو أنثى فدائية. لقد كانت صورة مصر في (ألوان الطرب) تبعث على الغضب، فلم تحصل على وجهها الحقيقي، وقد يكون السبب في أن الفن مرآة للواقع.

ملامح حضور الفن التشكيلي. مقالات في النقد وسير الفنانين

يمكننا أن نضيف دون حرج أن من أهم وأنضج ملامح حضور الفن التشكيلي يبرز فما قرأناه من مقالات في النقد التشكيلي

للفنون الجميلة وسبر مسـيرة الفنانين على صفحات الدوريات التي تتبعنـا نماذج منها خـلال ثمانين عامًا. ولعلنا نقول إن نسـبة كبيرة من نقاد الفن التشـكيلي هم من فنانيه، بل لعلها تكون النسبة الأكبر إذا ما أخذنا الفن المعماري على محمله الأوسـع. ولذلك سنعمد إلى قـراءات من أعمال هؤلاء الفنانين عن مجايليهم، من بين ما نشـروه في الدوريات العربية.

وكان بعضُ ما يُنشـرُ عن الفن يأتي مجردًا من اسـم كاتبه، ولنقرأ في جريدة الأهرام سـنة ١٩٢٩ هـذا الخبر «نجاح مصر في معرض الفن الفرنسـوي»: «باريس في ٦ يونيو من مراسـل الأهرام الخاص: اقيـم في (الجران باليه) أخيرا معرض الفن الفرنسـوي، وكان حظ مصـر من النجاح فيه مما يدعو إلـى الاغتباط والتنويه بقدرة رجال الفن المصريين. وقد ذكرنا منذ أيام أن الأسـتاذ محمود مختار المثال المشهور عرض تمثالا من بدائع الفن يمثل عروس النيل لفت إليه نظر كل من زاروا المعـرض وكان موضع إعجاب كبار رجال الفن، حتى أن المحكمـين اختاروه مع ٢٢ تمثالا آخر ومنحوه الميدالية، وذلك من بين أكثر من ثمانمائة عارض. وكما تفوقت مصر في فن الحفر، وكما بز مختار مئات المثالين من جميع الجنسـيات، تفوقت أيضا في الرسم، فقد عرض أحمد صبري لوحة (تأملات) فنالت شهادة فخرية، وهي الجائـزة التي تلي الميداليات مباشـرة، ولم تمنح إلا لعدد قليل أيضا مـن مئات العارضين. ومختار معروف للقراء، أما أحمد صبري الذي يسـرنا نجاحه فتخرج من مدرسة الفنون الجميلة بمصر وذهب إلى فرنسـا في سنة ١٩١٩ إلى سـنة ١٩٢١ ثم عاد إلى مصر. وفي سنة ١٩٢٣ أوفدتـه الحكومة المصرية للتعلم عل نفقتها، وكان مما عني به دراسة رسم الأسـتاذ (فوجيرا) واشـتغل بكل جد وهمة في (نانت) ثلاث سـنوات، ثم في باريس، وسـيعود إلى مصر قريبا بعد أن أتم دراسـته. وقد هنأ كثيرون من المحكمين أحمد صبري على الطريقة التي اتبعها في رسمه وجمال الألوان ودقة الرسم وعنايته بالتفاصيل المختلفة مما جعله يخرج رسـما متقنا متناسقا بديعا. هذا عضو من بعثة الحكومة يعود إلى مصر بفوائد قيمة ومعلومات ستجعله يصبح

في القريب في الصف الأول بين الفنيين المصريين».

وإذا كان ذلك ديدن الصحافة والصحف، فقد احتفت دوريات ثقافية أو صفحاتها المتخصصة بالفن التشكيلي، وعرضت لسير رواده، وصورت أعمالهم، وأفردت الصفحات لكتابات الفنانين والنقاد والشعراء والصحافيين والمثقفين، كما فعلت مجلة «مجلتي» التي أسسها أحمد الصاوي محمد قبل نحو ٧٥ عامًا. وبالإضافة إلى شمول «مجلتي» على الملمحين السابقين لحضور الفن التشكيلي من الخط الحر الذي رسمت به، والغلاف الأحمر الداكن الذي يجعل منها «كُراسة» خاصة بمقتنيها شكلا، وتضمينها لصور فوتوغرافية توثيقية، ورسوم توضيحية مصغرة، اللجنة الفرعية الفنية فإنها قدمت وبشكل جاد مقالات في النقد الفني التشكيلي.

وتراوحت هذه المقالات المنشورة في «مجلتي» بين التقديم الميسر، والنقد المفسر، والعرض المؤثر، ونقرأ في العدد السابع من المجلد الثاني الصادر أول سبتمبر ١٩٣٥، مقالا للأستاذ أحمد راسم بعنوان: «نظرة في الفنون الجميلة» قدَّم فيه الكاتب والفنان مؤلَّفا بالفرنسية عن النحت والتصوير وضعه موريك بران Morik Brin مدرس اللغة الفرنسية بوزارة المعارف العمومية وسكرتير جمعية أصدقاء نشر الثقافة الفرنسية في القاهرة، يقول راسم: «وهذا الكتابُ فريدٌ في بابه من حيث التنسيق في الوضع والجمال الفني الذي يلاحق كلَّ فصل ويشمل كلَّ مبحث، ومن الأشياء التي لم يسبقه إليها أحد أنه أفرد بابا كاملا للمصورين والمثالين من أجانب ووطنيين في مصر، وخصص لكل منهم مبحثا لخص فيه تاريخ حياته وتطور فنه في جميع مراحل تربيته العملية، وما يتميز به فنه عن فن غيره، وقيمة عمل كل منهم وما وصل إليه من الشأو والشهرة. ولم يكن الجمهور المصري قبل اليوم يعرف شيئا عن المصورين والمثالين أبناء الوطن ولم يُلم عن قيم فنهم إلا قليلا، لهذا وجب علينا أن نشكر لأستاذ بران تحفته التي أهداها إلى جمهورنا المصري بما كان يجهل من آثار المصورين والمثالين الوطنيين».

وفي «مجلتي» أيضا دعا أحمد الصاوي محمد كتابًا وفنانين لنشر

مقالات عديدة عن الفنون لأحمد راسم (منها : المصور محمود سعيد، مجلتي، مجلد ٢، ١٩٣٥)، والدكتور أحمد موسى، الذي عرَّفه بأنه خريج جامعة برلين، وقد كتب هذا الأخير تحت عنوان «دراسة الفن»: «كلفتني «مجلتي» بالكتابة في هذا الموضوع، وقيدتني بألا أتعمق في الفلسفة وألا أعرج على التاريخ التفصيلي الذي قد يكون مملا للقراء، والواقع أنها قيودٌ قاسية، ولولا يقيني من أنها مدفوعة بعامل الإخلاص للقراء، لترددت، وخصوصًا والموضوع عسير يتطلب مني أن أتدرج بالقارىء ليستطيع - فيما بعد - أن يفهم الفن فيها فهمًا صحيحًا، مبنيا على أساس علمي، وهذا يلزمني العود به إلى أصل الفن، وإلى المقصود منه، والرجوع إلى أصله وإلى تطوره».

ومن بين من دعوا - كذلك - للكتابة في «مجلتي» أحد أهم هؤلاء الفنانين «المصورين والمثالين الوطنيين» الذين قدموا لمحات من كتاباتهم في الفن، وهو النحات الكبير محمود مختار.

أما المبدع جبرا إبراهيم جبرا، فكانت له سبحات في أكثر من دورية ثقافية عن الفن التشكيلي. ويحكي إبراهيم نصرالله عن لقائه الأول بجبرا في بغداد فيتذكر: في المساء كان هناك - في حفل افتتاح المعرض الجماعي لعدد من الفنانين التشكيليين العراقيين - يتجول بين الأعمال، يعايشها، يقف طويلا أمام اللوحة، يبتعد عنها إلى أخرى، وعينه لم تزل على الأولى، يسترق النظر إليها بين حين وآخر، لكنه لايلبث أن يتوقف أمام لوحة جديدة تُسَمِّرُه أمامها، كما لو أنها أنسته كلَّ ما رأى. ولم يكن من الصعب على المرء أن يدرك أن جبرا يعايش اللوحة ككائن حي تمامًا، يدرك حاجته إليها كإنسان كاتب فنان، ويدرك حاجتها لهذا الحب الذي يبديه نحوها».

وقد جمع نصرالله بعضا من كتابات جبرا إبراهيم جبرا في الدوريات المختلفة، تحت عنوان: الفن والفنان، كتابات في النقد التشكيلي، وأصدرته دارة الفنون، بمؤسسة عبد الحميد شومان، بالأردن، ومن بين مقالات جبرا، نقتطع هذه الفقرة التي كتبها قبل ٣٥ عامًا عن الفنانة التشكيلية العراقية سعاد العطار بعنوان «الغابة المتحولة»: «يُخيل إلي أن سعاد تحاول أن تعبر بالفنتزة عن براءة الإنسان الأولى،

وقد نازعتها شهوة الحياة على غير انتظار، كنار تتشبُ فجأة في غابة عذراء، كما شبت في لوحتها المسماة (الأشجار ذات مساء). وإذا فقد أشخاصها حقيقتهم الجسـدية، في صورها الأخيرة، وجدوها تتثال عليهم فـي أثقال من التحرق، إذا ما وقعوا فيما يشـبه الغيبوبة، لم يتعين لدى الرسـامة إن كانت الاستفاقة سـتكون على هذه الحقيقة أوعلى وضع حلمي جديد، فالجنة في رسومها تتحول فجأة إلى غابة كثيفة، بين جذوعها الشواهق وأغصانها الملتفة وأوراقها الكبيرة تكاد المـرأة تختفي. أم أنها تختبىء؟ فهي لا تـرى إلا صغيرة فيما بينها، ولكن هذه الغابة نفسـها بعد قليل تتساقط أوراقها، وتتعرى فروعها ولا يبقى للمرأة وجود في هذه الشـبكة الحمراء القاسـية، ولو أنها تصطاد الشمس لاهبة مرة أو مرتين».

وأضم ما قدّمه الفنان حسـين بيكار في جولاتـه القلمية النقدية في معارض الفن برهافة شـاعر وفنان وفيلسوف، إلى أبرز المتابعات النقدية التي لم يلتفت إليها لجمعها وتصنيفها إلا أخيرًا، رغم أهميتها الباذخة، وتشكيلها لجزء مهم من ذاكرة النقد والفن. وفي هذه الرؤى النقدية لم يُغفل بيكار دوره كراع للفنانين الجدد، وشـارح للأساطين القدامى، وشاعر تشـكيلي بامتياز، ولعلي أوجز رأيي حين أنقل هذه الفقـرة عنه، والتي صدرت ضمن مجموعـة أولى ضمت مقالات له تحت اسم: مقالات نقدية في الفن بتقديم وتصنيف الفنان مصطفى عبد المعطي وإخراج الفنان محمود عبد العاطي، ضمن سلسلة «آفاق الفن التشـكيلي»، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وكان نشرها منجمة في «الأخبار» القاهرية في بابه الأشـهر«ألوان وظلال»: «المرأة وعاءٌ جميل.. يضم الورد والشوك، والملاك والشيطان، والحب والكراهية، والجنة والنار، والحياة والموت. تقف على حافة البحر عميقة مثله، بل أكثر عُمقًا وغموضًا، تفسـح لها السماء مكانا في فضائها الشاسع، تقف شـامخة كتمثال تأكسـد سـطحه برذاذ الماء. ويحتدم الصراع بين الأضداد، بين الأزرق «البروسـي» الدَّاكِـن العميق عمق المحيط وتنويعاته الأثيرية الحالمـة، وبين الأحمر القاني كلون الغريزة واللهب والـدم ودرجاته الورديـة الناعمة. والمرأة وحدهـا في هذا الخضم،

تقتلها الوحشة، ترتجف من هول الصقيع الثلجي الذي التحف به، إنها ليست من طراز «فينوس» الجنس الذي ولدت من زبد البحر، إنها المرأة الرمز، المرأة اللغز، وأنت لا ترهب هذه المرأة الخطرة التي تطل عليك من لوحات أحمد نبيل متشحة بالغموض، إنها تطويك في نشوة تسري في بدنك، كرعشة عربيد لا تعرف لها مصدرًا. هذه المرأة عاد بها الفنان أحمد نبيل من بعثته في إيطاليا لا جسدًا حيا، ولكن نموذجا رمزيا ينسج من خيوطه مشخصاته، التي يؤلف منها تكويناته الحالمة التي يعرضها حاليا في المركز الثقافي الإيطالي بالزمالك».

ويكاد يكون الفنان محيي الدين اللباد أغزر التشكيليين كتابة، حتى أنه أقرب لصناعة الكتاب من إنجاز اللوحة، والرسوم. ومع كونه رسامًا للكاريكاتور ومخرجًا صحفيًا ومشاركًا في تأسيس مجلة (كروان) للأطفال، ودار الفتى العربي، ستقرأ له وهو يعرض لك رواية أو روايتين عن وحشية الصهاينة ضد الفلسطينيين، وتقرأ له كتابين أو أكثر يحاول فيهما محو الأمية البصرية للذوق العام، وستسمع عن فوزه بأكثر من جائزة في معارض كتب الأطفال، وهو مولع بالاتقان، وشغوف بالبحث، مع خطوط مرحة تدغدغك بسمكها وانحنائها وقوتها أيضا. ولعل ما يزكي ذلك الكلام، بابه الشهير الذي بدأه في مجلة «صباح الخير». قبل أن يحولها مفيد فوزي حين تولى رئاسة تحريرها عن مسارها التشكيلي بدرجة كبيرة. وقبل أن ينقل اللباد مجموعات هذا الباب لينشر أخواتها في «روز اليوسف» و«وجهات نظر» و«الهلال»، و«أخبار الأدب»، وقد اتخذ لها عنوانا مثيرًا «نظر»، ذاكرًا بيت الشعر الذي كتبه بشارة الخوري، ولحنه محمد عبد الوهاب:

إنْ عشقنا فعذرنا.. أنَّ في وجهِنا نظرْا

وتراوحت كتابات اللباد بين موضوع وآخر، يتماس كل منها مع الحياة، فما أصدق ما ينطبق اتصال الفن بالحياة على كل ما يكتب؛ سواء عن الرسم والرسامين، أو الخط العربي وتصميم الحروف، أو

إخراج وتصميم الصحف، أو فوتوغرافيا ذاكرتنا المصورة، أو مختلف الملامح البصرية في حياتنا: «للإنسان مخروط محدود للنظر حين يرسله، والمار في شارع رمسيس سواء كان في سيارة صغيرة أو عامة أو على دراجة أو ماشيا (خاصة المتجه إلى ميدان التحرير) لا يمكن لمخروط بصره أن يتجاوز ارتفاع حائط الإعلانات. ويقف ذلك السد القبيح حائلا بين نظر الإنسان والسماء. يقف كشيء فظ وملح وقاهر لا يمكن لأعيننا الإفلات منه. خليط بشع من الألوان والأشكال والوجوه والعبارات هي ترجمة بصرية بارعة للضوضاء الصوتية البشعة في القاهرة، ومعادل دقيق للازدحام والفوضى والتنافر فيها. حتى أن تلك الإعلانات لم تراع في تصميمها وألوانها وجود إعلانات أخرى مجاورة، ولم تضبط ارتفاع نبراتها حتى يمكن لها أن تتميز وسط الزحام البصري القبيح».

وفي سورية، حيث يصبح الفنان ناقدًا والناقدُ فنانا، فنقرأ لأكاديميين كثيرًا من المداخلات والدراسات المنشورة في الجرائد والمجلات، ورصيدا لا بأس به من الكتب المنشورة، سنلتقي مع نموذج نشط في الحركة التشكيلية هو الدكتور غازي الخالدي (مواليد ١٩٣٥)، الذي يضع كتابًا تصدره وزارة الثقافة في سورية هذا العام عن ناظم الجعفري، الفنان الذي اعتكف ٥٣ عامًا ليرسم ستة آلاف لوحة في صمت، ويقيم بها معرضا العام الماضي، يقول الخالدي في مقال نشرته له جريدة الشعب يوم ٨ يناير ١٩٥٦، عن معرض للجعفري قبل اعتكافه: «لوحته الأولى التي تمثل زفافا دمشقيا قديمًا أسماه (حي الشاغور)، فيها ولا شك روحُ الشام القديمة في هذه المجموعة الرائعة من الألوان المنسجمة التي تتناسب تمامًا مع الفكرة. فتشعر وأنت تنظر إليها كأنك في الصباح وقد ذهب أصحاب الدور إلى أعمالهم والطلاب إلى مدارسهم ولم يبق في الحي إلا أم عبده وأم خليل والحاج أبو عمر الذي يقول بصوته المتهدج: صباح الخير أم خليل. وأقصد بذلك لأن اللوحة عامرة بالحياة كشمس مشرقة ساطعة تتساب بين النوافذ لتلف الحي المعتم، وكرجال ونساء يملأون الزقاق حيوية وحركة. وأخشى أن

أقــول إن الدور إلى يمين اللوحة تكاد تقع لأنها مائلة إلى اليســار، اخشى أن أقول هذا لأن الجعفري ربما يرد علي فيقول: هكذا الدور القديمة في دمشــق، وما رســمت هذه اللوحــة إلا لأبين خطر هذا النوع من البيوت».

مــن بين الفنانــين الذين نقرأ لهــم في أكثر من دورية التشــكيلي عزالدين نجيب، وتحت عنوان «شــجرة للحنان وناي للقطط»، يرسم الكاتب ملامح مسيرة الفنانة التشكيلية تحية حليم، في مقال نشرته لــه «أخبار الأدب»، وجاء فيه: «كم من آبــاء روحيين عرفتهم الحركة الفنيــة بمصر، ابتداء من محمود مختار فــي أوائل هذا القرن حتى حســين بيكار لكننا نلتقي اليوم بأم روحيــة للفنانين، تمتلك نبعا من الأمومــة والحنان لا ينضب أبدا، إنها الفنانة تحية حليم التي حرمت من الأبناء ومن حنان الأســرة، فأســبغت فيض أمومتها على أجيال الفنانــين. كما أســبغت ظلال فنها الرفيع علــى حياتنا خلال نصف قرن، وحققت به مكانة سامية في المحافل الدولية. وأصبحت أعمالها ضمــن مقتنيــات المتاحف الكبري فــي العالم، بعد أن عانت قســوة الفقــر في الغربة. وخيانة الزوج وجهامة الوحدة، وأخيرا آلام المرض وشــظف العيش. بلا مظلة تحميهــا من هذا كله غيــر أناملها التي ترســم بها وتعيش من عطائها، وهاهي الأصابع تصاب بالروماتويد، فتقل قدرتها على الإمســاك بالفرشــاة أو على بذل اي مجهود كبير، وقــد تجاوزت الثمانين فتبقي في وحدتها المطلقة بشــقتها بالزمالك مــع قططها التي تطعمها وتداويها بأغلي مما تطعم نفســها أوتعالج أمراضها، أسيرة الخوف من الغد ومن لحظة تتوقف فيها اليد نهائيا عن الإمساك بالفرشاة، لكنها تملك ماهو أكبر من الموهبة والحنان.. تملك الكبرياء وأنفة النفس التي تعصمها من الشــكوى أو الانحناء.. مهما ســاءت الأحوال. وتحية حليم في فنها تســمو كذلك فوق الآلام والمعانــاة، إنهــا تنتمي الى مدرســة الحياة في جوهرهــا وليس في مظهرها .. ترى الوردة بين الشــوك. تــرى المقاومة في قلب الضعف، وأخيرا ترى الحب سلســالا يأتي من أعماق حضاراتنا القديمة، ومن دور الطــين الرابضة في الجبل وفي أحضان قــرى النوبة والصعيد

وفي نضال الانسـان من أجل الخبز والحرية.. ويندمج هذا كله مثل سـبيكة الذهـب المعرّقة في جوف الصخـر، لا يلتقط بريقها إلا من عرف معنى الأصالة ونفاسة التراث القديم.. هكذا اكتسبت لوحاتها قيم التراث، وامتزجت فيها مؤثرات الفن الفرعوني على مقابر طيبة، والفن القبطي علي منسـوجات أخميم، والفن الشـعبي على جدران بيـوت الفلاحين، وهي التي عاشـت طفولتها وشـبابها في القصور المترفة محاطة باللعب الجميلة، وبأنغام الكمان التي تعزفها ألمها».

عاشت الفنانة اليمنية آمنة النصيري حياة الابداع كاملة، وإذا كانت قد بدأت بالسـرد ونشرت عددا من قصصها، بل وأصدرت مجموعة فـي الفن القصصي، فقد كرسـت حياتها فيما بعد للفن وفلسـفته، وشـاركت في الحياة الثقافية اليمنية سواء بالكتابة (صاحبة زاويتين أسبوعيتين هما تشكيل ومقامات اللون في صحيفتي الثورة والثقافية منذ ١٩٩٨) أو تدريس الفن (خاصة بعد إنجاز دراستها لنيل الدكتوراه في فلسـفة الفن من جامعة موسكو حول القيم الفنية والجمالية في فن التصوير الإسـلامي). لكن المشروع الذي لم تكمله - لما يحتاج من تفرغ لا تسـتطيعه - كان برنامجها التليفزيوني (تشكيل) الذي أعدته وقدمته بالقناة الفضائية اليمنية لدورتين خلال العام ١٩٩٨.

في كتاب صدر لها في ٢٠٠٤، بعنوان مقامات اللون، مقالات ورؤى في الفن البصري، تضم عددا من مقالاتها المنشورة عن الفن التشكيلي في الدوريات اليمنية والعربية، تقول: «تجاربُ الفنانين اليمنيين - على تفاوتها - هي في معظمها تعبيرٌ عن واقع وقضايا محلية بلغة تشكيلية مكتسـبة؛ هذه اللغة تمثلت تيارات ومدارس متعـددة، كالانطباعية، والواقعية، والتعبيرية، والسريالية، والتجريدية، وغيرها من الاتجاهات التشـكيلية، التي بدأ ظهورها منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشـرين» وتتوقف آمنة النصيري عند الفنان هاشم علي في حديث عن الحداثة والأصالة بمقابلة نشرتها مجلة «المعرفة» في تعز، اليمن، مايو ١٩٩٣: «إن الإنسـان يُحاولُ أن يكتمل في العمل الفنـي، وهنا بالضبط تكمن رغبة الفنان في التغيير، فهو يتمرد على عالمـه الذي هو عالمنا، عبر إرادة التغييـر تلك التي تبرز في لوحاته،

وهذه الإرادة هي أيضا حرية الفنان التي تتحقق في العمل والتي لاتلبث أن تنتقل إلينـــا نحن؛ فالرائي لا يكتفي بالمتعة الجمالية المتحققة من العمل الفني، وإنما تشدُّه إلى التكوين معانٍ أخرى، فالحركة الداخلية والحالة الوجدانية للشخوص تجعلان المشاهد يندمج معهم متجاوزًا الفضاءات الزمانية والمكانية لعالمه ويعيش للحظات حالة من النشــوة والانعتـــاق، ولا ينتهي هذا التأثير بمجرد الانتهاء من تأمل اللوحة، إذ يبقى فعل التغيير ـ الذي ينتقل بصورة غير مباشـــرة ـ حيًا في داخله يحثه على النزوع إلى عالم أفضل».

ولعلنـــا إذا اختتمنا هذه المجموعة من ملمح حضور الكتابة النقدية التشكيلية في المجلات بالفنان السوري فاتح المدرس نكون قد عوضنا بعض النقص في مصادرنا. ففي يناير ١٩٩٩، نشرت مجلة «العربي» تحت عنوان الوطن بالريشة والكلمة آخر مقالات المدرس قبل رحيله، وقـــدم فيها مرفأ ذاكرة حالـــم بالفنون الجميلة: «الوردة والفراشـــة لا وجود لهما في القرن الحادي والعشـــرين، فالفن كجمال إنســـاني مجسدًا بالأخلاق، والذي نادى به الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد، حتى نهاية القرن التاســـع عشـــر لم يلق آذانا صاغية، إلا من حفنة من الشـــرقيين، أما القرن العشرون فقد اعتمد القتل الجمالي وذبح الحاجة إلى عالم جميل بســـكين إلكتروني ذي فعالية بالغة. لعل بعض قرَّاء هذه الخواطر المعتمة يقولون: كلنا أخلاقيون ونزرع أزهار المحبة والرحمة ونكتب الشـــعر ونعزف على نـــاي الأخلاق. فأجيب: هل زرتم مقبرة جماعية في البوسنة؟ إني أتساءل بحزن عميق: ماذا يســـتطيع الفنان التشكيلي أو الأديب الشـــاعر أو الموسيقار أن يفعل أمام حفرة تحـــوي آلافاً من جثث الآدميين الذين قتلوا رشـــا ودراكا أمام بعضهم البعض؟... إن القرون الأخيرة في حياة الشعوب العربية اســـتطاعت بما تفرزه من التيتم، والترمل، وأطنـــان الألم والقهر أن تحـــرم العرب من لغتهـــم. كيف؟ بتفريغ محتـــوى الكلمة من معناها، خذ مثلا: شـــرف. شجاعة. كرم. علم. حضارة. فن. أدب. موسيقى. عدالـــة. ديمقراطية. جمال. رجولة. عمل.. إلـــى آخر ما هنالك من القيم والشـــروط الاجتماعية البناء أصبح لها معـــان أخرى مغايرة،

ولا أريد أن أشير إلى توابيت هذه الكلمات التي كانت رموز حضارة رائعة».

وبعد فإن هذه الفقرات اليسيرة التي اخترناها من معين لا ينضب من الكلمات التشكيلية التي ميزت حضور الفن التشكيلي لمقالات في النقد وسير الفنانين وتعبيرهم عن حيواتهم ومجتمعاتهم، يمكن أن نلخص محتواها في إخلاص دعوتها إلى التعريف بالفن، والفنانين، وشيوع القيم الفنية بالمجتمع، ونقدها للخروج، كما أنها التزمت في مجملها التبسيط والشرح، خروجًا بها من معطف الأكاديمية المغلق بأزرار الفن والمغلف بأسراره. كما أن كثيرًا منها كان بمنزلة تقديم - بشكل ما - للحياة التشكيلية المعاصرة، وتوثيقا لفعالياتها، كون الفن مرآة تطور المجتمع، وأحد التروس المرتبطة بآلياته وحركاته.

ملامح حضور الفن التشكيلي - الإخراج الفني للمجلات الثقافية

كنا عددنا دخول أعمال الفنانين إلى المجلات - بشكل عام - أحد ملامح حضور الفن التشكيلي في الصحافة، ولكننا هنا نشير إلى ملمح مهم مماثل، وهو أن دخول هؤلاء لم يقف عند حدود المساهمة بالرسم أو الكتابة وحسب، في بعض المجلات العامة والمنوعة التي تشتمل على أبواب ثقافية متخصصة، بل تخطاه إلى تقديم ما يمكن أن نسميه رؤية تشكيلية في المجلات الثقافية.

وإذا كان الإخراج الصحافي يدين للفنانين والمصممين الكبار، ومنهم في مصر عبدالغني أبو العينين، وحسن فؤاد، وغيرهما، فإننا سنقصر تناولنا في هذا الصدد على العبور بتجارب عدد من الفنانين التشكيليين الذين تولوا إخراج عدد من المجلات الثقافية المتخصصة في الوطن العربي، والتي عرفنا تجارب عديدة لها، منها تجربة رمسيس يونان في «التطور»، وحسن سليمان في «الكاتب»، ونصر الدين طاهر في «العربي»، ومجدي نجيب في «الدوحة»، ومحمود عبد العاطي في «نزوى»، وحلمي التوني في «وجهات نظر»، ومحيي الدين اللباد في «كتاب في جريدة»، ومحمد أبو طالب في «الهلال».

وسنكتفي هنا بتجربة فنان، خاصة وأنه أعاد تقديمها بعد أكثر

مــن ثلاثة عقود فـــي معرض خاص. ففي الســتينيات عاش الفنان التشــكيلي حسن ســليمان تجربة تصميم «الكاتب»: مجلة المثقفين العرب. كان الفنان عائدًا من ميلانو، وقد نهل من مادة سيكولوجية البعــد الرابع في الفراغ المعماري، وبقدر ما بهره أســتاذ المادة التي درســها بكلية (بريرا)، وضعت الدراســة يده على مفاتيح كثيرة كان من شأنها أن يفهم الكاتب والفنان والمصمم لغة اللون ومغزى الفراغ، فقدم أعمالا كثيرة، سماها بالتمارين البصرية، واختار منها ثمانين عمــلا ليقدمها في معرضه (كولاج وتجريد)، يرصد للســنوات من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٧.

وتضم قصاصات مــن أوراق الجرائد، خلفيات من أوراق متعددة الخامـــات والألوان، أشــكال تحاور الفراغ بليونتهـــا وانحناءاتها، لا يتركها الفنان سابحة تســقط في عتمة الفوضى، بل تمتد إليها يد الهندســة المؤنســنة لتســتريح قصــاصة فوق أخرى، يبحث الفنان عن أســاس لعمله، وهو يخشـــى التكرار، فيعتمد التبديل والتوفيق، ليعيــد إنشـــاء الكائنات الورقية فـــي لوحته، لكنه يــدرك أنه رغم اطمئنـــان هذه القصاصات فـــي أماكنها، إلا أنها مـــا زالت تمنحه الشعور بإمكانيات لانهائية لتســكينها في حيز ما، هذه هي وظيفة الفن.

في كل عدد من أعداد الكاتب ســنجد نحو ١٥ رسما للفنان حسن سليمان: رســوم لقصائد، وموضوعات، وجوه حالمة وأخرى صارخة، أيقونـــات بالحبر الثقيل أو الخفيـــف، وإذ خرجت الأصول إلى النور، فذلــك لنضع أيدينا على بعد جديد يحاول اللون الإفصاح عنه. ربما هـــو لون الســـعادة الممتزج بالحزن، خاصة في ذلـــك الداكن الهادئ الذي يغمر الفضاء.

ومع رســومه، وعزفه الإخراجي، كان حسن سليمان يكتبُ رؤاه في المجلة، فنقرأ له بتاريخ سبتمبر ١٩٦٩: «الفن القديم – لأصالته – كان ينبع من القوى الداخلية للإنســـان، أمـــا ذلك النوع من الفن الحديث فهو يعتمد اعتمادًا كليا على القيم التشـــكيلية الخارجية والمادية، إذن فلا مســتقبل له، فهو ليس أكثر من تقليد، أو إظهار لأشـــكال القديم

في إطار الحديث. والقديم بدوره عاش واكتنز بذور المستقبل الدائمة لأنه ارتبط بواقع الحياة وبمشاكل الإنسان».

مجلات الفن التشكيلي

بعد أن تعرفنا في الأوراق السابقة على بعض أهم ملامح حضور الفن التشـكيلي في الصحافة الثقافية المتخصصة والعام على حد سواء، بدءًا بالتشـكيل الخطي، والرسوم الشارحة والكاريكاتورية، والمقالات التي تناولت بالنقد أعمال الفن وسـير الفنانين، وانتشـار الرسـوم الشارحة والكاريكاتورية، ونشر الأعمال الفنية المحلية والعالمية، وبعد أن تطرقنا إلى تجربة إخراج الفنانين للمجلات الثقافية المتخصصة، سنتحدث في هذا القسم عن المجلات المتخصصة بالفنون التشكيلية، فيما يمثل نظرة موجزة لنماذج عنها.

وبعـض هذه المجـلات حديثٌ، لا يتجاوزُ عمـره العامين، والبعض الآخـر عتيدٌ، عنيـدٌ، عانى من توقـف عن الصدور مـرة، أو أكثر، والبعـض الثالث توقـف إلى الأبـد، رغم جدية المشـروعات وجدة الموضوعات. ومن المؤسـف أن ندرة المراجـع، وموت الذاكرة الورقية في بعض المكتبـات، تخفي عنا مجلات متخصصة نادرة، ومنها على سـبيل المثال: الفنان، التي أصدرها قبل سـتة عقود محمد صدقي الجباخنجي، ومجلة «الظلال» التي صدرت في عام ١٩٣٦، وكنا ذكرنا مجلة هدى شـعراوي «المصرية» التي صدرت بالعربية والفرنسـية، وخصصـت صفحات كثيرة للفنون التشـكيلية ومنها فن السـيراميك، الذي أنشـأت ورشـة للحفاظ عليه، وفن النحت الذي أسست جائزة للمبدعـين فيه. والمثيرُ الذي يجب أن نشـير إليـه، أن الفن العربي بشـكل عام، والفنون الإسـلامية بشكل خاص، لم يتم التعبير عنها في دوريات عربية وحسـب، بل رأينا حضورًا لافتًا لمجلات رصينة تتناول ذلك باللغة الإنجليزية أيضا.

مجلات الفن التشكيلي - نماذج - المجلة الدولية للثقافة العربية

المجلة الدولية للثقافة العربية The International Magazine of Arab Culture هي بين هذه المجلات التي عُنيت بتقديم الثقافة

العربيـــة - العراقية على الأغلب - لقـــراء اللغة الإنجليزية. المجلة التي صدرت في مطلع الثمانينيات في لندن كان ينشــرها المركز الثقافي العراقـــي، وبين نحو ٢٠ موضوعًا في كل مرة من المرات الســت التي تصدر فيها كان للعراق، بحكم النشــر، والفن العراقي نصيب الأسد على صفحاتها. وقد عمل الفنان ضياء العزاوي؛ الذي ســنجد اسمه قاسمًا مشتركًا في كثير من الدوريات المعنية بالفن التشكيلي، مصمما ومخرجا لهذه الدورية الملونة في أغلب صفحاتها وذات القطع الكبير (٦٨ صفحة).

وهكذا نعيش في جنبات العراق بين عمارة بيوت بغداد الشــرقية، وتقاليــد التواصل مع القديم فــي المنزل العراقــي المعاصر، وفنون المنمنمات الآسيوية، وقوة وبلاغة أعمال الفنان العراقي كاظم حيدر، وتاريخ صناعة الفخــار بالعراق، والمخطوطــات والمقتنيات المتحفية العراقية، ومعارض الفنانين العراقيين، قبل أن ننتقل إلى زيارة لتلمسان في الجزائر، أو نقرأ قصيدة لنزار قباني في سورية، أو نعيش مع صور لمعرض نادر عن صور فوتوغرافية شــآمية يزيد عمرها على القرن، أو نتوقف عند غلاف لنبيل شحادة في الأردن، أو نقرأ ثلاث قصائد مترجمة للشــاعر الكويتي أحمد مشــاري العدواني. ومصير UR أو مجلــة The International Magazine of Arab Culture هو كمصير معظم مجلات الفن التشكيلي؛ الغياب.

مجلات الفن التشكيلي - نماذج - جلجامش

بالإنجليزية أيضا، وعلى نفس درب التخصص في الثقافة والفنون العراقية، صدرت مجلة GILGAMESH في بغداد، عن دار المأمون للترجمة والنشــر، بوزارة الإعلام والثقافة بالعراق. الفارق في جودة الطباعة كان شاسعًا، فقد جاءت جلجامش متواضعة الطباعة، كبيرة الحرف الذي يخفي رداءة التقنية، مهتزة الصور، إلا أن محتواها كان زاخرًا.

ففي عدد واحد، يمتد على مساحة مائة صفحة من القطع الكبير، ســنقرأ عن أعمال خالد الجادر، في ملف شامل لرسومه التي تعكس

البيئة العراقية، وسـيكرس ملف آخر لنازك الملائكة تكتب فيه سلمى الخضراء الجيوسي عن النسـاء في شعرها، ويرصد محمد خضير رؤيتهـا للمدينـة، بينما يسـتغرق باقي الملف في ترجمات لشـعرها وقراءات لأعمالها، قبل أن يكتب عبد الله إبراهيم عن تداخل الأنساق في القصة العراقية، مع مواضيع «أدبية» أخرى، فيما يحضر المسرح وبعض الفنون غير التشكيلية في باقي صفحات العدد. ولم يكن حظ جلجامش أسعد من زميلتها في عاصمة الضباب.

مجلات الفن التشكيلي. نماذج. بريزم

مجلة متواضعـة الإمكانيات، يصدرها بالإنجليزية قطاع العلاقات الثقافيـة الخارجية بوزارة الثقافة، في مصـر، وتترجم مقالات عن الثقافـة والفنون في مصـر. وقد بدأت تصدر ضمن هذه السلسـة ترجمات لبعـض الكتب المتخصصة في الفن التشـكيلي، عن أعلام الفن المصري، باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

مجلات الفن التشكيلي. نماذج. الفنون والعالم الإسلامي

مجلـة أخرى باللغة الإنجليزية هي التي تصدرُ أربع مرات سـنويا (وأحيانا تصدر عددا مزدوجًا لتقلص عدد الإصدارات السنوية) هي ARTS Of The Islamic World وهـي التي صدرت في ١٩٨٣ متزامنة مع سابقتها The International Magazine of Arab Culture ولكن بنظرة أوسع لتشمل فنون العالم الإسلامي.

إن نظـرة على محتويات الأعداد المتوافـرة لدينا من هذه الدورية بـين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٥ نرى حرفية أعلى، ومقالات أشـمل، ومدى جغرافيا أكثر اتساعًا، وكتابًا باللغة الإنجليزية كلغة أم. وفي عدد واحد سنقرأ عن مجموعة الصباح (من الآثار الإسلامية) في متحف الكويت الوطنـي بقلم Huon Mallilieu، ثم نتأمل الترميمات في شـارع المعـز لدين الله الفاطمي بالقاهـرة الفاطمية، في مقال كتبه John Rodenbeck، ثـم نتعرف إلى كيفية اقتناء منتجات الحرف اليدوية في المملكة العربية السعودية كما رصدها John Topham، وفنون

الزخرفة المعاصرة في العمارة المغربية اليوم التي صورتها Shirly Kay، والفنون الإسلامية في ماليزيا يقدمها Yatim Othman، وهواية جمع العملات المعدنية بين المتعة والاستثمار يشرحها Saleem Shahed، والمنظور الإسلامي من وجهة نظر معمارية يقدمها Michael Darby، والأعمال الفنية العظيمة في الفنون والعمارة الإسلامية كما يرصدها J. R. Gibson، فضلا عن سيرة ذاتية لفنان، وأخبار عن معارض، وملخصات وعروض لإصدارات في الفن، ورسائل القراء والمحررين، وإعلانات تتوزع على بعض الصفحات في مجالات الفنون ذاتها. وتمتدح افتتاحية Arts Of The Islamic World وهي تقدم لمجموعة الشيخ ناصر صباح الأحمد الصباح وزوجته الشيخة حصة الصباح، مسعى راعيي المجموعة في أن تكون تعليمية، وتصف الاستقبال الحافل لهذه المقتنيات التي انتقلت لاحقا إلى دار الآثار الإسلامية.

مجلات الفن التشكيلي. نماذج. معمار: العمارة والتطور

نضيف إلى الدوريتين اللتين أشرنا إليهما، وتصدران باللغة الإنجليزية، دورية أخرى لا تقل أهمية، ولا اعتناء بالفنون المعمارية في المدن العربية والحواضر الإسلامية، وهي دورية MIMAR. Architecture in Development التي تصدر في سنغافورة، كفصلية للعمارة الدولية في الدول النامية في ٨٢ صفحة، نصفها بالألوان.

وقد تنوعت موضوعات معمار تنوعًا هائلا، واتضح فيها مدى ارتباط الفنون بالحياة، واتكاء الحياة على الفنون، وخاصة أن مسابقتها المعمارية - على سبيل المثال - يفوز بها معماريون ومصممون من تركيا وفنزويلا وهونج كونج، والصين، وفرنسا، وكندا، بهيئة تحكيم من إيطاليا ومصر وسنغافورة، وبسؤال معماري في تصميم منزل برؤية فنية تتكيء على التاريخ، وتنظر إلى المستقبل.

ومن بين موضوعات MIMAR. Architecture in Development نقرأ: فنادق آسيا ذات الخمس نجوم، أعمال

الفنان الأردني جعفر طوقان، إعادة التأمل في عمارة المستعمرات، البيوت التقليدية في الكويت، دليل مدينتي القاهرة والرباط، بالخرائط وصور الآثار، العمارة المغربية المعاصرة، وصناعة النسيج في داغستان. والمعمارية الإقليمية.

مجلات الفن التشكيلي. نماذج. فنون مصرية

في قطع باذخ كبير، يستعيد روح كتب الفن، صدرت مجلة «فنون مصرية»، عن وزارة الثقافة في مصر (يوليو ٢٠٠٤)، وهو الصدور الذي وصفه رئيس تحريرها منير عامر بأنه مغامرة مصرية، تؤكد القدرة على عناق البساطة مع الرصانة، والجمال مع المعرفة، وتتجول فيها العين من خلال اللوحات، وكأنك تزور معرضا مطبوعًا يضم بعضا مما هو جوهري في الفنون الرفيعة. فتكتب سناء البيسي، مستشار التحرير، باسم «زهر المشمش» عن رحلتها مع زوجها الفنان الراحل منير كنعان، وتخصص الصفحات الأكبر للفنان الذي تسلم الإزميل (من أجداده الفراعنة) محمود مختار، وتقرأ سمحة الخولي أستاذة الجيل سيرتها الذاتية بينما يرسمها الفنان عبد العال حسن، ونتوقف في زيارتين، الأولى للملك توت عنخ آمون وآثاره خارج مصر، والثانية داخل المتحف القومي بالإسكندرية، بينما نطالع حدائق ليست خيالية، تجسد اللون الأخضر في القاهرة، وكأنها قاهرة غير التي نعرفها. بينما يزور كاتب. بغير مناسبة، وبصور قليلة الجودة على هذه الطباعة الباذخة. عمارة الفنان أنطونيو جاودي في برشلونة.

قبل عام من صدور هذه الدورية كنتُ سألتُ الفنان فاروق حسني وزير الثقافة عن عدم إقدامه على إصدار دورية ثقافية، فساق مبررات ملخصها أن القاهرة (الصحيفة الأسبوعية) والمحيط الثقافي (المجلة الشهرية) تقدمان. حاليًا. ما يكفي القارىء العام، وأنه لو فكر في إصدار دورية، فيجب ألا تقل عن جودة المجلات التي يراها في فرنسا وإيطاليا، محتوى وطباعة. وقد صدق الوزير في شأن الطباعة، أما المحتوى النخبوي في أغلبه، فلن يصل للقارىء

العام، لسبب رئيسي هو غلاء سعر المطبوعة، وعدم توفرها للبيع، إذ إنها ستتاح لمن يترددون على المكتبات العامة، وهو ما أشك في تحققه فلــن توجد ميزانية تكفي لأن يحتفظ بمجلة للاطلاع الدائم في كافة مكتبات مصر، التي فقدت روادها لسبب أو لآخر. وتصدر المجلة في ١٦٤ صفحة بالألوان.

مجلات الفن التشكيلي. نماذج. الحياة التشكيلية

حين عادت «الحياة التشكيلية» الفصلية المتخصصة التي تصدرها وزارة الثقافة الســورية إلى الصدور في ربيع ٢٠٠٤، كان ذلك عيدًا للتشــكيليين، دفع رئيس تحريرها الدكتور عبد الله الســيد، إلى أن يُعلــي من نبرة التفاؤل والتحذير فــي آن واحد في افتتاحيته، التي تحدث فيها عن التصاق التشكيل الوافد بقشرة خارجية لثقافة فئة محدودة، بعــد أن اصطدم بأرضية ومجتمعات تحمل ثقافة بصرية تراثيــة، غلبت بها الثقافة الصوتية - الســمعية، مما عد التشــكيل لــدى البعض، لغة أجنبية، يقــول: «إن الكتابة عن الفنون البصرية، بدأت بصحافة الصحف ومجلاتهــا، فكانت ذات طابع إعلامي، أو تبشــيري، أو تشجيعي، ثم انزلقت هذه الكتابات، إلى التبرير بحكم الفكــر العام الســائد، وذلك مع بروز أســماء لمبدعين كانوا فاعلين في النشــاطات المحلية، وبعض النشاطات الدولية، واتسموا بنشاط إجتماعي وإعلامي واســعين، مما جعلنا بعيدين عن الفكر النقدي، الذي لا يولد الفكر التشكيلي والجمالي إلا في رحابه. وقد نتج عن ذلك أن وظف النقد كهامش للتشــكيل أو تابع له، فابتعد النقدُ عن التصور، الذي يجعل منه مجالا مســتقلا فــي مجاله، مادته الخام الظاهرة التشــكيلية، وهدفه اكتشــاف النظم الجمالية والتعبيرية والاتصالية، وتفســير هذه النظم، التي مارســها الإنسان، منذ كان يســكن كهوفه»، ويرى الســيد أن «الحياة التشــكيلية» ستحاول أن تساهم في استدراك ذلك.

والمجلة الفصليــة - التي عادت للصدور مع عددها رقم ٦٨ - تأتي في مائة وأربع وستين صفحة، ببعض الملازم الملونة، وبتبويب طموح

بــين علوم الفن وأبحاثه، وحوار مع الفنانين ورؤى لســيرهم، فضلا عن بانوراما موسعة من المتابعات المحلية والعربية والعالمية.

مجلات الفن التشكيلي - نماذج - الشموع

فــي مــارس (آذار) ١٩٨٦، أصدرت الدكتــورة لوتس عبد الكريم العدد الأول من مجلة تحمل اسم غاليري الفنون الذي ترعاه بضاحية المعــادي في القاهــرة: الشــموع. وكانت لوتس تطمح فــي أن تكون (الشــموع) التي خصصتها للفنون والآداب إضاءة وسط ظلام بصري غشــي القاهرة وفوضى عشوائية استباحت نمط الحياة بها، وتصدر شــعارها (من أجــل قيمة الجمال في الأدب والفــن والحياة) غلاف عددها الأول الذي تــرأس تحريره الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين، وأشرف عليه فنيا الرسام حلمي التوني.

كانت قضيــة المجلة كما تقول لوتس عبد الكــريم: محاربة القبح والركاكة فــي جميع المجالات والدعوة إلى تلــك القيم الجمالية في الشارع والبيت وشتى نواحي الحياة، من منطلق أن الجمال ليس سلعة كمالية يمكن الاســتغناء عنها، فالانســان الأول قبل بناء أي حضارة، كان أول ما صنعه هو إناء من الطين الجاف يأكل فيه، وهو ما لبث أن مــد يده ينقش على هذا الإناء زهرة.. أو يضع عليه بضعة خطوط.. بفضل حاســة الجمال التي هي جزء من إنسانيته. وكتب أحمد بهاء الديــن في ذلك العدد: هنــاك عين تنظر إلى كــوم الزبالة ولا تراه، إنهــا عين تعودت أن تــرى القبيح، حتى ألفته، وتعــودت عليه. وهذا مثلا يفســر ثلاثة أرباع النفايات التي يلقيها الناس في غير مكانها، وملايــين الإهمالات الصغيرة في حــق النظافة التي هي من الايمان وفي حق البيئة وكما نطالب الدولة بمسئوليتها نحو الذوق العام فإننا لابد أن نطالب أنفســنا بنفس المعيار. ولا يمكــن أن يقوم في مدينة مهملــة (متحف) ممتاز وعلى أعلى مســتويات الذوق والجمال! هذا انفصام في الشــخصية لا يستمر طويلا، فإما أن يهتم نفس الانسان برفع مســتوى المدينة، وإما أن يمتــد تلوث المدينة إلى داخل المتحف، فيتحول إلى مخزن كريه!

مسيرة المجلة تمثل صراعا ضد كل التيارات التي تحارب الجمال، وإذا كانت أسئلة العدد الأول عن فن البورتريه الذي يقاوم الاندثار وسط صخب الفن الجديد، الذي يتهمه باستنفاد أغراضه، فإن الحركة التشكيلية في مصر والقيم الأصيلة التي ميزتها، كانت من بين القضايا التي تبنتها (الشموع).

مجلات الفن التشكيلي ـ نماذج ـ فنون عربية

إذا شئنا أن نضع أيدينا على أبرز التجارب العربية في إصدار مجلة فنية تشكيلية متكاملة، فإن العين لن تخطيء مجلة «فنون عربية» التي كانت تجربة مميزة في الثقافة العربية، صدر عددها في لندن سنة ١٩٨١.

ففي مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير، صدرت «فنون عربية» كمجلة فكرية تعنى بالفن في الوطن العربي، يرأس تحريرها المبدعُ جبرا إبراهيم جبرا، ومدير التحرير فيها الشاعر والناقد التشكيلي بُلند الحيدري، ومدير التصميم الفنان ضياء العزاوي.

المساهمون في «فنون عربية» يعكسون هذا الهوى الإنساني العالمي للفن التشكيلي الذي لا يعترف بالحدود الجغرافية، فمثلما يكتب فيها نقاد من مصر وسورية، ويرسم لها فنانون من فلسطين ولبنان، ويراسلها نقاد وفنانون من العراق والمغرب، نجدها تستضيف ريشة جوسير جونز، وقلم كاندنسكي، واستبصار من محمود درويش وطاهر بنجلون ويوسف الصائغ لرسوم العزاوي باسم «النشيد الجسدي»: قصائد مرسومة لتل الزعتر.

ويمكن رصد ملامح تجربة «فنون عربية» فيما يلي:

● حرصها على ألا تجعل من الفن مادة جاهزة، بل هو جزءٌ من الحياة اليومية، يتصل بها وتتصل به، ولذلك كانت متابعتها ـ بشفافية وشمول ـ للكتب في مجال الفن التشكيلي، واستبصار أكثر من رأي حولها، مثلما كان حرص «فنون عربية» على التجول حول العالم بقلم عربي، يقرأ معارض الإنسانية ليضعها في قالب لغوي أنيق وبسيط يحمل في طياته بلاغته.

● كان لتداخل الأجناس الإبداعية دوره في مجلة تشكيلية يشرف عليها ويساهم فيها أدباء بارعون، ومترجمون مبدعون، وشعراء نابهون. لذا بات من الطبيعي أن نقرأ فيها كُتّابًا عن الفن أسماء مثل:

جبرا إبراهيم جبرا، بلند الحيدري، شــربل داغر، مي مظفر، عباس بيضون، كمال بلاطة.

● أكــدت «فنــون عربية» على دور الثقافة الســينمائية في تعميق اللغة البصرية، والتذوق الفني لدى قارئها، لذا عرضت أبوابا ثابتة في نقد الفن السابع، بين مخرجين يتحدثون عن أعمالهم، مثل الياباني أكيرا كيروساوا، أو نقاد ســينمائيين يتناولون لغات الضوء والظل والسينوغرافيا والإخراج في أعمال خالدة على الشاشة الفضية.

● كان للترجمــة دور كبيــر في رفد «فنون عربيــة» بكثير من مقالاتها، وبات من الطبيعي أن نقرأ نصف عدد صفحات المجلة لمســاهمين أصليين أو مترجم عنهم.

ومــن الجدير بالذكر أن نذكر كيف أن بصمــة الفنان ضياء العزاوي لم تخطئها العين، في هندســة المساحات اللونية، وتوزيع الصور، والاستفادة مــن تقنيات الطباعة، حتى باللونين أو أحادية اللون، وهي أمور جعلت من «فنون عربية» أميز المجلات المتخصصة بصريا في معالجة الفنون الجميلة، على صفحات دورية مطبوعة. ثم جاء توقف «فنون عربية» كسابقاتها، من تجارب طموحة، ليؤكد على جسامة الصعوبات التي تعترض هذه المجلات المتخصصــة، وأنها لم تعد مشــروعًا فرديا على الإطــلاق، كما أنها يجب ألا تكــون مجرد مغامرة محكوم عليها بالفشــل. ولذلك وجب أن نقرأ في خلاصــات هذه الورقة الأســباب الحقيقية وراء مــوت أو اضمحلال دور مجلات الفنون التشكيلية في وطننا العربي.

خلاصات

الظاهرة المحبطة المرتبطة بالمجلات الثقافية بشكل عام، ومجلات الفن التشكيلي على وجه الخصوص، هي أنها مجلات قصيرة العمر، ما تلبث أن تختفي لأسباب كثيرة، أهمها:

● عدم توفر تمويل مادي لاســتمرار مطبوعة لا يشتريها أحد، إما لغلائهــا، أو لنخبويتها، أو لانتشــار ثقافة الأميــة البصرية، أو لغلبة الفنون الأخرى ووسائطها.

● غيــاب الدعــم المادي الذي يضمن اســتمرار طباعتها بشــكل يفي

موضوعاتهــا حقها تقنيــا، وفنيا، نظرا لطبيعة هذه المجلات التشــكيلية المتخصصة، وضيق دائرة المهتمين بها.

● تبدأ الأمية البصرية في المؤسســات التعليميــة، بكُتب لا تعير الفن صفحاتها، تنافي الذوق الســليم ولا تســتند على أبجديات التصميم، ولا تراعــي أصول الفنون في عرض المواد التعليمية، مما ينشــئ مجتمعًا لا يعنى بالفنون الجميلة.

● غياب النقد التشكيلي الجاد، في ظل انغماس الكتاب بالإعلام العام، بعيدًا عن التلقي والتناول المتخصص. وهكذا تقلصت الصفحات التشكيلية المتخصصة في الإصدارات اليومية، واحتلت الإعلانات مكان الصفحات الأســبوعية التشــكيلية الإحتياطية دائمًا، بعد أن أصبح النقد التشكيلي على صفحــات المجلات والدوريات، وفي الإذاعــة والتليفزيون والقنوات الفضائية مجــرد تغطية لافتتاح المعارض التــي يؤمها غير المتخصصين مــن الأصدقاء الذين يهمهم الظهور أمام الكاميرا لتوجيه التحية الأخوية للفنان.

● غربة الفنون اليوم، عن التناول الحياتي للواقع، والإغراق في الإغراب، والتجريد غير الممنهج، الذي يقفز إليه ضعاف الموهبة دون درس تشكيلي أو ضــرورة فنية، ممــا قلص الحضور البصري للوحــة والفن في الحياة اليومية للمتلقي، الذي هو أهم عناصر جمهور المعرض والمجلة.

● توقــف المجلات واحدة بعد الأخرى يرمــي بثقله على القائمين على الفنون بأنها مشاريع خاسرة، وهي نظرة تضر بتلقي الفنون، بشكل عام.

● قلــة العناوين المترجمة والمؤلفة في مجال الفن التشــكيلي في وطننا العربي.

إن علاج أوجه القصور هذه ســتؤدي إلى عالم جديد، يمكننا أن نطالع فيــه أكثر من مجلة معنية بالفنون التشــكيلية، في أكثــر من بلد عربي، وربما تســتعيد «فنون عربية» وشــقيقاتها الروح، فتعيد إلينا بعض الأمل في صحافة تشــكيلية متخصصة. كما نتطلع فــي الوقت الذي تكثر فيه المسابقات أن تنظم مسابقة متخصصة في مجال النقد التشكيلي، تشترك فيها كافة الأجيال فضلا عن إدخال النقد التشكيلي ضمن مناهج التربية الفنية.

التراث في المجلات والصحف العربية

د. خالد عزب *

هناك اهتمام خاص بالتراث بمفهومه الشامل في المجلات العربية، وإن كنا نقسم هذه المجلات من حيث التناول كما يلي:-

● مجلات ثقافية عامة: حيث تخصص العديد من المجلات الثقافية كالعربي والهلال ودبي الثقافية ونزوي بعض أبوابها أو محاورها لقضايا تراثية.

● مجلات تراثية عامة: تصدر هذه المجلات لتغطي قضايا تراثية وتعرض لأنشطة تراثية، مثل مجلة تراث التي تصدر عن نادي تراث الإمارات، ومجلة آفاق الثقافة والتراث التي تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، أو قد تكون متخصصة في موضوع تراثي بعينه كمجلة المتحف العربي التي كانت تصدر عن دار الآثار الإسلامية في الكويت وتوقفت عن الصدور، ومجلة الخط العربي التي تصدر في دبي.

● مجلات تراثية متخصصة: وهي مجلات علمية متخصصة، أبحاثها تتميز بأنها أكاديمية بحتة، مثل مجلة معهد المخطوطات العربية، ومجلة

كاتب من مصر

الرزنامـــة التي تصدر عن دار الكتب المصرية وحوليات المعهد الفرنســـي للآثار الشرقية ومجلة أدوماتو والحوليات الأثرية السورية.

غير أن تناولنا للموضوع سيبدأ من الخاص إلى العام، أي من المجلات الأكثـــر تخصصاً إلى المجلات العامة التـــي تضع التراث وقضاياه ضمن اهتماماتها.

أولاً فإنني أدعوكم جميعاً إلى مشاركتي في مجلتين سعيت سعياً حثيثاً لإصدارهما:

- الأولى هي مجلة «مشـــكاة» الحولية المصرية للآثار الإسلامية التي تصدر عـــن المجلس الأعلى للآثار في مصر، ويرأس تحريرها الأســـتاذ الدكتور زاهي حواس، وأتولى سكرتارية تحريرها، المجلة تهدف إلى نشر الدراسات حول العمارة والفنون الإسلامية، ونتائج أعمال الحفر الأثري في الدول العربية، لقد كان تخصيص مجلة عربية للآثار الإسلامية تتيح فرصة جيدة للمهتمين والمتخصصين التواصل مع علم الآثار الإســـلامية الذي ما زال هناك الكثير من علامات الاســـتفهام حوله، ولحسن الطالع فقد صدر العـــدد الأول من هذه الحولية في نوفمبر ٢٠٠٦، أي من قبل شـــهر من انعقاد مؤتمرنا هذا، ســـيجد القارئ فيه تركيـــزًا خاصًا على الآثار الإسلامية في اليمن، نظراً لأن هذا البلد العربي يزخر بتراث بكر ما زال محتفظاً بقسماته الأصلية دون تدخل حداثة العمران فيه، خاصة في مدن حيس وزبيد وصنعاء والحديدة وذي سفال وغيرها.

- المجلة الثانية هي مجلة « أبجديات» وهي مجلة علمية متخصصة في تاريخ الكتابة في العالم تصدر عن مركز الخطوط والنقوش والكتابات في مكتبة الإســـكندرية، أرأس تحريرها، وهي تنشر أبحاثًا باللغات العربية والانجليزية والفرنســـة والألمانية، صدر أول عدد منها في أكتوبر ٢٠٠٦، وهي تعد أول مجلة تراثية عربية تنفتح على العالم كله، إذ لا يعني التراث هنـــا تاريخ الكتابة في الوطن بل في العالم كله من الصين حتى الولايات المتحـــدة الأمريكية، هذا يعني تفاعلاً علميًـــا وثقافيًا بين الوطن العربي ومختلف حضارات العالم في شـــأن هو منطلق أي حضارة، وهو الكتابة أداة تعبير عن الإنســـان وماهيته ومشاعره وأحاسيسه ومعارفه وعلومه، الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإنسانية، منذ عصور ما قبل التاريخ

وحتى اليوم.

إن هــذا يقودنا إلى المجلات التراثيــة المتخصصة في الوطن العربي. هذه المجلات الراســخ والمســتمر منها يصدر عن هيئات ودوائر الآثار، ومن أبرزها ســومر حولية الآثــار العراقية، الحوليــات الأثرية العربية السورية وهي مجلة تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه، مجلة الأطلال وتصدر عن وكالة الآثار والمتاحف في المملكة العربية الســعودية، حولية الآثــار المصرية وتصدر عن المجلس الأعلى للآثار في مصر وتهتم بالآثار المصرية القديمة، هذه الدوريات العلمية المتخصصة في الآثار الســابق ذكرها، تعــد دولياً من أبرز المجلات الأثرية العربية، توقف بعضها ردهاً من الزمن لكنها مستمرة في الصدور، ويأخذ عليها ضيق دائرة توزيعها، إذ إن جلها إما تقدم على سبيل الإهداء أو التبادل ولا تطرح للبيع بصورة موســعة، ما يجعل دورها محدوداً في خدمة علم الآثار، وهو ما ينعكس حتى الآن في رؤية المجتمعات العربية الناقصة لهذا العلم، غير أن حدثاً مهمًا طرأ ســنة ٢٠٠٠م حين صدرت مجلة «أدوماتو»، وهي مجلة نصف ســنوية تعنى بآثار الوطن العربي، انفردت عن غيرها بكونها تصدر عن مؤسســة خاصة بتمويل خاص هي مؤسســة عبــد الرحمن الديري في الرياض، خرجت خارج ســياق المجلات المتخصصة في الآثار، يعود هذا إلى جودة إخراجها، انتقاء الموضوعات المنشــورة فيها بدقة، حيويتها في عــرض أحدث الإصدارات وأبرز المؤتمرات فــي مجال الآثار، أما الأهم فيها فهم هيئتها الاستشارية التي تجاوزت حدود الوطن المحدود بحدود، إلى العالمية، فقد ضمت خبراء من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا والنمســا وألمانيا، فضلاً عن العديد من الخبراء العرب، انعكس هــذا على موضوعاتها إذ تتنوع ما بين عصور ما قبل التاريخ حتى القرن التاســع عشر الميلادي، ومن موريتانيا وحتى الكويت، فضلاً عن أنها تعد أفضل المجلات العربية الآثارية توزيعاً.

وفي مصر حدثت طفرة في المجلات المتخصصة أخيراً، هذه المجلات التــي بدأت في الظهور في القرن التاســع عشــر وازدهرت في النصف الثاني من القرن العشــرين، غير أننا نســتطيع أن نتوقف هنا عند مجلة الرزنامة.

بصدور مجلة الرزنامة عن دار الكتب والوثائق المصرية، تكون دار الكتب قد عبرت عن شخصيتها المستقلة ودورها في الحياة الثقافية المصرية، فبعد سنوات من التبعية المجحفة للهيئة المصرية العامة للكتاب، استقلت دار الكتب وبدأت أولى خطواتها نحو التحديث، الكل انتظر ما ستقدمه الدار إلى أن بدأت تتبلور روح الدار وتأخذ قالبًا جديدًا، لكن هذه الشخصية كانت في حاجة إلى ما يعبر عنها، إلى أن كانت الرزنامة، ورزنامة كلمة فارسية تعني دفتر اليومية، وهي توحي بما تضمه الدار من آلاف الوثائق التي تعبر عن الحياة اليومية في مصر، صدر عددان من المجلة ومازال الثالث في الطريق.

العددان حملا العديد من الموضوعات الجيدة، يستوقفنا منها محاولة إعادة الروح إلى علم الأرشيف، فها هو دكتور محمد خضر في أول عدد يقدم مقدمة لعلم الأرشيف، ليكون القارئ على إحاطة به، وهو ينطلق في هذه المقدمة من التنظيمات الأرشيفية وأهميتها، فترتيب الأرشيفات هو أحد المظاهر الرئيسية لإدارتها، وهذا في رأيه صحيح بالنسبة للترتيب المادي للمواد على الرفوف، ولكنه من ناحية أخرى جزء مهم من الإدارة العقلية للمعلومات التي تحتوي عليها تلك المواد. هذه الإدارة العقلية هي التي يهتم بها الوصف الأرشيفي بصورة رئيسية. وعلى أساس معرفة وتحليل الهيكل الإداري للمؤسسة التي أنتجت هذه التراكمات، ومعرفة الأقسام المختلفة يتكون لدينا نظام لاسترجاع المعلومات والاستفادة من الأرشيف. إذا خرجنا من هذا الإطار التقديمي فسنجد دراسة نقدية في العدد الثاني لواقع علم الوثائق يهدف إلي دراسة ونقد وتحليل الوثائق في مصر قدمها مجدي جرجس، انطلق فيها من افتراض أن علم الوثائق يهدف إلى دراسة ونقد وتحليل الوثائق موضع الدراسة لتمكين إتاحتها باعتبارها شواهد تاريخية، وفي رأيه أن هذا يستلزم طرح مجموعة من الأسئلة تصب جميعها في إطار نقد المصدر. وانتهي في دراسته إلى عدد من الحقائق:

- عدم وضوح الفروق الدقيقة بين منهج وعلم الوثائق، ومنهج علم التاريخ، جعلت أدوات المنهجين تتداخل، وبالتالي اتجهت معظم دراسات المشتغلين بالوثائق إلى التاريخ أكثر من الوثائق، حتى أصبح من الصعب

التمييز بين دور المؤرخ ودور الوثائقي في كثير من هذه الأعمال. وأهملت قضايـا منهـج علم الوثائق وأدواته، في حين أن التاريخ في حاجة ماسـة إلى الدور الذي يمكن أن يقوم به الوثائقي.

- الربـط بين علم الوثائق ومفهوم الصحـة، كان مرحلة تاريخية معينة في عمـر هذا التخصص تجاوزها منـذ فترة طويلة، وطور العلم أدوات دراسـة الشكل لتسـاير غاياته الجديدة، والتي تصب أساساً في كيفية تقديم الوثائق كشـواهد تاريخية، بينما ما زالت طريقة دراسـتنا للشكل تكبل انطلاق منهج دراسـة الوثائق العربية، ولم تقدم نتائج مهمـة - حتى الآن - يمكن أن تخدم التاريخ.

هـذا الجدل الذي أثاره مجدي جرجس مسـبوقا بمقدمـة للدكتور محمد خضـر، يخرج مجلة الرزنامة من طور تقديم مادة أرشـيفية جامدة، إلي طور النقد ومجابهة الحقائق الواقعية، وهو جدل ساحتنا الثقافية في أمس الحاجة إليـه، فهو يخـرج عن طور المجلة العلمية الجامعيـة الجامدة جمود العلم في جامعاتنـا، إلى طور التجديد والبحث عن ماهيـة العلم؟ إن ما نأمله من هذه المجلة أن تفتح دفتيها للباحثين العرب لكي تكون المجلة العربية للوثائق، ولتفتح آفاقًا جديدة للتواصل بين العرب ومصر.

الحديـث هنا قـد لا يكون مكتملا بغيـر العروج على مجلة آفـاق الثقافة والتـراث التي تصدر عن مركز جمعـة الماجد للثقافة والتراث، والتي ما زالت تصـدر منذ ١٤ عاما، صـدرت تحت إدارة عبد الرحمن فرفـور، ثم الدكتور عـز الديـن زغيبة، وهي من حيث المنهـج تعد متأثرة بكل مـن مجلتي المورد والدارة، وإن تميزت عنهما بالاستدراكات والدراسات النقدية والتحليلية، مثل الاسـتدراكات والملاحظات التي أعدها محمد سـليمان النفيسي ونشرت في العـدد ٤٥ غير أن هذه المجلة يعوقها عـدم طرحها للبيع للجمهور، إذ يقتصـر توزيعهـا على الاشـتراكات و الاهداءات والتبادل، وهـو ما يجعل الحكم على مدى نجاحها مقصورا على الباحثين والدارسين ممن تصل إلى أياديهم المجلة، مما جعلها حبيسـة المكتبات والجامعات دون أن يكون تأثيرها واسع الانتشار، يتناسـب مع تنوع كتابهـا، فقد قدمت هذه المجلة بصفـة خاصة إلى باحثين واعدين من الجزائر والمغرب والعراق.

وتوجـد مجلتان فقط في الوطن العربـي تراثيتان حققتا نجاحاً لدى

القراء العاديين والمتخصصين وهما مجلة المورد العراقية والدرة السعودية ويرجع نجاح هاتين المجلتين إلى ثلاثة أسباب هي:-

١- جودة الإخراج، فنادراً ما نرى مجلة تراثية تهتم بالشكل العام لها. وبتنسيق صفحاتها الداخلية، وبالاهتمام بها كمطبوعة ذات مستوى ثقافي راق.

٢- رخص سعرهما وهو ما جعل القراء العاديين يتهافتون على هاتين المجلتين بالرغم من طابعهما الأكاديمي، وهذا يعني وصول مادة تراثية جيدة إلى القراء تساهم بشكل جدي في إحياء التراث الإسلامي.

٣- جودة الموضوعات المختارة، وإن كنا ننصح المشرفين على هاتين المجلتين التخفيف من الاحتفاء بالمناسبات الإقليمية المحدودة على صفحات المجلتين، لكي تكونا مجلتين للتراث في العالم الإسلامي تحظيان بمصداقية مطلقة لدى القراء. وترجع جودة موضوعات المجلتين إلى كونهما مجلتين محكمتين علمياً، وخروج مجلتين محكمتين خارج ردهات الجامعات إلى القراء لهو أمر جدير بالدراسة والتأمل والتقليد.

المورد

المورد مجلة فصلية تراثية، تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة العراقية، تهتم بالدراسات التراثية الخاصة بالحضارة الإسلامية، وكذلك تولي النقد العلمي والتعقيبات على الموضوعات المنشورة أهمية خاصة، ولعل أكثر ما يشد الانتباه في هذه المجلة أمران هما:-

١. اهتمامها بنشر مخطوطات محققه على نحو ما نشر في المجلد ١٦ العدد ٢/٤١-١٩٨٧م مثل:- كتاب السلاح، لأبي سعيد الأصمعي والذي نشره محققاً د.محمد جبار المعيبد، ومخطوط المساحة الأكر بالأكر للسجزي، تحقيق د.علي اسحق عبد اللطيف.

٢. تخصيص أعداد من المجلة لموضوعات محددة تدور حولها العديد من الأبحاث كتخصيص عدد عن الخط العربي، وآخر عن أدب الرحلات.

الدارة

الدارة مجلة فصلية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز آل سعود

بالرياض، وهي تعتني بصفة خاصة بكل ما يتعلق بشـبه الجزيرة العربية وبصفـة عامة بكل ما يتعلق بالوطن العربي من موضوعات، وهذه المجلة لاقـت نجاحاً لنفس الأسـباب التي كانت سـبباً في نجـاح مجلة المورد العراقية، ونجحت الدارة في جذب العديد من أسـاتذة الجامعات للنشر فيها لكونها مجلة محكمة.

مجلات تراثية عامة:

يعتبـر هـذا النوع مـن المجلات هو الأكثـر صعوبـة، إذ إن إعدادها يتطلب كتابا يجمعون بين التخصص الدقيق والعرض البسـيط الرشيق للموضـوع، بين الرصانة العلمية وروح التفاعـل مع القارئ، بين الجدية وبث التشـويق للعين سـواء بالصورة الجيدة أو الإخراج الراقي. كل هذا يجعل من هذا النوع من المجلات صعبة المنال ونجاحها أمراً يصعب على الكثيريـن، لذا هي تمثل المشـكلة الكبرى في الوطـن العربي إلى اليوم، لعلني هنا استحضر مجلتين توقفت أمامهما كثيرا، هما مجلة الموسيقي التي صدرت سنة ١٩٣٥، وعرفها القائمون عليها بأنها لسان حال المعهد الملكـي للموسـيقي العربيـة، رأس تحريرها الدكتور محمـود الحفني، الذي اسـتطاع أن يثير قضايا عديدة في إعداد المجلة كتدوين الموسيقي العربية، والنشيد القومي المصري والأوبرا الايطالية في القرن التاسع عشر، وقـد يدهش المرء حينما يعلم أن هـذه المجلة جذبت بعض المعنيين بها، على الرغم من تخصصها، هذا يعني أن هذه المجلة جذبت بعض المعنيين بها، على الرغـم من تخصصها، كما أن المـادة المقدمة جذبت القارئ، فأجبرت المعلن على أن يقترب منها راغبا في الوصول لهذا القارئ.

تنوعت مثل هذه المجلات في النصف الأول من القرن العشـرين في مصر فظهرت مجلـة الضياء كمجلة علمية ومجلة الهندسـة ومجلة العمارة التي ظهرت سنة ١٩٣٨ م، كأول مجلة معمارية عربية متعددة الموضوعات، اهتمت بدراسة التراث المعماري العربي والمصري بوجه خاص، غير أن تغير الأوضاع في مصر حال دون استمرار هذه المجلات بعد العام ١٩٥٢م.

هنـا تبرز العديد من التجارب الناجحـة في الدول العربية كمجلة التراث الشـعبي التي تصدر في العراق، والتي تعد ارسـخ المجلات العربية في هذا

المجال، ومجلة التراث الشعبي التي تصدر في الدوحة عن مجلس تعاون دول الخليج العربي، لكنني سأتوقف قليلا عند تجربة لم يكتب لها الاستمرارية، هي تجربة مجلة المتحف العربي التي صدرت العام ١٩٨٧ م عن دار الآثار الإسلامية في الكويت واستمرت حتى العام ١٩٩١م، كمجلة تراثية ربع سنوية متخصصة في علم المتاحف والعلوم المساعدة لها، كالفنون وتاريخ الخط والعملات والعمارة.. الخ، هذه المجلة التي ندر أن يوجد نظير لها في اللغة العربية، مثل توقفها صدمة شديدة، خاصة أن مثل هذه المجلات منتشرة في العالم كله، ولليونسكو مجلة متخصصة المتاحف تترجم في القاهرة إلى اللغة العربية، وتعد حاليا هي المرجع الرئيسي في هذا المضمار.

أما ما يلفت الانتباه انه في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ظهرت مجلة من أروع وأفخم وأكثر المجلات التراثية التي تناولت التراث العربي والإسلامي في ألمانيا، حتى انه لا يوجد مهتم بهذا التراث في أوربا والولايات المتحدة وفي كبريات المتاحف والمكتبات إلا واقتني مجلة فكر وفن التي صدرت في ألمانيا برعاية وإشراف كل من ألبرت تايلا وآنا ماري شيمل، تعد هذه المجلة مرجعا أكاديميا على الرغم من بساطة موضوعاتها، التي كان يشترط فيها دائما أن تكون جديدة، ولعل تخصص آن ماري شيمل هو الذي انعكس بصورة رائعة على المجلة فكانت تختار الكتاب بنفسها وتدقق وتمحص فيما ينشر، هنا يظهر الفارق بين إدارة التحرير المتخصصة وبين الاختيار العشوائي لإدارة التحرير في المجلات المتخصصة، فعلى الرغم من احتفاء المجلات المصرية بألفية القاهرة، فإن العدد الخاص الذي صدر عن فكر وفن في العام ١٩٦٩ يعد أكثرها دقة وسموا، وتنوعا وحرصا على أن يقرأ القارئ فيه ما هو جديد، على نحو موضوع مصر في لوحات بأول كلية، وزخارف قباب القاهرة، فنون إسلامية في مجموعات ألمانية.

مجلة تراث:

تعد مجلة تراث التي تصدر عن نادي تراث الإمارات مجلة فريدة إذ تتناول التراث بمفهومه الشامل، بدءاً من العمارة والمخطوطات وقضايا اللغة العربية، فضلاً عن إثارة حوار بين القراء والباحثين، غير أن جودة المجلة شابها في بعض الأحيان أن بعض الكتاب كانوا دون المستوى

المطلوب، فضلاً عن اهتزاز أعداد المجلة صعوداً وهبوطاً في السنتين الأخيرتين، فلجأ بعض الكتاب إلى استنساخ موضوعات من شبكة الانترنت، أو جمود المجلة على موضوعات سبقتها غيرها من المجلات من حيث التناول، فأصبحت في بعض الأحيان تكراراً لما سبق نشره في مجلات أخرى، وأخيراً رأت إدارة نادي تراث الإمارات مراجعة سياسة المجلة التحريرية، فبدلاً من صدورها شهرياً ستصدر بدءاً من العام ٢٠٠٧ ربع سنوية، وستعتمد على الدراسات فضلاً عن الاستطلاعات و الابتكار في طرق التناول بدلاً من استنساخ الموضوعات، إذا نجحت هذه السياسة ستكون هذه المجلة فريدة من نوعها في الوطن العربي.

مجلة امكنة:

أمكنة فكرة جديدة ولدت بالإسكندرية العام ١٩٩٩. ولأنها سكندرية النشأة لم تحظ كغيرها من المجلات الثقافية التافهة بأي عناية تذكر. فكثيرة هي المجلات الثقافية التي تصدر إما ممولة أو عن مؤسسات رسمية، لكن معظمها سيختفي دون أن يؤسس لرؤية جديدة. أمكنة تؤسس لرؤية متكاملة تقوم على تقديم صور للتحول من خلال المكان والزمان في الحياة الثقافية بأسلوب سلس رشيق، فهي تهتم بالكتابات التي تتناول المكان: ثقافته، وتاريخه، الناس الذين صنعوا هذا التاريخ، سواء بإرادتهم أو بحكم وجودهم به. والخصوصية الفنية لهذا المكان، التي تكونت من ممارسات عادية لم يكن مقصوداً بها الفن من قبل، ولكنها أصبحت فناً الآن بحكم الظروف الجديدة التي تجعلنا نعيد ترتيب إحساسنا بالفن. المهم أن تتسم تلك الكتابات بتحليل أدبي لهذه النقاط التي تم ذكرها أو غيرها من النقاط اللانهائية التي يمكن أن تعرف المكان.

المجلات الثقافية والتراث

يجيء التراث ضمن أحد اهتماماتها، وهذه المجلة هي مجلة الفكر الكويتية، والتي خصصت عددًا من أعدادها كأعداد خاصة بموضوعات تراثية، كعدد دراسات في التراث وعدد المدينة الإسلامية وهي تنشر بخلاف ذلك ضمن أعدادها موضوعات تتعلق بالتراث الإسلامي وتتميز

هذه المجلة بانتشارها عن المجلتين السابقتين.

وتتميز المجلات الشهرية الثقافية بأن قاعدة قرائها أوسع من قراء المجلات الفصلية، وهذا يرجع إلى البساطة في تناول موضوعاتها عن المجلات الفصلية، فضلاً عن تنوع هذه الموضوعات.

وقد برزت العديد من المجلات خلال ربع القرن الماضي، ولعل أكثرها شهرة مجلة العربي والتي أتاحت لها الإمكانات التي وفرتها لها حكومة الكويت انتشاراً واسعاً، وكان لها اهتمام خاص بالتراث منذ أول عدد منها، على سبيل المثال سلسلة مقالات كتبها المرحوم الدكتور عبد الحليم منتصر عن علماء المسلمين مثل جابر بن حيان والرازي الحسن بن الحميثم ، ابن زهر ، ابن وحشيه وتبرز إمكانات «العربي» في الاستطلاعات المصورة التي يقوم بها محرروها ومنها استطلاع للكاتب المعروف فهمي هويدي بعنوان، الله في الصين، وغيرها من الاستطلاعات التي تتعلق في بعض الأحيان بالشعوب الإسلامية وتراثها ومن أبرز من قاموا بهذه الاستطلاعات محمود عبد الوهاب، سليمان الشيخ ومصطفى نبيل الهيثم، أشرف أبو اليزيد، ومحمد المنسي قنديل. وتنشر المجلة كذلك دراسات تتعلق بقضايا تراثية.

الفيصل

منذ أن صدرت مجلة الفيصل السعودية في عام ١٩٧٧م، وهي تولي التراث أهمية خاصة، وتجلى هذا في سلسلة من الموضوعات عن مدن العالم الإسلامي التراثية غير أن هذه السلسلة قد توقفت فجأة دون سبب واضح، بالرغم من أنه يوجد في العالم الإسلامي ١٢٥ مدينة تراثية. فإن معظم المجلات ومنها الفيصل لا تتناول سوى ٣٥ مدينة تراثية فقط مشهورة، والباقي مهمل، ومن المدن المشهورة التي تتناولها المجلات بصفة مستمرة حتى حفظ القراء أسماء معالمها القاهرة - فاس - بغداد- الكوفة- تونس- مراكش- غرناطة- دمشق- القدس- حلب وغيرها من المدن المهملة، مدن الجمهوريات الإسلامية في إفريقيا والتي توجد في تشاد، مالي، النيجر، وفي آسيا مدن باكستان- بنجلاديش - الهند - عمان- اليمن- ماليزيا. واهتمت الفيصل أيضاً بالتراث العلمي

الإسلامي فنشرت عن كيفية مواجهة المسلمين لمشكلة المياه؟ وعن عباقرة العلوم التطبيقية في الحضارة الإسلامية العربية واهتمت بابتكارات ومخترعات علماء المسلمين على نحو الموضوع المنشور عن مبتكر المربع السحري، ثابت بن قرة. ومنذ تولي الدكتور زيد بن عبد المحسن الحسين رئاسة تحرير هذه المجلة خلفاً للأستاذ علوي طه الصافي، اهتم بالتعريف بالمخطوطات غير المنشورة فخصص لذلك ظهر غلاف المجلة لنشر أول صفحة من كل مخطوط يصاحبها تعريف بمؤلف هذا المخطوط ومحتوياته وأهميته ومكان حفظه وهو أمر قل بل ندر أن تهتم به أي مجلة أخرى .

المنهل

منذ أن ظهرت المنهل كأول مجلة ثقافية بالمملكة العربية السعودية، وذلك منذ سبعة وخمسين عاماً وهي تهتم بالتراث الإسلامي اهتماماً خاصاً وذلك انعكاساً لاهتمامات صاحبها ورئيس تحريرها المرحوم عبد القدوس الأنصاري الذي ألف عدداً كبيراً من الكتب التراثية، وكان بالمجلة ملحق سماه المشرفون عليها «عالم المخطوطات» «يهتم» بالتعريف بالمخطوطات ونشر فهارس المخطوطات غير أن هذا الملحق قد توقف دون سبب واضح بالرغم من أنه كان يميز هذه المجلة. واهتمت المجلة أيضاً بنشر الدراسات التراثية وذلك في باب ثقافة ودراسات بالمجلة، واهتمت أيضاً بالمدن الإسلامية وبصفة خاصة القدس في باب السائح، وتصدر المجلة أعداداً خاصة يتناول كل منها موضوعًا واحدًا بأقلام الباحثين مثل العدد الذي أصدرته عن الهجمة الفكرية والتصدي الحضاري وهو يتناول الفكر الوافد إلينا والتعريف به، والتصدي الحضاري له المتمثل في وسائله المتاحة من فكرية وعملية وأصدرت المجلة كذلك عدداً عن المدينة المنورة تتناول المدينة تاريخها وموقعها وآثارها وما قاله الشعراء في وصفها.

واهتمت المجلات الدينية بالتراث الإسلامي وذلك جزء من رسالتها، ومن هذه المجلات: مجلة الأزهر التي استكتبت الدكتور أحمد فؤاد باشا أستاذ الفيزيقا بجامعة القاهرة ليكتب عن التراث العلمي الإسلامي،

وقد جمعت المجلة بعض مقالات الدكتور أحمد باشا في كتاب صغير صدر في رمضان ١٤١٢هـ- إهداء من المجلة لقرائها. وتتناول مقالات هذا الكتاب تصحيح الآراء الشائعة حول سبق الغرب في رصد ظاهرة الجاذبية ووضع نظريات الميكانيكا وعلم المناظر وطرق البحث عن المعادن وهي كلها كان المسلمون هم أصحاب السبق فيها. ومن المجلات الدينية الأخرى التي تهتم بالتراث الإسلامي مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، ومجلة منار الإسلام الإماراتية.

الصحف والتراث:

صحيفة الحياة

خصصت صحيفة الحياة صفحة يومية للتراث حاليا أسبوعية مما يجعلها تتميز عن باقي الصحف العربية. واستطاعت أن تجذب عدداً كبيراً من المتخصصين للكتابة في هذه الصفحة، منهم على سبيل المثال: الدكتور صلاح الدين المنجد والدكتور فيليب حتي ومحمود السيد دغيم وغيرهم كثير.

وقد تنوعت الموضوعات التي تتناولها هذه الصفحة وإن ركزت بصفة خاصة على العمارة والفنون الإسلامية بالدرجة الأولى غير أن يؤخذ على موضوعات العمارة والفنون الإسلامية هو التركيز على بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن ومصر)، وذلك في موضوعات العمارة، بينما يحظى الخزف بالعناية من قبل كتاب هذه الصفحة دون غيره من الفنون الإسلامية، أما بالنسبة لأسلوب كتابة هذه الموضوعات فهو يتميز بالبساطة وإن كان هناك تضارب في استخدام المصطلحات المعمارية والفنية الدالة على العنصر المعماري والفني وهذا راجع إلى عدم الاتفاق حتى الآن بين الدول الإسلامية على هذه المصطلحات.

- لقيت الرحلات وكتب الجغرافيا اهتماماً من كتاب هذه الصفحة واهتمت بصفة خاصة بالرحلات المجهولة بالنسبة للقراء، على نحو ما نشر في عدد ١٢ أغسطس ١٩٩٢م تحت عنوان « الرحالة العرب وأوربا في القرن التاسع عشر» وذلك بقلم الدكتور يوسف الشويري الأستاذ في جامعة أكسترا، وهو يرى أن رحلات العرب في القرن ١٩م

إلى أوربا كانت رحلات تلقينية هدفها اختراق أسرار عالم جديد. وقد تبع هذا الموضوع تعليق من الباحث السوري محمود الدغيم، فقد ناقشه في نقاط عدة لعل أبرزها اعتبار الدكتور الشويري أن أدب الرحلات العربية...ظاهرة جديدة في الفكر العربي افتتحها عصر النهضة في القرن التاسع عشر، وقد رد عليه الباحث بأن هذا الاعتبار أمر غير مقبول، بل هو أمر تفنده وقائع التراث المخطوط والمطبوع. وأما عن تصحيح المعلومات الجغرافية فقد نشرت الحياة موضوعاً عن « أقدم خريطتين لأمريكا رسمهما بحار مسلم وهو البحار التركي الريس بيري قائد البحرية العثمانية في مصر خلال القرن ١٠هـ/١٦م، وقد نشر هذا الموضوع بمناسبة مرور ٥٠٠ عام على الاكتشاف الرسمي للأمريكتين.

– ولدراسة الاستشراق ورجاله أهمية خاصة لدى المهتمين بشئون التراث، ولذا نشرت موضوعات عدة حول الاستشراق والمستشرقين، ومنها دراسة محمد السيد دغيم عن كونت سويدي حمل اسم عمر وغاص في عيون التراث العربي، وهذه الدراسة يسبقها تعريف بتأريخ الاستشراق في السويد وبحياة عمر السويدي وأهم مؤلفاته ورحلاته، والاستشراق في السويد لم يحظ بعناية الباحثين ولذلك فإن هذا الموضوع له أهمية خاصة.

– اهتم كتاب هذه الصفحة أيضاً بالدراسات التاريخية الحضارية وهو جانب مهم في مثل هذه الصفحات على نحو الدراسة التي نشرها زياد الكردي عن بريد العرب في الجاهلية والإسلام وذلك في عدد ٥يناير ١٩٩٢. وناقشت هذه الصفحة العديد من القضايا الفكرية على نحو الدراسة التي نشرها ماري ألماظ شهرستان عن الدولة عند ابن خلدون، وهو يتساءل هل تحتوي النظرية الخلدونية على رؤية واضحة للدولة المعاصرة؟، وقد أثبتت أن النظرية الخلدونية تحتوي على هذه الرؤية.

– الاهتمام بالكتب التي تصدر حديثاً في الأسواق، و«الحياة» لكونها صحيفة دولية فهي تتميز بكثرة كتابها الذين يجعلونها تلاحق حركة الطباعة والنشر في العالم وذلك في كل من باريس ولندن والقاهرة ودمشق وبيروت والرياض وغيرها من مدن العالم. وهذا يجعل قراء الصفحة على معرفة تامة بالكتب المنشورة حديثاً، وفي الوقت نفسه

على علم بملاحظات المتخصصين عليها من خلال ما ينشــر من تعليقات على هذه الكتب بالصفحة.

ملحق ألوان من التراث

كان هذا الملحق يصدر كل يوم خميس بصحيفة المدينة المنورة السعودية وهــو يتكون من أربــع صفحات، ويرأس تحريــره الدكتور محمد يعقوب تركستاني، وهذا الملحق يتميز بموضوعاته التي تأخذ طابعاً أكاديمياً في أغلب الأحيان، أما الموضوعات التي يتناولها هذا الملحق فهي:-

- المــادة الإخبارية، وهي مادة تراثية يقــل الاهتمام بها في الصحف الأخــرى لكونها لا تهم غير المتخصصين، وإن كانــت تضع القارئ دائماً موضــع المتابع لمــا يجري في أوســاط المتخصصين، وتتنــوع هذه المادة بــين أخبار ما يحقــق من مخطوطــات وأحدث المطبوعــات، والندوات والمؤتمرات.
- ولكي يجعل الملحق قراءه على صلة دائمة بما ينشــر من موضوعات تراثيــة في الصحف والمجلات الأخــرى أوكل الملحق إلى اثنين من كتابه وهم محمد أيمن حســين وحامد الشيخ حمزة إنجاز فهرس أسبوعي لما ينشر من موضوعات تراثية بهذه الصحف والمجلات، ولكي يتابع القارئ الرسائل العلمية التي نوقشت في الجامعات العربية والعالمية والتي تتعلق بالتراث أعد فهارس نشــرها على حلقات متتابعة للرسائل التي أجيزت بهــذه الجامعات وفي مجال الفهرســة أيضاً حرص الملحق على نشــر فهرس سنوي لما ينشر به من موضوعات.
- يولي ملحق التراث أهمية خاصة لعرض المخطوطات التي لم تحقق ولم تنشــر من ذي قبل وفي هذا تعريف بتــراث الأمة الذي ما زال جزء كبير منه محفوظاً في المكتبات العلمية.
- التعريف بالمؤسسات التراثية في العالم الإسلامي وذلك بسرد تاريخها وأنشطتها المختلفة، من ذلك تعريفه بجمعية دائرة المعارف العثمانية وهي من قلاع الثقافة الإسلامية في الهند، والتعريف بالعلماء.
- مناقشــة العديــد من قضايا التــراث وذلك في بــاب عنوانه «ومن المناقشــة ينبثق النور» ومن هذه المناقشــات مناقشة أيمن رشدي سويد

لرسالة دكتوراه قدمها الباحث محمد سيدي محمد الأمين عنوانها «كتاب الجامع في القراءات العشر، تصنيف أبي معشر» وحاول الكاتب أن يثبت أن الكتاب الذي حققه الباحث ليس هو جامع أبي معشر، وكثيراً ما أثارت الموضوعات التي ينشرها الملحق الباحثين فردوا معقبين عليها على صفحاته في باب أسماه المشرف على الصفحة تعقيباً على تعقيب وهو باب يثري دائرة الحوار بين الباحثين والقراء. ونفتقد نحن حالياً مثل هذا الباب والذي يؤدي في غالب الأحيان إلى ما نستطيع أن نسميه معارك علمية أو مبارزات علمية تنشط الحياة الفكرية الراكدة في صحفنا منذ أمد بعيد.

- عرض للرسائل العلمية التي تناقش وتعرض نتائج هذه الرسائل العلمية وكذلك خصص الملحق باباً تحت عنوان من ثمرات المطابع لعرض أحدث الكتب التي تصدرها المطابع.

وهذه الموضوعات هي أبرز ما في هذا الملحق بالإضافة إلى موضوعات أخرى مماثلة لما تم ذكره من موضوعات تنشر في صفحة التراث بصحيفة الحياة الدولية.

صوت الكويت

بالرغم من قصر المدة التي صدرت خلالها هذه الصحيفة من أكتوبر ١٩٩٠ م إلى نوفمبر ١٩٩٢، فإنها اهتمت بقضية إحياء التراث الإسلامي فخصصت له صفحة أسبوعية كل يوم أربعاء، واهتمت هذه الصفحة بالعديد من الموضوعات التراثية على غرار صفحة التراث بصحيفة الحياة.

وقد اهتمت هذه الصفحة بالمخطوطات والتعريف بها كالتعريف بمخطوط «الخزل والدأل بين الدور والدارات والديرة» لياقوت الحموي وكذلك اهتمت هذه الصفحة بالتعريف بمراكز التراث كالتعريف الذي نشر من خلال حوار مع محمد إبراهيم الشيباني مدير مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت.

واهتمت هذه الصفحة أيضاً بالعمارة والفنون الإسلامية، وكذلك بالدراسات التاريخية والحضارية، بالإضافة إلى الدراسات الفكرية

مما جعلها من حيث المستوى العلمي تتقارب مع مستوى صفحة التراث بالحياة، إلا أن صحيفة الحياة تميزت عنها باتساع مساحة النشر، وكثرة الباحثين الذين يكتبون لها، وكنتيجة طبيعية لذلك تعددت الموضوعات. ويبقى لنا أن نذكر أن الصحف الثلاث السابقة هي صاحبة السبق في الاهتمام بقضية إحياء التراث الإسلامي، وهذا لا يعنى عدم اهتمام الصحف الأخرى، فصحف الشرق القطرية، والشرق الأوسط الدولية، والاتحاد الإماراتية وغيرها كثير تهتم بالتراث ولكن هذا الاهتمام محدود ويقتصر على نشر موضوع من مدة لأخرى، وهذا ما يجعلنا ندعوها إلى أن تخصص ولو صفحة أسبوعية للتراث الإسلامي. بل إن الصحف المصرية تكاد تهمل كلية التراث الإسلامي على صفحاتها، وهذا ما يجعلنا ندعو صحيفتي الأهرام والأخبار على سبيل المثال إلى تخصيص ملحق أسبوعي بإحداهما للتراث الإسلامي.



المحور الثالث

مجلات المغرب العربي دفاع عن اللغة والهوية

- عبد الرحيم العلام
- د. الحبيب الجنحاني

المجلات الثقافية ودورها في تحرير الإنسان المغربي والحفاظ على هويته

عبد الرحيم العلام *

أشكر مجلة «العربي»، من خلال ندوتها السنوية المتميزة، على كونها حفزتني، مرة أخرى، على خوض مغامرة البحث والحفر في ذاكرة المجلات الثقافية العربية، في المغرب هذه المرة، بعد تجربتين سابقتين مع البحث في مجلة «العربي»، في إطار الندوة نفسها ودورها في «الحوار الثقافي بين المشارقة والمغاربة» وفي «دعم الثقافة العلمية وإشاعتها».

كما كان لاقتراح اللجنة التنظيمية لموضوع هذا البحث أثره الكبير في تفتح مداركي على مرحلة تاريخية وثقافية أساسية في تاريخ المغرب الحديث، في جانبها الثقافي تحديدا، وكذا الوقوف عن كثب عند دور المجلات الثقافية في عملية الإصلاح في بعده الشمولي.

١- في الحاجة إلى صحافة ثقافية بالمغرب:

لقد ظهرت المجلات الثقافية في المغرب بموازاة مع ميلاد الصحافة بشكل عام، وذلك بحكم تضافر مجموعة من العوامل الداخلية، تاريخية

* باحث، وناقد أدبي من المغرب

وسياســية وثقافية واجتماعية بالأساس، ساهمت في تغذية الشعور السـائد آنذاك بضرورة خلق منابر صحفية وثقافية، اعتبارا لهامش الحرية الذي كان قد بدأ يتسـع، وخصوصا في شمال المغرب، حيث كان يوجد المستعمر الأجنبي الإسباني، مقارنة بما كانت تعرفه المناطق الأخرى التي كان يوجد بها المستعمر الفرنسي من تضييق الخناق على حرية التعبير والصحافة، إلى جانب تضافر عوامل خارجية، ساهمت هـي أيضا فـي انتعاش حركة الصحافة في المغرب بشـكل عام، من بينها على الخصوص التأثير القوي للصحافة المشـرقية، من صحف ومجـلات ثقافية وأدبيـة ودينية، وما كان لها مـن دور نهضوي بارز في المشـرق وفي المغرب على حد سـواء، كمجلات: «المنار» و«المؤيد» و«الهـلال» و«المقتطف» و«المصـور» و«العرفان»، وجريـدة «الأهرام» اليومية و«السياسـة» و«الفتح» الأسبوعيتين، حيث ازداد انتشار هذه الصحافـة الوافدة فـي المغرب، وبرز تأثيرها الكبيـر في إذكاء روح الوعي القومي والشـعور الوطني، وكلها عوامل متداخلة ساهمت في ميلاد حركة نشـيطة في مجال الصحافة السياسية والثقافية بشكل عام في المغرب، على الأقل منذ الثلاثينيات من القرن الماضي.

وقد كانت الحاجـة إلى الصحافة عموما، في تلـك الفترة، دافعا أساسـيا لمطالبة بعض رجالات الفكـر والوطنية في المغرب بـ «إيجاد صحافة مغربية»، تعبر عن «الرأي المغربي»، فأسسـوا لجنة للمطالبة بالصحافة العربية بالمغرب، بعد أن رفضت السـلطات الاسـتعمارية الفرنسـية الترخيص لسـعيد حجي بتأسـيس مجلة ثقافية سماها «مراكش»، حيث كان التداخل آنذاك في الأدوار والوظائف قائما بين الجرائد والمجلات على حد سـواء، وذلك بمثل التداخل القائم أيضا بين الصحافة الثقافية والصحافة السياسية، مما جعل تلك المجلات والجرائد مـرآة للحركة الاجتماعية والإصلاحيـة والدينية في تلك الفترة.

يمكن القول إن الفترة الاسـتعمارية التي عرفها المغرب، منذ بداية القرن العشرين، قد اتسمت بازدهار الصحافة الثقافية بشكل لافت، كمـا هو الحال فـي مجمل البلدان العربية الأخرى، وهو ما يعكسـه

عدد المجلات الثقافية الصادرة آنذاك، ويذكرنا المغرب، في ذلك، بما عرفه لبنان على مستوى ولادة المجلات الثقافية وتزايد النشاط الثقافي في بداية القرن العشرين، بحيث لم تكن الحروب عائقا أمام ظهور مجلات جديدة وتزايد دورها الإصلاحي والتنويري، إذ استطاعت تلك المجلات أن تملأ الساحة الثقافية بدورها الإصلاحي ودعواتها التوعوية وأسئلتها وإبداعها أيضا..؛ كما شكلت متنفسا مهما لشريحة المثقفين والمصلحين آنئذ للتعبير عن آرائهم ونشر دعواتهم وتأجيج حملاتهم وخطاباتهم حول مناهضة الاستعمار ومحاربة الأمية والجهل وسوء الفهم الديني.

٢- انخراط المجلات الثقافية بالمغرب في عملية الإصلاح:

عندما بويع المولى عبد الحفيظ في بداية القرن العشرين، نشط الدستوريون ممن وضعوا ميثاقا قوميا ودستوريا، اشترطوا فيه على الملك عددا من الشروط التي تحفظ للأمة هيبتها وكرامتها وسيادتها، وتشكلوا في إطار جماعة من الشباب الناهض، حيث كانوا ينشطون في إطار جمعية سرية لتنوير أذهان المغاربة، ومقاومة الاحتلال الأجنبي، في حين كانت جماعة منهم، ومن غيرهم، تتحرك أقلامها بالكتابة في الصحف الحرة التي أنشئت بطنجة، وخصوصا «لسان المغرب»، وفي جريدة «الحاضرة» التي كانت لسان الوطنيين التونسيين.

وقد نقلت مجلة «المغرب الجديد» في أحد أعدادها فقرة من إحدى مقالات «لسان المغرب»، وما يهمنا نحن من هذه الفقرة هو التشديد على انخراط المجلات الثقافية في المغرب، منذ تلك الفترة، في التعريف بحركة الشباب الناهض ذي الاتجاه القومي المضبوط، والإشعار بكل ما يدعو إلى الإصلاح، وإلى نشر المعارف وحرية العمل والفكر وإجبارية التعليم ومنح الأمة نعمة الدستور ومجلس النواب.

كما كان لحدث صدور الظهير البربري عام ١٩٣٠ تأثيره في الاستعانة بالكتابة في المجلات الثقافية للتحسيس بأهمية مقاومة السياسة البربرية الجديدة التي تريد الحماية الفرنسية ترسيخها، بالتفريق بين البربر من ناحية وباقي المغاربة من ناحية ثانية، ومن

بين من تعـرض لهذا الحدث الخطير، ما كتبـه أحد الوطنيين وهو عمار عبد الجليل المعروف باسـمه المستعار (أبو عزة الزموري)، في قوله، فـي مجلة «المغرب»: «إننا بمقاومتنا للسياسـة البربرية نريد تقريب عناصر الشعب المغربي وتوحيده، نريد محاربة مبدأ التجزئة المكيافيلي الذي ينشره بتفنن ممثلو فرنسا الحربيون والدينيون، نريد أن نمنع خلق كتلتين ذاتي ثقافتين ومصالح متناقضة خلقا اصطناعيا، نريـد أن نكفل حرية الضميـر والتفكير للمواطنـين جميعا بكيفية جدية»، الأمـر الذي مهد لظهور حركة التحرير الجديدة، فنشـأت كتلـة العمل الوطني التي قررت عام ١٩٣٢ تأسـيس مجلة «المغرب» باللغة الفرنسـية بباريس، حيث تولى رئاسة تحريرها الأستاذ روبير جان لونكي؛ و«قد قامت هذه المجلة بنشـر المقالات التي كان يكتبها الوطنيون المغاربة وغيرهم من الكتاب الفرنسـيين، موضحة مغازي الحركـة الوطنية والآمال التي تعلقها على الديمقراطية الفرنسـية، ومكافحـة، بجرأة وإقـدام، السياسـة المتبعة في البـلاد، ومزودة قراءهـا بين الحـين والآخر بالإحصاءات المدققة عـن مظاهر الميز العنصري الذي يسـود سـير الحماية في مراكش، وكانت تعقد في كل مناسـبة اجتماعا لبعض النواب والصحافيين الفرنسـيين الذين سـرعان ماأطلقوا على أنفسـهم (أصدقاء المغـرب)، وانضم إليهم بعض الأحرار الإسبانيين لتأييد كتلة الشمال في مطالبها ضدا على الاستعمار الإسباني.

وقد كان لصدور المجلة رد فعل معنوي في نفس الإقامة العامة التي حاولت منعها من الدخول للمغرب، ولكن أصدقاءها كانوا يتوسـطون لدى الخارجية الفرنسية في رفع المنع.

كذلك كان الشـأن بالنسـبة لجريدة (عمل الشعب) التي أصدرتها الكتلة باللغة الفرنسية بفاس. وفي اتفاق بين الوطنيين بكتلة الشمال، أصدر الأستاذ محمد داود مجلة «السلام»، كما أصدرت الكتلة جريدة «الحياة»، وذلك قبل أن توقفها سلطات الحماية فيما بعد.

وقـد تمكنت الكتلة، بعد ذلـك، من تعميق عملها بإصلاح شـئون البلاد، فاسـتطاع وفدها بباريس أن يؤسس لجنة رعاية من أصدقاء

مجلة «المغرب»، وغيرهم من رجال اليسار الذين أظهروا عطفهم على برنامـج الكتلة وتقديرهم للـروح التحريرية التي يحتوي عليها، وكان برنامج الإصلاحات المغربية يشتمل آنذاك على خمسة عشر فصلا.

بمـوازاة ذلك، كان اهتمام المشـارقة بالمغـرب والمغاربة، من خلال المجلات الثقافية (مجلتي «الرسـالة» و«الثقافـة» تحديدا)، اهتماما كبيـرا ومؤثرا، عبر التعريف بالمغرب وبأوضاعه وقضيته. ولم تتوقف هـذه الحركة الثقافية المغاربية الداعية إلى الإصلاح عند هذا الحد، حيـث واصل «حـزب الاسـتقلال»، وارث الحزب الوطنـي والكتلة الوطنيـة، اهتمامـه بالنواحي الثقافية والاجتماعية، فأسـس مجلة «رسـالة المغرب» التـي تعتبر في نظر الزعيم علال الفاسـي، أرقى مجلة في الشمال الإفريقي باللغة العربية، وقد التف من حولها عديد من الأدباء والكتاب والشعراء الذين يعملون على تطوير الأدب المغربي وإحيائه.

يمكن القول، إذن، إن الفترة الاسـتعمارية التي عرفها المغرب، منذ بداية القرن العشـرين، قد اتسـمت بازدهار الصحافة الثقافية، من صحف ومجلات، وخصوصا في شمال المغرب، وكلها مجلات ثقافية توقفت، مع الأسـف، عن الصدور لسـبب أو لآخر، فظهرت مجلات ثقافية مغربية أخرى بعد الاسـتقلال، بتوجهات ثقافية وأيديولوجية مغايـرة، حيث غدت الحاجـة، آنئذ، إلى بعث ثقافـة وطنية جديدة ومغايرة، منها مجلات ثقافية مسـتقلة، وأخرى تابعة لبعض الجهات الحكوميـة، وخصوصا وزارة الثقافة، بإصدارهـا لمجلتيها: «الثقافة المغربية» و«المناهل»، ووزارة الأوقاف والشـئون الإسـلامية ومجلتها «دعوة الحـق»، ذات النزوع الثقافي الديني، كما ظهرت مجموعة من المجـلات الثقافية الأخرى، التابعة للجامعـات والكليات والجمعيات والمؤسسـات الثقافية، ومن أهمها مجلة «آفاق»، لسـان اتحاد كتاب المغرب.

وبالنظر إلى المسار التطوري العام للمجلات الثقافية بالمغرب، يمكن التمييز بين فترتين أساسيتين تؤطران صيرورة تلك المجلات، بحسب الظـروف والعوامل التاريخية والسياسـية والثقافيـة التي واكبتها،

وبحسب ما ارتبطت به من أدوار ووظائف وأهداف تاريخية وثقافية، وهما: مرحلة الاستعمار الأجنبي للمغرب ومرحلة الاستقلال، وإن كان هناك من يرى أن ثمة أكثر من مرحلتين، بحسب رؤية كل واحد إلى طبيعة هذا المسار التاريخي والتطوري الذي عرفته الحركة الثقافية بشكل عام، ومرت به المجلات الثقافية في المغرب بشكل خاص، كالتمييز بين: «مرحلة التأسيس والبدايات» و«مرحلة إعلان الحماية» و«مرحلة صدور الظهير البربري» و«مرحلة الاستقلال وما بعده». وفي اعتقادي، فإن وضع تحقيب زمني وتاريخي لسيرورة المجلات الثقافية في المغرب قد لا يستلزم، في حقيقة الأمر، إخضاعه لمختلف هذه المحطات التاريخية الكبرى التي عرفها المغرب الحديث منذ بداية القرن الماضي.

من ثم، كانت المرحلة الأولى للمجلات الثقافية المغربية، التي تبدأ بإعلان الحماية الفرنسية على المغرب، تغلب عليها النظرة الإصلاحية بشكل خاص ومهيمن، بعد أن أضحت الحماية أمرا واقعا. فعملت تلك المجلات على المساهمة في تحرير الإنسان المغربي، مما كان يتخبط فيه من جهل وجمود وبدع وتخلف، والدعوة إلى تحريره من سطوة الاستعمار الأجنبي والحفاظ على هويته الثقافية العربية والإسلامية، وترسيخ الوعي والعمل الوطني والنظرة الإصلاحية في المجتمع، والإعلاء من شأن اللغة العربية أمام نزعات التغريب التي كان يسعى إلى فرضها وترسيخها. مع أن الاعتراف بـ «الآخر»، أي المستعمر الأجنبي، وبقوته وحضارته، كان قد بدا سائدا آنئذ، وكذا الإيمان بضرورة الاقتباس منه والانفتاح على منجزاته التقنية وسياسته في المجالات الحيوية، كالتعليم والإدارة، مع الإشارة أيضا إلى ما لاقته هذه السياسة الاستعمارية، في بدايتها، من معارضة من لدن البعض، وخصوصا فيما يتعلق بتعليم المرأة، لكن سرعان ما ستتلاشى تلك المعارضة فيما بعد، لاعتبارات مختلفة، مرتبطة خصوصا بالمشروع النهضوي الذي تبنته الحركة الإصلاحية إثر ذلك.

في هذا السياق، إذن، حميت الرغبة لدى بعض الشخصيات الوطنية في إنشاء منابر ثقافية وتأسيس جمعيات ثقافية، للتوعية والإرشاد،

وللتعبير عن الفكر والإحساس والوجدان وصيانة الذاكرة الوطنية وإذكاء الوعي الوطني وشحذه، وفي تعميق نضالها من أجل المحافظة على المبادئ والثوابت الرئيسة للبلاد، كاللغة العربية والدين الإسلامي والثقافة الوطنية والمؤسسات السياسية والثقافية، عدا مساهمة تلك المجلات الثقافية أيضا في تطوير الثقافة والإبداع وإبراز مكانة الإسلام ووضع المرأة في المجتمع، ومن بين تلك المجلات، نذكر على الخصوص: «الاتحاد» (١٩٢٧-١٩٣٢)، و«الإصلاح» (١٩٢٩-١٩٣٠)، و«مجلة المغرب»(١٩٣٢-١٩٣٧)، ومجلة «السلام»(١٩٣٣-١٩٣٤)، و«المغرب الجديد»(١٩٣٥-١٩٣٦)، و«الثقافة المغربية»(١٩٤١-١٩٤٥)، و«رسالة المغرب»(١٩٤٢-١٩٥٢)، و«الأنوار»(١٩٤٦-١٩٥٦)، و«الأنيس»(١٩٤٦-١٩٥٦)، و«لسان الدين»(١٩٤٦-١٩٥٦)، و«المعرفة»(١٩٤٧-١٩٥٧)، و«الأثير»(١٩٥٠-١٩٥٤).. وغيرها.

ولم يكن دور الإصلاح في المجلات الثقافية المغربية، في بداية القرن الماضي، منحصرا في بعده السياسي والاجتماعي والتربوي والديني فقط، بل إن الدعوة إلى الإصلاح كثيرا ما كانت تتجاوز هذه المجالات الحيوية، لتتوقف عند الدعوة إلى الإصلاح في مجال «الأدب» أيضا، وخصوصا الشعر والنقد الأدبي، أي ذلك النوع من الأدب الذي كان سائدا في مرحلة سابقة من تطور المجتمع المغربي، حين كان الشعراء مصلحين وموجهين، ويساهمون في التغيير وفي أداء الرسالة والواجب في معركة التحرير بشكل عام.

كذلك هو الحال بالنسبة لوظيفة النقد الأدبي، الذي قيل وكتب عنه الشيء الكثير في عدد من دوريات تلك المرحلة، سيما في (مجلة المغرب) وجريدة (السعادة). فهذا ابن عباد (وهو اسم مستعار) يربط بين النقد والإصلاح في قوله: «ونحن إذا كتبنا فما أردنا إلا الإصلاح ما استطعنا وإنصاف الحق...».

ويقول في سياق آخر، متحدثا عن النقد: «ولقد كان شائعا في كل أمة، وفائدته ظاهرة، ونتائجه في إصلاح ما اختل واعوج وتنوير البصائر وتثقيف النفوس أمر عن الناس معلوم».

أما المرحلة الثانية، مرحلة الاستقلال، فتشكل، في نظري، قطيعة ثقافية ومعرفية نوعية مع المرحلة السابقة، على مستوى التوجهات الجديدة التي أبانت عنها المجلات الثقافية الصادرة في المغرب في هذه المرحلة، وخصوصا بعد ظهور مجلة «آفاق» التي يصدرها اتحاد كتاب المغرب، ومجلة «أقلام» في بداية الستينيات، وظهور جمعيات ومجلات ثقافية، احتضنت الإبداع والفكر المغربي والعربي والغربي (من خلال الترجمة خصوصا)، فكانت منبرا أساسيا مؤثرا، رهانها نشر ثقافة وفكر ديمقراطي حداثي وثقافة وأدب طلائعي جديد، متوخية بذلك تجاوز الفكر القديم وبناء جبهة ثقافية تروم بلورة قيم ثقافية جديدة ومتحررة، من خلال مجلات ثقافية لعبت دورا فعالا ومؤثرا في الدفاع والنضال من أجل بلوغ ذلك كله، من قبيل مجلات: «أنفاس» و«الثقافة الجديدة» و«الجسور» و«البديل» و«الزمان المغربي» وغيرها، كما عرفت المرحلة ظهور أول مجلة نسائية في المغرب هي مجلة «شروق» (عام ١٩٦٥)، والتي كانت تشرف عليها الأديبة المغربية خناثة بنونة، باعتبارها مجلة نسائية دورية تعنى «بشئون المرأة والفكر»، في تركيزها وانتصارها لقضايا المرأة وأخبارها وإنتاجها الأدبي والفكري في المغرب والمشرق، وذلك في وقت كان يُعتبر فيه دخول المرأة عالم الكتابة مغامرة وتمردا، فبالأحرى إقبالها على إصدار مجلة نسائية. فتحول شكل النضال في تلك المجلات الثقافية جميعها من مواجهة المستعمر وسياسته التغريبية إلى نضال ضد السلطة والفكر المتحجر والايديولوجيا السائدة وطابعها التخييلي، كما ناضلت من أجل حرية التعبير والحق في الاختلاف، وفي امتلاك المعرفة ضد الرقابة والمنع، كذلك المنع الذي تعرضت له مجموعة من تلك المجلات الثقافية فيما بعد، باستثناء «أقلام»، في حين توقفت مجلات ثقافية أخرى لأسباب مادية في معظم الأحيان، وتمكنت مجلات ثقافية قليلة جدا من الاستمرار والصمود وسط العواصف والعوائق والتغيرات السياسية والثقافية، وخصوصا مجلة «آفاق» ومجلة «دعوة الحق».

لذلك، فالنزعة الإصلاحية للمجلات الثقافية المغربية قد ارتبطت،

في العمق، بمرحلة الاستعمار الأجنبي للمغرب، انطلاقا مما كان يفرضه السياق التاريخي آنذاك من ضرورة الارتهان إلى بناء ثقافة وطنية داخل شرط تاريخي وثقافي محكوم بعوامل وإرغامات معاكسة، كانت سائدة في تلك المرحلة.

ذلك توجه، إذن، سيرغمنا نحن أيضا، على حصر مجال البحث في دور المجلات الثقافية في عملية الإصلاح بمفهومه الواسع، وخصوصا من خلال تلك المجلات الثقافية التي ظهرت إبان المرحلة التاريخية الأولى، مع التعرض إلى ما قد يشبه النزعة الإصلاحية الجديدة في المجلات الثقافية المغربية التي ظهرت في المرحلة التاريخية الثانية، أي مرحلة الاستقلال.

٢- صورة الإصلاح في المجلات الثقافية من خلال خطاب «العتبات»:

ذلك ملمح مواز لا يخلو بدوره من أهمية مرجعية، انطلاقا من كونه يعكس مدى ارتباط المجلات الثقافية بالمغرب، الصادرة خصوصا باللغة العربية، بالنزعة الإصلاحية المباشرة وبغاياتها أيضا، بما كان يستلزمه ذلك من حرص تلك المجلات على الانشداد إلى العمق الجغرافي للبلاد، والتشبث بالهوية الوطنية، الثقافية واللغوية والدينية، والوعي بالدور التنويري لتلك المجلات، وهو ما يمكن استنباطه، مثلا، من خلال عتبات بعض المجلات الثقافية الرائجة إذاك، والصادرة جميعها على امتداد فترات مختلفة كما يظهر ذلك في عناوينها، عاكسة بذلك للغاية من ظهورها: «الصباح»، و«مجلة المغرب»، و«السلام»، و«المغرب الجديد»، و«الثقافة المغربية»، و«رسالة المغرب»، و«الأنوار»، و«المصباح»، و«النهار»، و«نبراس الفكر»، و«دعوة الحق»، و«رسالة الأديب»، حيث يتضمن لفظ «الرسالة»، على سبيل المثال، الوارد في عناوين بعض هذه المجلات، فكرة عن الواجب المفروض القيام به تجاه الأمة، كذلك الشأن بالنسبة للفظ «المغرب»، الوارد بكثافة في عناوين بعض تلك المجلات، والذي يعني: «التزاما جليا للمجلة إزاء المكان الذي تتكلم منه وتتحدث عنه». وذلك توجه مرجعي كان متحكما أيضا في عناوين بعض المجلات المشرقية الأولى،

وما بعدها، كـ «المنار» و«الرسـالة» و«البـلاغ» و«المقتطف» و«الهلال» و«الدول العربية».

نفس الأمر حـدث، ولايزال، مع عناوين بعـض المجلات الثقافية المغربيـة التي ظهـرت بعد الاسـتقلال، باللغة العربية والفرنسـية، انطلاقـا مما كانت تراهن عليه تلـك المجلات أيضا، ولايزال بعضها إلى اليوم، من توجه ثقافي مغاير، ومما كانت تنشده من ثقافة وإبداع وفكـر جديد وبديل، كما يتبين مـن عناوين المجلات الثقافية التالية: «آفـاق»، و«أنفاس»، و«الثقافـة الجديدة»، و«الجسـور»، و«البديل»، و«فضـاءات مغربيـة»، و«الثقافـة المغربيـة»، و«الزمـان المغربي»، و«الهدف»، و«الإحياء» و«المنعطف»، و«نظرات حول الثقافة المغربية»، وغيرها، دون أن يعني ذلك أن ثمة قطيعة معرفية ومنهجية مع نوعية الأسـئلة التي طرحتها المجلات الثقافية المغربية في المرحلة الأولى، بـل إن ما حـدث هو نوع من التحـول والتطور اللافتـين في طبيعة تلك الأسئلة وطريقة صياغتها، في ضوء واقع جديد، وخصوصا بعد خروج المسـتعمر الأجنبي؛ من بينها، بشكل خاص، نشير إلى اهتمام تلك المجلات ببعض الأسـئلة الجوهرية، من قبيل: «الهوية الثقافية» و«الهوية اللغوية» و«الهوية الدينية».

غير أن ذلك الارتباط بين المجلة وعنوانها والمكان (المغرب تحديدا)، لا يعني أن هذه المجلات الثقافية كانت متقوقعة على نفسـها و يغلب عليها الطابع الشـوفيني الضيق فـي حركتها الإصلاحية والتوعوية، بـل إن معظمها كان لـه توجه منفتـح على قضايا المشـرق العربي وثقافتـه، حيث جعلت تلك المجلات مـن التفكير في الثقافة المغربية جزءا لايتجزأ من التفكير أيضا في الثقافة العربية والأجنبية، كمجلة «المغرب الجديد» التي تعرف بنفسـها بكونهـا: «مجلة علمية لخدمة الثقافـة المغربية، وهـي مرآة الحركة الفكرية في الشـرق والغرب»، وهو التوجه نفسـه الذي خطته المجـلات الثقافية التي ظهرت في المرحلـة الثانية، بـل وحرصت على دعمه وترسـيخه وتحقيقه. كما أن افتتاحيـات تلك المجلات جميعها مـا فتئت دائما ترحب بالأقلام المغربية والعربية لدعمها والكتابة فيها والتواصل معها. وبالفعل، كان

سؤال التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب، على سبيل المثال، أحد المواضيع التي انشغلت بها بعض تلك المجلات الثقافية، وخصوصا «مجلة المغرب».

ثاني ملمح يمكن من خلاله استخراج بعض الخصائص المجسدة للتوجه، أو للتوجهات العامة للمجلات الثقافية الصادرة في المغرب، منذ بداية القرن الماضي إلى اليوم، هو «خطاب الافتتاحيات» سواء فيما يتصل بالنزعة الإصلاحية التي كانت الدعوة إليها سائدة بكثافة في المرحلة التاريخية الأولى، أو فيما يرتبط بالنزعة التجديدية للمجلات الثقافية التي ظهرت في المرحلة التاريخية الثانية.

فأمام تعدد المجلات الثقافية الصادرة في المغرب في المرحلتين السابقتين، وكثرة الأعداد الصادرة منها، وتنوع موادها وأسئلتها وقضاياها الثقافية والفكرية والأدبية والفنية، يمكن رصد جوانب مما تكشف عنه بعض خطاباتهاعلى مستوى سياستها وأهدافها والغاية من إصدارها، انطلاقا من قراءة في إحدى عتباتها الأكثر تعبيرا عن ذلك التوجه العام، ويتعلق الأمر، هنا، بخطاب «الافتتاحيات»، وخصوصا تلك التي تضمنتها الأعداد الأولى للمجلات الثقافية، بالنظر إلى كونها هي التي يرسم فيها المشرفون عليها الفلسفة العامة التي خطتها المجلة لنفسها، من أجل مخاطبة جمهورها بمفهومه الواسع، أي كأمة ورأي عام في المرحلة الأولى، ممن تخاطبهم مجلة «المغرب الجديد»، في افتتاحياتها الأولى، بـ «المواطنين» و«الشعب المغربي»، وكـ «مجتمع قارئ»، وقد أضحى يمتلك ناصية التجديد ويستشعر حتميته في المرحلة الثانية. ويكفي في هذا الإطار، أن نتناول بعض الخطابات الافتتاحية لعينة من المجلات الثقافية من المرحلتين التاريخيتين، بحسب تسلسلها التطوري وتبعا للشروط التاريخية المؤثرة والموجهة لغايات تلك المجلات الثقافية وأهدافها، بغية التمييز بين ذلك التوجه وتلك الأهداف فيها.

لقدحددت مجلة «المغرب الجديد» اختيارها، في أنها: «منبر حر لنشر سائر الأبحاث العلمية المهذبة، ويمكن لكافة المثقفين المغاربة أن يعتبروه لسانهم الناطق». وهي المجلة ذاتها التي اهتمت، منذ

صدورها، بالبعد المحلي وبالخصوصية المغربية أساسا، وذلك جانب تمثله مجلة «المغرب الجديد»، وطرحته بصيغ «حاملة للوعي الوطني، عن مشــروع التطور الثقافي ذاته، اعتمادا على ما بني من تصورات أخرى للخروج بالمغرب من دائرة الاستعمار إلى دائرة الاستقلال»، وهو ما يمكن ملاحظته، أيضا، من خلال توجيه المجلة لاســتمارة تتضمن أســئلة للقراء للإجابة عنها في المجلة، وكلها تدور حول «المغرب»، في محاولة من المجلة المســاهمة في بناء أسس «المغرب الجديد»، مغرب المستقبل، وفي محاولة من «الشعب المغربي»، في الوقت نفسه، خوض «المغامــرة في الحيــاة الجديدة»، كما جاء فــي افتتاحية العدد الأول من المجلة، وتتمحور تلك الأســئلة حول: (السلالة المغربية) و(الشعب المغربــي) و(العقلية المغربيــة) و(الأدب المغربــي) و(التاريخ المغربي) و(الشخصيات المغربية).

إذا كان الأمــر علــى هذا النحو، من خلال الشــعارات المباشــرة والمتغيــرة لهذه المجلة، فإن «التغييــر والترقي والنهضة كانت هاجس شــباب تلك الحقبة، وكانت مرادفا لشيء وحيد هو التقدم والحفاظ على الهوية الوطنية وإثبات الذات عن طريق الفكر، لذلك أتت المجلة لتكــون صلة وصل بــين العارفين والراغبين في المعرفة، ســواء كانوا داخل المغرب أو خارجه، وهو ما يفسر العلاقات المتنوعة القائمة بين المجلــة ومراكز البحث والمفكرين في أوربا وآســيا وأمريكا اللاتينية والمشرق العربي».

كما أن مشــروع مســودة «خطة المغرب الجديد» الــذي أعد للمجلة يأخــذ بعين الاعتبــار هذا البعد العربي والإســلامي في توجهها العام وهــو المشــروع الذي نقح وصدر بعــد ذلك في افتتاحيــة العدد الأول مــن المجلة بعنوان «من العماء إلى النــور» بتوقيع مديرها محمد المكي الناصري، مركزا فيه على تعريف الشــعب المغربي بنفسه وغيره تعريفا كافيا شــافيا، وكذا «التعريف بشــعوب العروبة والإسلام وباقي شعوب البشــرية، وخاصة شعوب البحر الأبيض المتوســط». وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلــت هذه المجلة تنتصر، بالدرجــة الأولى، للأفق الثقافي المغربي، والدعوة إلى النهوض بالفكر المغربي، وإعلاء الحس الوطني.

وإذا كانت مجلة «الثقافة المغربية»، من خلال عنوانها، تؤكد على الهوية الوطنية للثقافة «المغربية»، بالدرجة الأولى - وهو العنوان الذي سيتم تبنيه في زمن لاحق من قبل إحدى المجلات الثقافية التي مازالت تصدرها وزارة الثقافة المغربية منذ بداية السبعينيات إلى اليوم- فقد كانت تنادي أيضا بـ «التجديد والمحافظة» في «انسجام وتعاضد»، وهما عنصران: «يتعاونان على تكوين فكر أمة وإعادة صرح مجدها وتدعيم أسس مسئوليتها على أقوم طريق وأصلح منهج»، في سبيل «القضاء على كل ما يحول بين المغربي والنور» (من افتتاحية العدد الأول من المجلة).

إلى جانب فئة المثقفين الوطنيين والمرأة المثقفة، تحملت فئة الطلبة أيضا مسئولية إصدار مجلة ثقافية في ذلك الوقت، ولو أن بعض مدراء تلك المجلات الثقافية السابقة كانوا شبانا هم أيضا (مثلا، أصدر محمد المكي الناصري مجلة «المغرب الجديد»، وهو لم يبلغ عامه الثلاثين بعد).

ومن بين تلك المجلات التي كانت، منذ بدايتها، تنطلق من الشبان الطلبة وتتوجه إليهم، مجلة «الأنيس» (١٤)، التي صدرت بإيماز من جماعة من الطلبة، في اهتمامها بروح العمل المتواصل لدى الشباب وإيقاظ روح الهمة فيهم، حتى يقفوا على أسمى مراتب التفكير في المسائل التهذيبية البحتة.

٤- «مجلة المغرب»: نموذج حي لإشاعة ثقافة الإصلاح في المغرب:

إذا كان البعض يؤرخ لبداية ظهور المجلات الثقافية بالمغرب بظهور مجلة «سنان القلم لتنبيه وديع كرم» الصادرة عام ١٩٠٧ بفاس، ومجلة «الصباح» الصادرة عام ١٩١٢ بطنجة، وهما مجلتان لم تلعبا، مع ذلك، دورا مؤثرا في تلك الفترة، فإن جل الباحثين يرون أن البداية الفعلية للمجلات الثقافية بالمغرب كانت مع ظهور «مجلة المغرب»، بالرباط عام ١٩٣٢، والتي كان يديرها ويرأس تحريرها الكاتب الجزائري محمد الصالح ميسة، وهو ما حدا بنا إلى أن نختار هذه المجلة ونتمثلها كنموذج للمجلات الثقافية المغربية، الصادرة بالعربية

في القرن العشرين، انطلاقا من كون توجهها العام وأهدافها وموادها تستجيب، بشكل كبير، للموضوع المبحوث فيه، بتبنيها ودفاعها المستميت عن النزعة الإصلاحية في البلاد، وعملها على أداء رسالتها من أجل تحرير الإنسان المغربي والحفاظ على هويته العربية والإسلامية، في وقت كانت فيه البلاد بصفة عامة ترزح تحت وطأة الاستعمار الأجنبي، كما كانت في أمس الحاجة إلى من يذكي رسالة الإصلاح فيها.

ذلك أمر يمكن تقديمه والاستدلال عليه من خلال قراءة موازية في أعداد هذه المجلة الشهرية الثلاثة والأربعين، التي تمكنا من الوصول إليها (محفوظة بالمكتبة الوطنية بالرباط وبالخزانة الصبيحية بسلا)، والتقيب فيها، وفي أبوابها وموادها وخطاباتها ودعواتها الإصلاحية، في محاولة للوقوف عند أهدافها ونظرتها الإصلاحية، وكذا الكشف عن جوانب مما ساهمت به هذه المجلة، على امتداد سنوات صدورها، على مستوى أدوارها التوعوية والإصلاحية الكبيرة، انطلاقا مما تكشف عنه من تنوع في اهتماماتها ومواضيعها: بين الثقافة العامة والتاريخ والجغرافيا والفكر والسياسة والعلم والدين والاقتصاد واللغة والتربية والعلوم والتراث والأدب والنقد الأدبي والأخبار العامة.

وهو اختيار وزعم ليس وليد قراءة متأخرة زمنيا في هذه المجلة، بل إن قيمة هذه المجلة وأدوارها الطلائعية كانت محط تنويه بها حتى إبان صدورها، وذلك جانب توضحه خطابات وردود أفعال قراء المجلة، من مختلف المراتب والتوجهات والبلدان، من خلال ذلك الركن، غير الثابت فيها، المسمى تارة بـ «عين الرضى»، وتارة أخرى بـ «غيرة إسلامية»، وثالثة بـ «غيرة عربية»، وهي خطابات يمكن استحضارها، في مثل هذه المناسبة، للتدليل على جانب من التوجه العام الذي كان لهذه المجلة، ومدى تبنيها للنزعة الإصلاحية فيها، من خلال آراء ووجهات نظر «متلقين» اعتباريين، ينتمون إلى نفس المرحلة التاريخية ويشهدون على تحولاتها البنيوية، عن قرب ودراية.

ومن بين هؤلاء القراء والمتلقين، نذكر بعضهم فقط بصفاتهم، كما أسبغتها عليهم هذه المجلة: «صاحب الجلالة الهمام الأفخم المولى

عبد الحفيظ سلطان المغرب»، و«فخر الشرق الكاتب الشهير أمين الريحاني»، و«الأديب الفائق سيدي الراي بفاس»، و«فخر الإسلام صاحب السماحة المفتي الأكبر الحاج أفندي الحسيني»، و«جناب وزير فرنسا المفوض مدير التشريفات السلطانية ورئيس المعهد الإسلامي بباريس المحنك سيدي عبد القادر ابن غبريط»، و«جريدة الزمان الغراء بتونس» التي اعتبرت «أن وجود هذه المجلة بهذه الكيفية لم يعرفه قبل شمال إفريقيا ولا عهد لنا به».

وهو الدور نفسه الذي أشار إليه أحد كتاب المجلة (الحسن الرامي)، في حديثه عنها، من خلال قول شامل عن دور الصحافة في المجتمع آنذاك: «لقد كان المغرب من قبل فاقدا هذه الخصيصة، عادما هذه المزية، فلما أراد الله انتشاله من ظلام الغفلة والذهول وإنقاذه من مهواة الخمول أرشد فئة طيبة من بنيه وهداهم إلى طرق باب الإصلاح ولا باب للإصلاح سوى الصحافة».

ومن بين تلك الرسائل العاكسة كذلك لجانب من ذلك التوجه الإصلاحي لهذه المجلة، رسالة المولى عبد الحفيظ، من بين ماجاء فيها: «بعد الاطلاع على الكل واستيعابه ألفيناه أعظم وأحسن مشروع جادت به قريحتكم الوقادة وأدركنا غايتنا من حماية اللغة العربية ونشرها بين أهلها وإبراز نتائج أفكار النجباء من نوابغ المغرب الأقصى».

كما كانت الدعوة إلى الإصلاح، من بين انشغالات بعض افتتاحيات هذه المجلة، ويكفي أن نشير هنا إلى افتتاحية العدد الخامس (نوفمبر-ديسمبر ١٩٣٢) التي جاءت عبارة عن قصيدة للشاعر المغربي محمد بن إبراهيم، عنونها بـ «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت»، وهي قصيدة تدعو إلى رفع الهمم وشحذ العزائم والدعوة إلى العلم.

ومن بين المجالات الثقافية التي كان لها حضور لافت أيضا في المنظور الإصلاحي والتوجيهي والتنويري لهذه المجلة، طيلة مدة صدورها، نشير إلى «إصلاح التعليم»، ويعتبر من بين أهم محاور الإصلاح التي شغلت «مجلة المغرب» منذ ظهورها، حيث استشعرت المجلة، منذ البداية، مدى حاجة المجتمع، في ذلك الوقت، إلى التعليم

والتربية والتوعية الاجتماعية: «فلا بدع إذا كانت مسألة التعليم رأس المسائل وأهم المشاكل التي يجب أن تعتني بها الأمة والحكومة في حين واحد، وأن تشتغل بها الأفكار ويجعلها الناس موضوع أحاديثهم...».

من ثمة، كثرت دعوات هذه المجلة في عدد من المناسبات إلى إصلاح التعليم، والمطالبة بأن يكون له نظام وبرامج وتراتيب لازمة. كما عملت المجلة على نشر آراء الكتاب والمصلحين في مسألة التعليم وطرق إصلاحه وتنظيمه، ونشر جملة من المقالات والأبحاث في هذا «الموضوع الخطير»، كما تسميه المجلة، وكذلك عملت على نشر برامج لإصلاح التعليم جرى بها العمل في أقطار مختلفة، و«وقع تطبيقها في غير المغرب ببعض البلاد التي تشابه المغرب من وجوه عديدة ولاتكاد تختلف عنه في شيء اللهم إلا اختلاف ميول رجال الإدارات وتقارير أساليب في الإصلاح....».

بموازاة ذلك، عملت «مجلة المغرب»، في مجموعة من المناسبات والمقالات والافتتاحيات أيضا، على الدفاع عن اللغة العربية، والدعوة إلى العناية بها والتفرغ للقيام بالمحافظة عليها، كما جاء في دراسة مطولة بتوقيع (م)-ولاشك أنه هو مدير المجلة ميسة- حول «حياة اللغة العربية».

وداخل هذا المجال نفسه، يأتي اهتمام المجلة بفئة معينة من المجتمع هي فئة «البنات»، وخصوصا تلك الشريحة من الفتيات اللواتي كن يعانين من مجموعة من الإرغامات التي كانت تكبل إقبالهن على التعلم، وعلى المساهمة في حركية المجتمع ونموه، وذلك منذ العدد الثاني من المجلة، في مقالة رئيسة بعنوان «تعليم البنات» (بقلم ع)، وهي المقالة التي اعتبرتها المجلة، في العدد الرابع منها، بمثابة «بيان»، تبنته فيما بعد، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

ومن بين ما جاء في نهاية تلك المقالة، الإشارة إلى اقتراحين جديرين بالاهتمام- على حد تعبير الكاتب- «نستلفت إليهما أنظار أولي الأمر رجاء أن يعطوا المسألة حقها من الاعتناء، ويتعلق الأمر هنا بالدعوة إلى إنشاء مدرسة لتعليم المعلمات وتعليم قسم من البنات التوليد والتمريض وصناعة طب أسنان».

بعـد ذلك، تضاعفت المقـالات والافتتاحيات التـي أوردتها المجلة لمقاربة هذا الموضوع نفسه في المغرب وخارجه، بما في ذلك التعرض لمطالب النســاء أنفســهن. وذلك جانب تعكسه مجموعة من المقالات المنشــورة في العدد الرابع من المجلة في شــأن «إصــلاح حال المرأة وتعليــم البنات»، والتي كانت المجلــة تتوخى من خلالها، كما جاء في افتتاحية هذا العدد: «ألفت الأنظار إلى هذه المســألة الخطيرة، ففي العدد الثاني كنا نشــرنا بيانًا حول الإصلاح، ولذا رأينا من المناســب أن نخصص لها قســطا وافرا من هذا العــدد تثبيتا لفكرة الإصلاح فــي الأذهان وتعميما»، ومن أهمها مــا كتبه العلامة محمد الحجوي في العدد نفســه، حول «تعليم البنات»، هذا الذي له، كما تقدمه هذه المجلة لقرائها، مســاهمات «جلي في ميدان الإصلاح ســيذكرها له التاريــخ بكل امتنان، وهو في مقدمة المفكرين الذين دعوا منذ نشــر الحمايــة إلى الاهتمام بتعليم النســاء وتحريرهــن من بعض العوائد الضارة بهن وبالمجتمع...».

لقد كان الانتقاد، في معظم الأحيان، سبيل هذه المجلة في دعواتها الإصلاحيــة المختلفة في مجــالات إصلاح التعليــم ومحاربة البدع وإصلاح العدلية الأهلية، شــعورا منها، كذلك، بـ «أن الانتقاد لا يخلو من فوائد، وهو أول شيء يعرض للأمم عند نهضتها لإظهار ما يكون في مؤسساتها من الخلل وإبانة مواطن الضعف منها وإلفات الأنظار إلى ذلك قصد التهيئة لوسائل التعديل ووجوه الإصلاح، على أن تتبع أعداد المجلة يظهر جليا للعيان أنها (وإن كان مضمارها التهذيب قبل كل شــيء) قامت بالأمرين معا، فما من عدد منها إلا ويشــتمل على فكرة إصلاحية أو اقتراح تعتقد أنه نافع أو دعوة إلى عمل تظن فيها الفائدة للجميع...».

ولــم يتوقف دور هــذه المجلة عند حدود تبنــي الإصلاح والدعوة إليه، بل كان يتعدى ذلك إلى اقتراح بعض المشاريع الإصلاحية، سواء على الحكومة أو على المؤسســات أو على الأشخاص، في ذلك الركن المســمى: «المشروعات الإصلاحية»، من ذلك مثلا، دعوة المجلة لمدير «مدرســة محمد جسوس»، إثر تسميتها بالرباط، على أن ينظر فيما

إذا كان يتيسر أن يؤسس قسما معدا للثقافة العامة خارج برنامجه النظامي الذي يجريه في فاتحة السنة المقبلة، عدا تنويه المجلة، من حين لآخر، بما تحقق من مشاريع إصلاحية في البلاد، على امتداد أزمنة وأحداث واكبتها المجلة، ومن بين ذلك أيضا ما جاء في حديث المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان، في عرضه للمنجزات التي تحققت في عهد سلطان البلاد، بدءا بإصلاح التعليم أولا، حيث «اهتم صاحب الجلالة والعرش بالتعليم، وعني به عناية المحنك العليم، فكان من النتائج جريان يد الإصلاح في جامع القرويين العامر(...) ولم يلبث هذا الإصلاح أن بدا أثره الجليل بدو يواقيت التاج والإكليل...».

٥- من ثقافة الإصلاح إلى إصلاح الثقافة:

من بين أولى المجلات الثقافية التي صدرت بالمغرب، بعيد الاستقلال، مجلة «دعوة الحق» (يوليو١٩٥٧)، وهي كما تقدم نفسها، في تلك المرحلة: «مجلة شهرية تعنى بالبحوث الدينية وشئون الثقافة والفكر»، إذ ارتبطت منذ تأسيسها، من قبل الملك الراحل محمد الخامس، بالنزعة الإصلاحية في المجال الديني أساسا، بعد إعلان استقلال البلاد عام ١٩٥٦ وخروج المستعمر الأجنبي، حيث «أصبح من أكبر الواجبات المنوطة بنا في فجر نهضتنا الشاملة أن نضاعف عنايتنا بالناحية الروحية والفكرية ونعمل على تحرير العقول من قيود بعض التقاليد والأوهام التي لا تتلاءم والمفهوم الصحيح لتعاليم ديننا الحنيف(..). ولذلك، سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة تعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تعالج مختلف الشئون الاجتماعية والثقافية..»، كما جاء في الكلمة الموجهة من الملك محمد الخامس إلى المجلة.

وهو التوجه نفسه الذي كشفت عنه افتتاحية العدد الأول من المجلة، رغبة من مؤسسيها في «أن توفق في ضم أصوات الدعاة والمصلحين والعلماء والشباب المثقف من أبناء هذا القطر السعيد، بعضها إلى بعض، لتجهر جميعها بهذه الدعوة..».

كما أنها الرغبة التي عبر عنها عبد الوهاب بنمنصور في خاتمة دراسته المعنونة بـ «الدعوة إلى الحق» المنشورة ضمن العدد نفسه، في

قوله: «ولا ريب أن مجلة (دعوة الحق) ستسد كلمة طالما قضت مضاجع المهتمين بمصير الإسلام في المغرب العربي والراغبين في الدفاع عنه والمنافحة(..)، وعسى أن يلتف حولها العلماء والأدباء المشبعون بحب الملة الحنيفة السمحاء حتى تستطيع أن تؤدي رسالتها على الوجه الأكمل»، وذلك توجه للمجلة يعكس، في العمق، استمرار الإصلاح بالمفهوم نفسه الذي كان سائدا تقريبا قبل الاستقلال، أي قبل أن تتطور هذه المجلة فيما بعد، وتطور، بموازاة ذلك، ملفاتها ومواضيعها ونظرتها الدينية إلى المجتمع، وأيضا قبل أن تظهر بالمغرب، بعد ذلك بكثير، مجلة ثقافية دينية أخرى بعنوان «قضايا إسلامية معاصرة» ذات توجه عصري في طبيعة الرؤية إلى الشأن الديني في العالم الإسلامي، وفي طريقة معالجتها للقضايا الإسلامية المعاصرة، وفي تكريسها أيضا للخطاب التنويري، ومساهمتها التحديثية للفكر الديني بشكل عام.

ومع بداية الستينيات، انشغل المثقف المغربي بطرح بعض التساؤلات المصيرية الجديدة، من قبيل: من نحن؟ وأين نحن؟ وإلى أين نسير؟، كما كان يسعى إلى «إيجاد أجوبة لها»!، فجاءت مجلة «البينة» لتنهض بهذه الرسالة، والتي ترمي إلى تعريفنا بأنفسنا، وبمركزنا في الوجود، وتذكيرنا بقوانا المادية والروحية، وما نستطيع أن نقوم به من خير لأنفسنا وللناس..». ويضيف علال الفاسي، مدير المجلة في افتتاحيته لها، محددا وظيفتها وتوجهها العام: «فقد أسست لتكون لسان الحق ومنبر الصدق وأداة الاتصال بين الذين يعنيهم أمر الإسلام وأمر الفكر الإسلامي عن طريق البعث الاجتماعي والثقافة المتحررة».

وبحثا عن تأسيس ثقافة مغربية جديدة موصولة بأسئلة المجتمع والتغيير، ظهرت، مباشرة بعد ذلك، مجلة «آفاق»، فارتبطت، في بداية صدورها، بـ «اتحاد كتاب المغرب العربي»، قبل أن تتحول إلى «ناطق رسمي بلسان اتحاد كتاب المغرب» فقط، متوخية «التعبير الصادق عن الفكر بالمغرب العربي»، والمساهمة «في كل ميادين الرقي الإنساني»، بحيث رفعت المجلة في بدايتها شعار «إلى الأمام» في افتتاحياتها الأولى: «ليس أجدر بهذا الشعار «إلى الأمام» من مجلة «آفاق»،

فاسمها يشير إلى الأمام في غير تحديد ولا توقف».

وهــذا المضي إلى الأمام وإلى أفق ثقافــي أكثر رحابة، لم يكن من الممكن تحقيقه، لــو لم تجعل المجلة من بين أهدافها محاربة كل فكر هــش عقيم وجامد ومنغلق، ولو لم تفتح «آفــاق» بابها لكل المبادرات الجــادة والهادفة، ولكل الآراء المختلفة، وفي هذا الإطار يقول محمد عزيــز الحبابي (أول رئيس لاتحاد كتاب المغــرب العربي)، في كلمته الافتتاحية للعــدد الأول من المجلة: «فلتكن آفاق ملتقى البوادر وبؤرة احتــكاك التجارب، فيهــا تذوب وتســاغ الآراء والإرادات (...). إنها معركــة ضد كل إقطاعيــة فكرية، ضد كل جمــوح أو جمود تفرضه الطائفيات..». فهي مجلة إذ تحارب التحجر والانغلاقية، فهي تتبنى «مبــدأ الانفتاح على الثقافات العالمية(...) هذا هو الطريق الســليم لمغربة الثقافة».

ويضيف الحبابي، محددا بذلك التوجه العام للمجلة في مسايرتها لتاريــخ الإنســانية وانفتاحها على عالم الأمس، وعالــم اليوم وعالم الغد: «أردناها مجلة آفاقية: ســوقا للفكر العربي، ومهرجانا للثقافة الإنســانية، وملتقى لكل حماة رســالة الكلمات في دنيا العرب، وفي عالم حضارة القرن العشرية التي تشمل دنيا العروبة وتفعل فيها».

كما لعبــت مجلة «أقلام» دورا طلائعيا، منــذ صدور العدد الأول منهــا في مارس ١٩٦٤، وعلى امتداد واحد وســتين عددا من المجلة قبل أن تتوقف، وهي التي بررت ظهورها آنذاك «لتعبر عن إحســاس عميق يشــعر به جل المثقفين، وهو أن الفكر متخلف عن العمل، وأنه لا يتوغل فــي صميم المجتمع وفي أعماق الإنســان المغربي..»، كما كانت تجســد في بداياتها «دعوة لجميع الأقلام الصادقة لتسهم في بناء ثقافة أصيلة وهي تتعهد بأنها ســتقدر كل محاولة فكرية جادة، وتأمــل أن تتيح الفــرص لجميع المواهب الناشــئة لتتلمس طريقها، ولتقوم بأداء رســالتها ولتفسح المجال الأوسع للذين ضاقوا بصمتهم الطويل».

من ثــم، كان رهان هذه المجلة التاريخي يتمثل في ترســيخ تقاليد ثقافيــة جديدة متممة لتلك النزعة الإصلاحية والتحررية التي كانت

سائدة إبان الاستعمار الأجنبي للمغرب.

وبعد مضي أزيد من أربعة عقود من صدور العدد الأول من «أقلام»، ظهرت مجلة ثقافية جديدة باسم «فكر ونقد»، عام ١٩٩٧، بإشراف أسماء كان لها حضور مركزي أيضا في المجلة الأولى، بهذا الشكل أو ذاك، لكن مع اختلاف في هوية هاتين المجلتين وفي أهدافهما، تبعا لاختلاف السياق التاريخي والثقافي المتحكم في ظهورهما، والمؤطر لزمن صدورهما أيضا، حيث أصبح المطلوب اليوم، حسب افتتاحية العدد الأول من مجلة «فكر ونقد»، هو التوسل «بالنقد»، فـ «الكلمة الآن هي لـ «النقد..!»(..)، وذلك دليل على أن الأمر يتعلق بمرحلة انتقالية، مرحلة يتم فيها تصفية الحساب مع القديم لفتح المجال أمام جديد. إنها المرحلة التي يكون فيها طرح السؤال في مثل صعوبة تقديم الجواب ومن هنا بروز «النقد» كمشروع وحيد ممكن.. لذلك، فقد تمثل طموح هذه المجلة في «المساهمة في نشر وعي صحيح بطبيعة هذه المرحلة التي يجتازها الفكر المعاصر».

كما حددت مجلة «الثقافة المغربية» الصادرة عام ١٩٧٠، توجهها العام في كلمة محمد الفاسي -وزير الدولة آنذاك المكلف بالشئون الثقافية والتعليم الأصلي- في «ملء الفراغ الذي تعرفه الساحة على مستوى مجلات عربية متخصصة في كل ما يتعلق ببلاد المغرب الإسلامي قديما وحديثا»(٤١)، وفي «إحياء تراثنا والتعرف على خصائص حضارتنا. وستهتم هذه المجلة بكل ما يرجع لتاريخ المغرب العربي وإسبانيا وصقلية الإسلاميتين وجغرافيتها وآدابها ولغاتها وعوائدها وفنونه الشعبية في الماضي والحاضر...».

وقد طرأت على هذه المجلة، بعد أزيد من ثلاثة عقود من الصدور، سلسلة من التحولات، سواء في توجهها العام أو في شكلها وموضوعاتها. كما أنه بظهور شقيقتها مجلة «المناهل» عام ١٩٧٤، تغير دور مجلة «الثقافة المغربية» الذي سبق أن أعلنت عنه، فأصبحت مجلة «المناهل» تضطلع بهذا الدور، لكن بمنظور جديد وحديث منفتح على الموروث الثقافي والثقافة الحديثة على حد سواء.

بعد ذلك دخلت الثقافة المغربية في منعطف جديد، إبان سنوات

السبعينيات من القرن الماضي، بما عرفته المرحلة من تحولات سياسية وإيديولوجية، ومن أحداث ونضالات اجتماعية مهمة ساهمت جميعها في بلورته التجربة السياسية والثقافية والاجتماعية في البلاد، فظهرت مجلات ثقافية جديدة مؤثرة، سرعان ما تحول لديها مفهوم الإصلاح، في هذه الفترة وبعدها، من «ثقافة الإصلاح» إلى «إصلاح الثقافة»، وأصبح الاهتمام مركزا على النهوض بالحقول المعرفية والفكرية والأدبية والفنية، وكذا العمل على بعث ثقافة جديدة تستجيب لطموحات الجماهير وتحدياتها ونضالاتها وصراعاتها ورغائبها في التغيير والتنوير والحداثة والتغيير والسجال الثقافي والنقد وخلق بديل ثقافي ومجتمعي، فازداد التراكم الفكري والأدبي والإبداعي، في تلك الفترة، كما ازداد الوعي بأهمية الثقافة في المجتمع، بمختلف فروعها، بما فيها الثقافة الشعبية، وظهرت أقلام وأسماء جديدة، وصدرت مجلات ثقافية جديدة بعد ذلك، فأضحت تعنى، بشكل متخصص في معظم الحالات، بحقول الفكر والفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والدراسات النفسية وعلم التربية والمنطق واللسانيات والسيميائيات والنقد الأدبي والشعر والقصة، بحيث قد لا يسعنا المجال، هنا، لحصر تلك المجلات الثقافية، والجمعيات الثقافية أيضا، والوقوف عند توجهاتها العامة، وأدوارها المختلفة في ترسيخ ثقافة وفكر وأدب جديد، والمساهمة في تطوير ذلك، وتمثل أسئلته المتحولة. كما تميزت المرحلة التالية أيضا بانفراد بعض مجالات التعبير، كما سبقت الإشارة، بمجلاتها المتخصصة، وظهرت لأول مرة مجلة للشعر، يصدرها «بيت الشعر في المغرب» بعنوان «البيت»، كما ظهرت مجلة للقصة، تصدرها «مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب»، بعنوان «قاف صاد». وقبل هاتين المجلتين، كان كل من محمد برادة ومحمد العربي المساري وعبد الجبار السحيمي قد أصدروا مجلة بعنوان «القصة والمسرح» عام ١٩٦٤، لكنها لم تعمر طويلا.

ومن بين أهم تلك المجلات الثقافية التي كان لها صدى واسع، في تلك الفترة، مجلة «الثقافة الجديدة»، بما يعكس اسمها من رغبة في

التغيير والخلق: «تغيير الإنسان المغربي العربي وخلقه من جديد، ليدخل حدود إنسانيته المفتالة»، وخلق «ثقافة جديدة»، من حيث نوعيتها ورؤيتها. وقد تبلور هذا الشعور، لدى هذه المجلة، انطلاقا من الإحساس الذي أصبح ينتاب المثقف المغربي في تلك الفترة وهو مقتنع بأن ثمة أزمة حقيقية تعيشها الثقافة المغربية فكرا وإبداعا، والتي هي جزء من الأزمة الثقافية التي يعرفها العالم العربي».

وتركز هذه المجلة، من خلال ذلك، على ما تسميه بالخاصية القومية العربية، حيث كان هدفا يتمثل في «المساهمة في بعض جوانب الثقافة العربية، تعريفا ومناقشة، في حدود الإمكان والضرورة، وما نقوله في الجانب العربي نعممه على الصعيد العالمي».

٦- دور الجمعيات الثقافية بالمغرب في دعم عملية الإصلاح وإشاعته:

إن الحديث عن دور الجمعيات الثقافية في دعم عملية الإصلاح وإشاعته، هو بمثل حديثنا السابق عن دور المجلات الثقافية في هذا الإطار نفسه. من ثم، سوف نركز حديثنا، بهذا الخصوص، على تلك الجمعيات الثقافية والنوادي والأندية الثقافية التي ظهرت خلال المرحلة التاريخية الأولى، أي منذ إعلان الحماية إلى إعلان الاستقلال، حيث ارتبط عملها، في بداياته، بالنزعة الإصلاحية خصوصا، في بعدها الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني، شأنها في ذلك شأن الصحافة الثقافية، إذ كان العقد الثاني من القرن الماضي حاسما في ظهور عدد من الجمعيات الثقافية وتفتق دورها الثقافي والتوعوي في المناداة بالإصلاح ومواجهة السياسة الاستعمارية (الفرنسية والإسبانية على حد سواء)، تشرف عليها مجموعة من المثقفين الوطنيين المتحمسين للإصلاح، حيث ظهرت في أوائل العشرينيات، في بعض المدن المغربية، العديد من التجمعات والتكتلات الداعية للإصلاح والتجديد.

وقد كان لفاس، من خلال جامعة القرويين، دور بارز في التنوير وفي بعث الروح السلفية والقومية في نفوس الطلبة، فقمنا - يضيف علال الفاسي - «بعدة حركات لإصلاح التعليم الجامعي(...) ثم

أسست مع ثلة من إخواني مجلة شهرية سرية باسم (أم البنين) كانت تصدر بانتظام في أربعين صفحة، وتكرر على (البولي كوبي) ثم توزع على هذه الجماعات السرية بفاس والرباط ومراكش وطنجة وتطوان، وفي الوقت نفسه كنا على اتصال بثلة من إخواننا الذين ذهبوا لإتمام دراستهم بفرنسا والشرق، حيث أخذوا يعملون في جو أصفى وأكثر حرية من جونا، وقد استطاعوا أن يؤسسوا بباريس: «جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا» و«جمعية الثقافة العربية»، ويتصلوا في العطلة الصيفية بشخصيات من بينها عطوفة الأمير شكيب أرسلان، كما استطاع أصدقاؤنا في القاهرة أن يشاركوا في تأسيس «جمعية الشباب المسلمين» و«جمعية الهداية الإسلامية». وحاولنا نحن في الداخل أن نؤسس «جمعية أحباء الطلبة» وأن نعمل لمساعدة فلسطين، فكانت السلطة دائما تجيبنا بالرفض، وتحول بيننا وبين إنجاز ما نريد، وعلى الرغم من ذلك فقد والينا العمل لإنشاء عدة مدارس إصلاحية في مراكز مختلفة..».

كذلك لابد من الإشارة، في هذا الإطار، إلى إحدى الجمعيات الثقافية التي ظهرت بشمال المغرب، وخصوصا في تطوان، «عام ١٩٣٢ عندما أسس الأستاذ عبد الخالق الطريس «جمعية الطالب المغربية» التي مهدت لظهور حزب الإصلاح الوطني..»، وهي الجمعية التي رأت فيها مجلة «المغرب الجديد» كونها: «..الهيئة الأدبية الوحيدة التي تقوم في شمال المغرب بنشر الثقافة بين المواطنين، وتحبيب المعرفة إليهم بمختلف الوسائل من محاضرات واحتفالات، عامة وخاصة، والحق أن تاريخها في الميدان الثقافي تاريخ مجيد..». ومدير هذه المجلة نفسه (الشيخ محمد المكي الناصري) هو من أسس، فيما بعد، «نادي الوحدة المغربية»، ليكون مركزا ثقافيا تابعا لحزب الوحدة المغربية الذي كان يرأسه، حيث كانت من بين أهداف ذلك النادي: «تعميق الشعور بالوحدة المغربية في نفوس المسلمين المغاربة وإعدادهم للسعي في سبيل تحقيقها من جديد، كما أنه مركز للثقافة والتهذيب والتربية القومية الصحيحة...».

الدور نفسه تقريبا، اضطلعت به المجالس والنوادي والأندية الأدبية

بالمغرب، وخصوصا في الرباط (مثلا النادي الجندري بالرباط)، في جمع الأدباء والشعراء للتداول والتحاور فيما بينهم حول القضايا والأحداث الوقتية، إلى جانب الدور اللافت الذي لعبته المحاضرات التي كانت تلقى في جامعة القرويين في التكوين وترسيخ الوعي الوطني والثقافي، وهو جانب يؤكده أحد رموز هذه المرحلة، الزعيم علال الفاسي، في قوله «ومن الاعتراف بالحقيقة ودون الرغبة في أي افتخار يجب أن أقول إنه كان لهذه المحاضرات الدائمة أثرها الفعال في نشر المبادئ الصحيحة والأفكار النيرة وتأييد الحركة الوطنية في الأوساط الشعبية، كما كان لها فضل في تكوين ثلة من الشباب المثقف وتوجيهه الوجهة الصحيحة في القومية والسلفية وملئه بالروح القومية..».

كما لعبت الحركة السلفية حينذاك دورا بارزا في الدفع بالشباب إلى الاهتمام بالشئون العامة والانخراط في العمل الوطني، ومقاومة المشايخ الذين استفادوا من نظام الحماية، وذلك جانب لعبت فيه جامعة القرويين، من خلا ل المحاضرات والدروس الشعبية المهمة التي كانت تلقى فيها، دورا كبيرا في تنوير هؤلاء الشباب والطلبة المتحمسين، بما فيها تلك الدروس التي كان يلقيها علال الفاسي نفسه حول معاني السيرة النبوية والتاريخ الأول للإسلام والمقارنة بين حال المسلمين في العهد الماضي وحالهم اليوم وأسباب تقدم الأولين وانحطاط الأخيرين.

وقد ساهمت المرأة المغربية، كذلك، في هذا المجال الجمعوي الحيوي، من خلال قيام جماعة من نساء المغرب بتأسيس تنظيم نسائي عام ١٩٤٧، في أحضان «حزب الشورى والاستقلال»، اختارت له اسم «أخوات الصفا»، فكان ذلك المؤتمر النسائي الأول من نوعه بالمغرب. وقد تأسست هذه المنظمة بالنظر إلى النزعة الليبرالية الإصلاحية التي تبناها «حزب الشورى والاستقلال» وإيمانه بالإصلاح الاجتماعي، حيث كان مفكروه يربطون بين قضية المرأة، ومسألة تمدين المجتمع وتحديثه، وينظرون إلى تحرير المرأة، باعتباره جزءا من دعوتهم لتوفير الحريات الديموقراطية، مع ما واكب ذلك

من حماس لدى بعض رجالات الحزب المذكور للدفاع عن قضايا المرأة المغربيـــة. ومن بين واجهات عمل الجمعية ودورها الإصلاحي الدعوة إلى تعليم المرأة من أجل التغيير وحب الوطن وخدمة المجتمع والبلاد، إلى جانب محاربة التقاليد والعوائد الضارة.

ذلك جانب مـــن الدور الإصلاحي والتنويري الـــذي كانت تقوم به الجمعيـــات الثقافية والمنتديات والنـــوادي وجامعة القرويين في تلك المرحلة التاريخية الحاسمة، بأسلوب جديد يدفع بالشباب إلى تجديد التفكيـــر في حالهم ومصيرهم، وبشـــكل لم يكـــن قائما في الدروس الوعظية التي كانوا قد اعتادوها في المرحلة نفسها.

إن اهتمام المجلات والجمعيات الثقافية بموضوع «الإصلاح» بشكل عام، في تلك المرحلـــة، كان دائما اهتماما خاصا وممتدا في الزمن، وذا أولوية في سياســـة تلك المجلات وخطهـــا التحريري، وفي عمل تلـــك الجمعيات ونضالاتها مـــن أجل التحرر والحفـــاظ على الهوية العربية والإســـلامية للبلاد، ولم يكن قـــط اهتماما عابرا أو ظرفيا، مرتبطا فقط بالوجود الاستعماري في المنطقة، وذلك لما كان لموضوع الإصلاح من أهمية حيوية قصوى، وتأثير بيِّن، وحظ أوفر في الحياة الاجتماعية والسياســـية والثقافية، حتى قبل ظهور الصحافة بشكل عام.

دور المجلات الثقافية في دعم الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي

د. الحبيب الجنحاني*

أود، بادئ ذي بدء، إبداء الملاحظات التالية:

أولا- لا يمكن الحديث عن ظاهرة «المجلات الثقافية»، وعن دورها في الوعي بالهوية العربية الإسلامية، والوعي بالشعور الوطني بصفة أخص دون الإلماع إلى الظروف التاريخية التي ساعدت على بروز حركة الطباعة، وتأسيس الدوريات في البلدان العربية التي عاشت تجارب تحديثية في القرن التاسع عشر، فالاهتمام بحركة الطباعة والنشر مثل ركنا أساسيًا من أركان برامج تحديثية شملت إصلاح التعليم، وإصلاح أجهزة الدولة، وتعليم اللغات الأجنبية، وإرسال البعثات الطلابية للتعلم في أوربا محاولة من قادة الحركات الإصلاحية العربية الوقوف أمام تسرب النفوذ الأوربي، وقد مثل الخطوة الأولى للاحتلال والاستعمار، وتأتي تونس في طليعة الأقطار العربية التي عاشت تجربة تحديثية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد تم تأسيس المطبعة الرسمية سنة ١٨٦٠، وأنشئت «الرائد التونسي»

* كاتب وأكاديمي من تونس.

بقسميها الرسمي والثقافي العام، كما سمح دخول الطباعة إلى نشر كتب التراث، والمؤلفات المترجمة عن اللغات الأوربية، والكتب الجديدة التي نظرت للتجربة التحديثية، وفي مقدمتها كتاب خير الدين «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» (١٨٦٧)، ونظرا لأن تجربة النشر والطباعة جديدة فقد استعان المصلحون التونسيون بمن لهم خبرة في هذا الميدان من مثقفي المشرق العربي مثل أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) صاحب الجوائب، وحمزة فتح الله المصري (١٨٤٩-١٩١٨)، والصحفي الشامي منصور كرليتي.

ثانيا - مثلت الدوريات الثقافية بشتى أنواعها: مجلات، وصحفًا أسبوعية، وصفحات ثقافية في جرائد يومية منابر لتيارات تجديدية على اختلاف نزعاتها، وأسهمت في إثراء ثقافي ذي رؤية إصلاحية في أكثر الحالات، كما كان لها أثر بعيد المدى في تجديد اللغة، وبروز أسلوب جديد هو أسلوب المقالة الفكرية، والمقالة السياسية.

ثالثا- أسهم إنشاء الدوريات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي مطلع القرن العشرين في تنشيط حركة الترجمة من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية، فقد كان كثير من مقالات «الرائد التونسي» مترجمة عن الفرنسية بصفة خاصة، وجاء الاهتمام بالترجمة خدمة للبرنامج الإصلاحي التحديثي الذي أرسى أسسه خير الدين، فكان الغرض من نقل المعارف الأوربية التعريف بما بلغته الحضارة الحديثة، وقد أسهمت الترجمة في ظهور أسلوب صحفي من جهة، وشيوع مفاهيم سياسية وفكرية في أوساط النخبة من جهة أخرى.

رابعا- لابد من التلميح هنا إلى أن الدوريات الثقافية مثلت في حالات معينة في تونس، وفي غيرها من الأقطار العربية منابر فكرية وسياسية وطنية في الوقت ذاته، بل مثلت أحيانا تجمعا لفئة من رجال النخبة أدى دور الحزب السياسي، كما هو الشأن في حالة جريدة «الحاضرة»، فلا بد إذن من تنزيل رسالة الدوريات الثقافية في مراحلها التاريخية، وفي بيئاتها الوطنية السياسية.

تأسست «الحاضرة» (١٨٨٨-١٩١١) بعد سنوات معدودات من فرض الهيمنة الاستعمارية على البلاد التونسية، وفشل المشروع الإصلاحي

الذي قاده خير الدين أملا في إمكانة الوقوف أمام أطماع فرنسا في تونس، فشل المشروع سياسيا، ولكنه نجح في غرس بذرة الإصلاح والتحديث، وهو الجانب الذي هدفت «الحاضرة» إلى مواصلة السعي لإحيائه في ظرفية سياسية جديدة، وقد كان لها دور بعيد المدى في ميلاد الحركة الوطنية التونسية، فقد تعاهد مؤسسوها على «حب البلاد.. وتصافحوا على ما يفيد العباد»، كما جاء في العدد الأول منها.

تحدث الزعيم المغربي علال الفاسي في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» عن مؤسس «الحاضرة» علي بوشوشة (١٨٥٩-١٩١٧) قائلا: «أبرز هؤلاء الشبان (يعني الجماعة التي أسست الحاضرة)، وأقواهم شخصية هو السيد علي بوشوشة صاحب جريدة الحاضرة، فاستطاع أن يجمع من حول الجريدة كتلة قوية من أصدقائه، وغيرهم من المثقفين الزيتونيين والمدرسيين، وقاموا بحركة قومية ودينية ترمي إلى تقوية روابط القطر التونسي بحركة الجامعة الإسلامية».

أما رائد الجماعة ومنظرها البارز فهو البشير صفر (١٨٦٣-١٩١٧)، وقد نعت بأنه أب النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين، وقد تأثر به زعماء حركة «الشباب التونسي» الذين تزعموا الحركة الوطنية والإصلاحية في مطلع القرن العشرين مثل الزعيم عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٥-١٩٤٤)، وعلي باش حانبة (١٨٧٩-١٩١٨)، وأخيه محمد باش حانبة (١٨٨١-١٩٢٠).

ويمكن أن نلخص القضايا المحورية التي عالجتها «الحاضرة» في النقاط التالية:

- الذود عن الهوية العربية الإسلامية للبلاد.
- التفاعل مع القضايا العربية والإسلامية مشرقا ومغربا.
- وطرحوا في مجال الفكر الإصلاحي التساؤل الكلاسيكي: «لماذا تأخر المسلمون، وتقدم غيرهم»؟
- التعريف بالماضي الزاهر للحضارة العربية الإسلامية باعتباره حافزا لهم على التمسك بالهوية الحضارية.
- التوفيق بين الشريعة الإسلامية والأخذ بأسباب التقدم الذي

تعرفـوا إليه عن كثب غداة اتصالهم المباشـر بالنهضة الأوربية، ويمثل ذلـك الفكرة المحوريـة التي تقوم عليها مقدمة «أقوم المسـالك» لخير الدين.

ألمعنـا قبل قليل إلـى أن جماعة «الحاضرة» لم تكتـف بأداء دورها الإعلامي التنويري، بل شـكلت نواة لحزب سياسـي إصلاحي معتدل، ومن هنا جاء اهتمامها بتأسـيس جمعيـات أهلية ذات طابع اقتصادي وثقافي، ومن أبرز هذه المؤسسـات «الجمعية الخلدونية» التي أسسوها عام ١٨٩٦، ودشـنت رسميا سـنة ١٨٩٧ بمحاضرة أحد رواد الحركة الإصلاحية، وصديق خير الدين الشيخ سالم بوحاجب (١٨٢٧-١٩٢٤) حول أهمية العلم والتعليم في الإسـلام تحت عنوان «وعلم آدم الأسماء كلها».

أسسـوا «الخلدونية» جمعية أهلية مستقلة عن السلطة الاستعمارية بعـد أن انحرفت «الصادقية» التي أسسـها خير الدين عام ١٨٧٥ عن أهدافها التي بعثت من أجلها، وهي تنشئة جيل يخدم المشروع الإصلاحي التحديثي الذي وضع أسسه النظرية في كتابه «أقوم المسالك».

وممـا يؤكد مـا ذهبنا إليه قبـل قليل، وهو أن جماعـة «الحاضرة» نظروا إلى أنفسـهم باعتبارهم حزبا سياسـيا إصلاحيا فقد تجاوزوا الحـدود الوطنية، والقضايا الداخلية ليتفاعلـوا مع الحركات الوطنية والإصلاحيـة فـي العالم العربي الإسـلامي، فقد نوه علال الفاسـي بالمقالات التي نشرها البشير صفر في جريدة «الحاضرة»، مدافعا عن اسـتقلال المغرب الأقصى ووحدته بعد أن انكشـف المخطط الفرنسي لاحتلالـه، وكانت تربطهـا علاقات متينة مع حركة الدسـتور المغربية التي نشـرت مقالات متعددة في «الحاضرة» سنة ١٩٠٩ هاجمت فيها السـلطان عبد العزيز مطالبة إياه سلوك سياسة حازمة لوقاية المغرب من مؤامرات الاستعمار الفرنسي، وبخاصة بعد توقيع معاهدة الصداقة عام ١٩٠٤.

أما العلاقات الثرية والمتنوعة فقد كانت مع رواد تيار الفكر الإصلاحي بالمشـرق العربـي، ولهذه العلاقات تقاليد راسـخة تعـود إلى اهتمام المصلحين التونسـيين بمؤلفات الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-

١٨٧٣)، وخصوصا «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، ويصف الطهطاوي خير الدين بحكيم السياسة.

وكانت للحاضرة صلة بجمال الدين الأفغاني، وسعت إلى نشر آرائه في صفوف النخبة التونسية فاتهمها الحزب الصيادي بالأستانة (نسبة إلى أبي الهدى الصيادي ١٨٤٩-١٩٠٩) بتأييد الأفغاني، ونشر آرائه المناوئة للخليفة، وكان السيد جمال الدين مواكبا على متابعة نشاط النخبة التونسية، ومطالعا لما تنشره «الحاضرة»، ومن الثابت أن مدير الجريدة قد سافر إلى عاصمة الخلافة العثمانية، والتقى بالسيد جمال الدين، وشهرت جريدة المحروسة المصرية الموالية لأبي الهدى الصيادي بهذا اللقاء قائلة: «إن الأستاذ علي بوشوشة قد اجتمع قبل رجوعه إلى تونس ببعض من لا خلاق لهم»، وهي تعني الأفغاني (ع. العريبي، ص٣٢٨). ومن المعروف أن العلاقة قد توطدت بين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده منذ إصدارهما مجلة «العروة الوثقى» بباريس، وأذهب إلى القول في هذا الصدد إلى أن جماعة «الحاضرة» قد كانت متأثرة إلى حد بعيد بتجربة «العروة الوثقى»، وهي التي مثلت جسرا متينا بين التيار الإصلاحي التونسي وبين زعيمي الحركة الإصلاحية المشرقية يومئذ: الأفغاني، وعبده، فقد زار الشيخ عبده تونس مرتين، الأولى عام ١٨٨٤ قادما من باريس، والثانية عام ١٩٠٢ قادما من الجزائر، ورحبت به «الحاضرة» في زيارته الثانية، ونشرت محاضرته الشهيرة التي ألقاها على منبر «الخلدونية» تحت عنوان «العلم وطرق التعليم»، وهو الموضوع الذي ركز عليه محمد عبده باعتباره دعامة الإصلاح الديني والاجتماعي، وخصوصا بعد اختلافه مع أستاذه السيد جمال الدين، وقد لقيت دعوته صدى واسعا بين المثقفين التونسيين بفضل الحيز الكبير الذي خصصته للمحاضرة، ولنشاط صاحبها في تونس بصفة أعم.

انحازت جماعة «الحاضرة» إلى موقف محمد عبده بعد أن اتضحت أسباب الخلاف بين الأفغاني وتلميذه عبده، ويمكن تلخيصها في سبب جوهري يتمثل في إيمان السيد جمال الدين بأن الإصلاح ينبغي أن

يبدأ بالإصلاح السياسي، أي مقاومة الحكم المطلق الاستبدادي في الداخل، ومقاومة الاحتلال الأجنبي في الوقت ذاته، ولا يمكن إنجاز مشروعات إصلاحية أخرى قبل الإصلاح السياسي، أما الشيخ عبده فقد ذهب إلى أن عملية الإصلاح ينبغي أن تركز على التربية والتعليم، ونشر العلوم العصرية، وهي التي تكمن وراء تقدم الغرب كما يرى، وهي الرؤية التي بشر بها في تونس أثناء زيارتيه، وقد تبنتها جماعة «الحاضرة»، وهي بعيدة كل البعد عن اتخاذ مواقف سياسية ضد حكم الباي، أو سلطة المحتل، وقد برهنت أحداث العالم العربي الإسلامي بعد ما يقرب من قرن ونصف على بروز الخلاف بين الأستاذ وتلميذه على صواب الرؤية الأفغانية.

ولا يمكن أن ننهي هذه الفقرة دون الإشارة إلى أن جماعة «الحاضرة» لم يقتصر تفاعلها على التيار الإسلامي الإصلاحي في المشرق العربي فحسب، بل شمل أيضا حركات التحرر الوطني، إذ نشرت أخبارا عن الحزب الوطني، وعرفت بزعيمه ومؤسسه مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨)، كما رحبت بمحمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩)، وقد زار تونس مرتين، وربطته علاقات صداقة بجماعة «الحاضرة».

***

عرفت الصحافة الوطنية بصفة عامة، والدوريات ذات الطابع الفكري والثقافي بصفة أخص تحولا واضحا في مطلع القرن العشرين تزامن مع ميلاد الحركة الوطنية الحديثة غداة تأسيس جماعة «الشباب التونسي»، وصدور لسان حالها باللغة الفرنسية جريدة «التونسي» عام ١٩٠٧، وينحدر زعماء الحركة الجديدة من أسر البورجوازية التقليدية للمدن الكبرى، وبخاصة لمدينة تونس، ويتحدر أكثرهم من أصول تركية، فقد كان زعيمهم علي باش حانبة متأثرا بحركة الشباب العثماني، وحركة الوطنيين في سورية ومصر أكثر من تأثره بحركة الإصلاح الديني التي تزعمها جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده، وتخرج جلهم من المدارس الفرنسية، وتبنوا في المرحلة الأولى سياسة المشاركة والاندماج، واستمرت هذه المرحلة إلى سنة ١٩١٢ بعد إعلان حالة الطوارئ غداة الانتفاضة الشعبية التي عاشتها مدينة

تونس، والمعروفة بحوادث «الجلاز». مثلت جريدة «التونسي» ظاهرة جديدة في تاريخ الصحافة الوطنية، الا وهي صدور صحف بالفرنسية ناطقة باسم الأحزاب الوطنية، ولعل السبب في ذلك يعود بالأساس إلى التوجه للرأي العام الفرنسي من جهة، والرد على صحف الجالية الاستعمارية المهاجمة للحركة الوطنية الفتية، والمندة بزعمائها من جهة أخرى، ملاحظا أن جل مؤسسي حركة «الشباب التونسي» من ذوي الثقافة الفرنسية، وكتبوا أساسا بالفرنسية، ولكن تأثير التيار العروبي الإسلامي قد تواصل، وأبرز من مثله في صفوف «الشباب التونسي» الزعيم الإصلاحي عبد العزيز الثعالبي، وهو من تلامذة الشيخ سالم بوحاجب، ومن المتأثرين بالثنائي الأفغاني- عبده، وقد بدأت تجربته في الميدان الإعلامي وهو في سن العشرين لما أصدر جريدة «سبيل الرشاد» عام ١٨٩٥، وقد عرف برسالتها بالصفحة الأولى من العدد الأول (١٨٩٥/١٢/١٦) قائلا: إنها «جريدة علمية أدبية سياسية تاريخية»، وخصص ركنا من أركانها لقضايا الفنون الأدبية، والعلوم الفلسفية.

وليس من المبالغة في شيء الإصداع هنا بأن الثعالبي بقي وفيا للسنة التي سنتها جماعة «الحاضرة»، فهو من أنصار الجامعة الإسلامية، ومن المدافعين عن الخلافة العثمانية، فقد كتب عنه رفيقه في الحركة الإصلاحية الإسلامية عجاج نويهض يقول: «إنه خطيب من الطراز الأول أخذ عن جمال الدين الأفغاني حماية بيضة الإسلام، ومن عبد الرحمن الكواكبي السياحة، ودراسة شئون العرب المسلمين عن كثب، وقد جمع الثعالبي بين التنظيم القومي العملي، والقدرة العجيبة على الحديث الشهي الذي يحول به الحقائق الفلسفية إلى طعام ذهني».

ويعد هذه التجربة المبكرة في مجال النشر والصحافة سافر إلى الشرق، واتصل برجال الإصلاح في عاصمة الخلافة، وفي مصر، ولما عاد إلى تونس، وانضم إلى حركة «الشباب التونسي» أصدر جريدة «الاتحاد الإسلامي» (أكتوبر ١٩١١)، وقد نعتت نفسها بأنها جريدة «الشعب»، وقد برهنت مقالاته في الصحيفة الجديدة على التحول الذي عرفه فكر الثعالبي السياسي، وبخاصة موقفه من الحكم الاستبدادي،

وآثاره السلبية على الوضع العربي الإسلامي يومئذ. وقد لمس عن كثب في الأستانة ويلات الحكم الاستبدادي العثماني، فندد بالخصوص بعلماء السوء الذين ساندوا الحكم المطلق، وأضفوا الشرعية على سلطة غير شرعية، فقد كتب في افتتاحية العدد الأول يقول:

«كل ذلك وعلماء السوء كانوا يبررون أعمال هؤلاء الجبابرة الطغاة، ويدعون لهم على المنابر، ويقرنون ذكرهم بذكر الله مقابل ما كانوا يتقاضونه منهم من العطايا والهبات».

إن تأثير الثعالبي في الفكر الإسلامي الإصلاحي المعاصر قد تجاوز تونس، ومصر، وفلسطين، وعاصمة الخلافة العثمانية ليبلغ شبه القارة الهندية، وسومطرة، وسيلان، وسنغافورة، واليمن، والكويت.

***

يتميز الربع الأول من القرن العشرين ببروز ظاهرة المجلات ذات الموضوعات العامة، ونجد ضمنها أبوابا مخصصة للأدب، والثقافة بصفة أعم، وتكاد تتخصص مجلات أخرى في طرح القضايا الثقافية، وهي دوريات ذات رؤى متباينة أسسها أفراد، أو جماعات انتبهوا إلى أهمية العمل الثقافي في نشر الوعي، والذود عن الهوية الحضارية للشعب التونسي، وقد عانى جلها من صعوبات حالت دون استمرار صدورها بانتظام، ولذا يلاحظ الدارس لهذه الدوريات توقفها بعد صدور أعداد قليلة نذكر من بين هذه المجالات:

- السعادة العظمى (١٩٠٤-١٩٠٥)، وهي تعتبر أول مجلة تونسية تصدر بالعربية، وقد أسسها أحد شيوخ الزيتونة محمد الخضر حسين (١٨٧٦-١٩٥٨)، وهو يصنف ضمن التيار الزيتوني المحافظ، وقد رحل إلى المشرق العربي فدرس بدمشق، ثم عاش فترة في عاصمة الخلافة، وقد أرسلته القيادة التركية الجديدة في مهمة إلى برلين أثناء الحرب العالمية الأولى، واستقر بعد ذلك في مصر، وأصبح من أشهر شيوخ الأزهر، وقد تقلد في المرحلة الناصرية منصب مشيخة الأزهر.

أما الموضوعات التي تناولتها المجلة (وكان أغلبها من تحرير مؤسسها) فهي:

- المباحث العلمية.

- الآداب، وهو الركن، المخصص للشعر، وللإبداع الأدبي.
- الحكم، والموضوعات ذات الطابع الأخلاقي.
- قضايا الإصلاح، والدعوة إلى الأخذ بأسباب المدنية.

ولا ننسى الإشارة في هذا الصدد إلى أن مؤسس المجلة هو من تلامذة الشيخ سالم بوحاجب، فقد كتب في العدد الثاني عشر عن «مدنية الإسلام والعلوم العصرية»، ونشر قصيدة تحض أبناء جيله على الأخذ بأسباب نهضة جديدة تعيد للمسلمين قوتهم ومكانتهم في العصر الحديث، وقد ختمها قائلا:

إن المعارف والصنائع عدة

باب الترقي من سواها موصد

- «خير الدين» (١٩٠٦) يكشف اسم المجلة على اتجاهها منذ العدد الأول، وهو الدفاع عن مشروع خير الدين التونسي، وقد قدمه مؤسسها الصحفي التونسي المشهور محمد الجعايبي (١٨٨٠-١٩٣٨) مصلحا كبيرا، وسياسيا محنكا تجاوزت رسالته حدود القطر التونسي ليشمل إصلاح الرجل المريض: الخلافة العثمانية (تولى الصدارة العظمى في الاستانة)،

ومن أبرز المسائل التي تناولتها المجلة قضية المرأة، وقضية اللغة العربية باعتبارها الدعامة الصلبة للنهضة العربية، وكان لها فضل نشر أول نص روائي عرفه الأدب التونسي الحديث بعنوان «الهيفاء وسراج الليل» للأديب القيرواني صالح السويسي (ت عام ١٩٤١).

وتوقفت «خير الدين» في نفس السنة التي صدرت فيها، وهي تلتقي في هذه الظاهرة مع كثير من المجلات الثقافية التي صدرت قبل الاستقلال.

- «الفجر» (١٩٢٠-١٩٢٢) كان لهذه المجلة أثر بعيد المدى في الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي، وعلى الرغم من دفاعها عن الجامعة الإسلامية في المجال السياسي، وعن الإسلام الاجتهادي في مجال الفكر الإسلامي فقد تبنت مبدأ الإفادة من النهضة الأوربية الحديثة، ونادت بمبدأ حرية المواطن، بل ذهبت بعيدا فأعلنت أن المسلمين ليسوا مطالبين بطاعة سلطة غير شرعية تتنكر لقيم الشورى

والحرية في الإسلام، كما أشادت بحرية الصحافة باعتبارها الأس المتين لكل نهضة، أما قضايا اللغة والثقافة فقد تبوأت مكانة بارزة بين أركان المجلة، إذ إننا نجد دعوة متواصلة لتجديد اللغة العربية كي تستطيع مواكبة تطورات العصر الحديث، ودعت إلى تعلم اللغات الحية لتكون نافذة على الحضارة الأوروبية، وفتحت صفحاتها في الوقت نفسه للتعريف بالتراث العربي الإسلامي.

أما المسائل الأدبية فقد حظيت بحيز بارز بين القضايا التي عالجتها المجلة فنشرت إنتاج كثير من أدباء المشرق العربي إلى جانب الأدباء التونسيين.

- «البدر» (١٩٢٠- ١٩٢١)، إن المتصفح لأعداد هذه المجلة يلمس في يسر اهتمامها بقضايا الجامعة الإسلامية، وبإبراز دور مناصري الخلافة العثمانية من التونسيين، فقد عرفت القراء بشيخين من شيوخ الزيتونة عرفا المنفى دفاعا عن الجامعة الإسلامية، وتوفيا في دار الغربة، وهما الشيخ إسماعيل الصفايحي (١٨٥٢-١٩١٩)، والشيخ صالح الشريف (١٨٦٠-١٩٢٠)، وقد انغمسا في قضايا السياسة في بعديها الوطني والإسلامي على غرار تلميذهما الزعيم عبد العزيز الثعالبي، ولذا نجد المجلة قد دافعت عن مقولة «الإسلام دين ودولة»، وعن ضرورة اهتمام العلماء بالسياسة متخذة من تجربة ابن خلدون مثالا يحتذى.

تلتقي «البدر» مع المجلات الثقافية الصادرة بين الحربين العالميتين في اهتمامها بقضية اللغة العربية، مؤكدة أنه لا يمكن إنجاز نهضة عربية حديثة دون تحديث العربية وتطويرها لتصبح قادرة على التعبير عن القضايا المعاصرة، وقد جعلها هذا التوجه تعرف بالنصوص التراثية التي كتبت بلغة أدبية راقية، فاستعانت في ذلك بابن المقفع، وابن أبي طاهر، والمعري من القدامى، وبمعروف الرصافي (١٨٧٥-١٩٤٥)، وجميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦)، والمنفلوطي (١٨٧٢-١٩٢٤) من أدباء المشرق العربي، وذلك إلى جانب الأدباء التونسيين مثل محمد الخضر حسين، وسعيد أبو بكر، كما نشرت المجلة نصوصا معربة لكبار الكتاب الفرنسيين.

ولما توقفت «البدر» عوضتها مجلة «العرب» (١٩٢٣-١٩٢٤) بإدارة كاتب تونسي تبوأ مكانة مرموقة في تاريخ المجلات الثقافية التونسية وأعني زين العابدين السنوسي، وقد كان ضمن زمرة جماعة «البدر»، ولذا فقد اتبعت المجلة الجديدة المنهج الذي سارت عليه «البدر» في اهتمامها بقضية اللغة العربية، وفي تفتحها على الأدب المشرقي، وفي تعريفها بالتراث العربي الإسلامي، ولكنها أفردت حيزا أكبر للأدب، ونشر فيها كبار الأدباء.

تزامن صدور مجلة «العرب» مع أحداث سياسية كبرى عاشتها تونس، والمغرب العربي (ثورة الريف)، وبداية تأسيس الحركة العمالية ذات الطابع الوطني بقيادة محمد علي الحامي (١٨٩٠-١٩٢٨)، وقضية الخلافة في المشرق، وبداية المقاومة الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وغيرها من القضايا السياسية المطروحة على الساحة العربية يومئذ.

كل هذه القضايا جعلت صاحب المجلة يخصص ملحقا سياسيا صدر مع المجلة فالتحمت الثقافة بالنضال السياسي والاجتماعي التحاما شديدا، وقد تواصلت الظاهرة في المجلات الثقافية إلى استقلال البلاد.

***

دخلت المجلات الثقافية مرحلة جديدة ابتداء من الثلاثينات اتسمت بتعدد المنابر، وبالتجديد الفكري والأدبي، وبروز أقلام جديدة، وسنقف عند أبرزها لما تمثله من أهمية كبرى في التأريخ للثقافة التونسية الحديثة، وهي «العالم الأدبي»، و «المباحث»، و«الثريا»، و«الندوة»، ولكن لابد من الإشارة إلى دوريات أخرى كان لها أيضا أثر بعيد المدى في النهضة الثقافية التي عرفتها تونس في مرحلة ما بين الحربين، وأعني الصحيفة الأسبوعية «الشباب» (١٩٣٦-١٩٣٧) التي أسسها محمود بيرم التونسي (١٨٩٣-١٩٦١) في مرحلة منفاه بتونس، فقد خصص قسما كبيرا من الصحيفة للسياسة فهاجم السياسة الاستعمارية، ووجه في الوقت نفسه نقده الهزلي اللاذع إلى المتعاونين مع الاستعمار، كما ناصر التيار السياسي المجدد الذي تزعمه الزعيم الحبيب بورقيبة،

وناصر تحرر المرأة، منددا بمظاهر الجمود، والفكر الأسطوري.

ومن الطبيعي أن يخصص الكاتب والشاعر الكبير بيرم التونسي حيزا بارزا للأدب والفن، وبحكم صلته بالشعر الغنائي، وبالوسط الفني بصفة عامة فقد كانت جريدته رائدة في العناية بالحياة الفنية، وهي ظاهرة جديدة، أو تكاد لم تعرفها الدوريات الثقافية من قبل.

أما «المجلة الزيتونية» (١٩٣٦-١٩٥٥) فقد أسسها شيوخ الزيتونة لتعبر عن رؤاهم في القضايا الإسلامية بالدرجة الأولى، ولكنها لم تهمل قضايا اللغة والأدب، وقد تناولتها من وجهة نظر محافظة.

***

وأعود إلى «العالم الأدبي» (١٩٣٠-١٩٣٦) لأشير إلى أنها تمثل المجلة الأولى المتخصصة في قضايا الأدب العربي الجديد، فقد كانت منبرا للمجددين في فن المقالة، وفي الشعر، والنصوص السردية، وكذلك في الميدان المسرحي، ولم تهمل الترجمة.

وقد نشر فيها جل الأدباء التونسيين المعروفين في تلك الفترة، كما نقرأ فيها نصوصا لأدباء المشرق العربي، وقد عرفت بموقفها المناصر للمصلح التونسي المدافع عن حرية المرأة الطاهر الحداد (١٨٩٩-١٩٣٥)، لما أصدر كتابه الشهير «امرأتنا في الشريعة والمجتمع»، وعرفت بالشاعر النابغة أبي القاسم الشابي (١٩٠٩- ١٩٣٤)، كما تصدت لممثلي التيار المحافظ في الفكر والأدب.

وتميزت «المباحث» في سلسلتها الثانية (١٩٤٤-١٩٤٧) بتمثيلها لجيل جديد من المثقفين التونسيين عرفوا باطلاعهم الواسع على الثقافة الغربية، ومعرفتهم في الوقت ذاته بالأدب العربي القديم، فقد تخرج بعضهم من جامعة السوربون في اختصاص الأدب العربي، ونجد في مقدمتهم الكاتب التونسي المعروف محمود المسعدي، وقد علقت جماعة «المباحث» آمالا كبرى على هبوب رياح الحرية على بلادهم بعد انتصار قوى الديمقراطية على النازية، وآمنوا برسالة المثقف في تغيير الأوضاع المتردية، ولكن سرعان ما خيبت الأيام ظنونهم، إذ إن الإدارة الاستعمارية قد واصلت سياستها التعسفية فاشتدت الرقابة على الصحافة، كما تعرب عن ذلك رسالة أسرة المجلة إلى الكاتب

الفرنسي الشهير، والوزير المشرف على الإعلام يومئذ أندري مالرو (راجع المباحث، أكتوبر ١٩٤٥).

وقد حددت «المباحث» رسالتها في العدد الأول من السلسلة الثانية تحت عنوان «تزول الأعراض ويبقى الجوهر» قائلة:

«ولا تريد هذه المجلة أن تتنصب للدفاع عن مذهب دون مذهب، والتعصب لفريق دون فريق، وإنما هي تود أن تكون مرآة صافية، صادقة لما يستطيعه كل تونسي من مفيد البحث والتفكير والابتكار» (المباحث، ١٠/٤/١٩٤٤).

ومن الأهداف التي حددتها الدفاع عن صفاء الإسلام، ومقاومة البدع، وآفاق الدخلاء، وعلل الشعوبية، ولكن الرقابة الاستعمارية وقفت حائلا بينها وبين خدمة هذا الهدف السامي، وبخاصة في مستوى المغرب العربي، «لكن سامح الله الرقابة، وعجل بدفنها حتى يكون للحرية معنى...» (عدد مارس ١٩٤٥).

دافعت «المباحث» عن اللغة العربية، وتصدت لمحاولات الإدارة الاستعمارية تهميش الثقافة العربية وإهمالها، ولكنها نادت في الوقت نفسه بضرورة التفتح على الثقافات الغربية، وبخاصة الثقافة الفرنسية، معللة ذلك بما عرفته الحضارة العربية أيام ازدهارها من التفتح على ثقافات الشعوب الأخرى.

وعرف موقفها تجاه القضايا السياسية مراحل مختلفة، وأصبحت في مرحلتها الأخيرة - وبعد خيبة الأمل في سلوك الإدارة الاستعمارية سياسة اعتدال وانفراج- منارة لحركات التحرر الوطني في تونس، وفي العالم العربي الإسلامي (ر. افتتاحية عدد أغسطس- سبتمبر ١٩٤٦).

أما مجلة «الثريا» (١٩٤٣- ١٩٥٠) فقد كان لها أثر بعيد المدى في خدمة الأدب التونسي، وفي التعريف بكثير من الأقلام التونسية، وأولت عناية خاصة بأدب أقطار المغرب العربي، ونشر فيها أدباء مقهى «تحت السور» إنتاجهم، وكان لصاحبها علاقة متينة بهم، ومن المعروف أن جماعة مقهى «تحت السور» قد أثرت تأثيرا عميقا في الحياة الأدبية والفنية التي عاشتها تونس في الأربعينات (ر. عنهم ما كتبه أحد أفرادها

البارزين علي الدوعاجي في جريدة «الأسبوع»٩،١٦، ٣٠/٠٦/١٩٤٦).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ارتباط صاحب المجلة بالإدارة الاستعمارية قد أثر في سمعتها في أوساط النخبة على الرغم من ما أدته من خدمة للثقافة التونسية.

صدرت قبل استقلال تونس بسنوات معدودات مجلة «الندوة» (١٩٥٣-١٩٥٧)، وتعد مجموعتها مرجعا ثريا وأساسيا للتعرف إلى رؤى النخبة المثقفة التونسية في مرحلة حاسمة من مراحل حركة التحرر الوطني، فقد صدرت بعد مرور سنة على اندلاع الانتفاضة المسلحة للشعب التونسي من أجل الحرية والاستقلال (يناير ١٩٥٢)، كما أنها تتميز بنشر مقالات لعدد من المثقفين التونسيين الذين تحملوا مسئوليات سياسية في أجهزة الدولة الوطنية الفتية غداة الاستقلال، وساهمت فيها أقلام فئتي النخبة المثقفة التونسية: فئة الزيتونيين، وفئة المدرسيين في فترة حاسمة من تاريخ البلاد التحم فيها نضال النخبة من أجل استرجاع سيادة البلاد، ثم الإسهام في بناء الدولة الوطنية الحديثة.

وعندما يتساءل المرء عن موقف أسرة «الندوة» من الأحداث السياسية التي عاشتها البلاد، وقد صدرت المجلة، والانتفاضة الشعبية مشتعلة، كما ألمعنا إلى ذلك قبل قليل، فإنه يلمس الحذر كل الحذر، فهي تشير من بعيد إلى كفاح الأمم المغلوبة (كلمة الندوة، عدد يوليو- أغسطس ١٩٥٤)، وتلمح بعد نيل تونس استقلالها الداخلي (يونيو ١٩٥٥)، وعودة المجلة في سلسلتها الرابعة إلى الظروف السياسية التي أوجبت عليها الانكماش (راجع افتتاحية عدد يناير ١٩٥٦).

ولا بد من القول في نهاية هذا النص: إنه لا يمكن البتة التأريخ لتيارات الفكر والأدب التونسيين من جهة، ولرسالة العمل الثقافي في دعم الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي من جهة أخرى دون دراسة الدوريات الوطنية الصادرة بين ١٨٨١ و١٩٥٦.

المحتويات (العدد ٧٠) ١٥ اكتوبر ٢٠٠٧



أسعار النسخ وقيمة الاشتراكات

الكويت	١دينار	الجزائر	١٢٠دينارا
السعودية	١٥ريالا	اليمن	١٥٠ريالا
الأردن	١دينار	قطر	١٥ريالا
سوريا	٥٠ ليرة	سلطنة عمان	١ريال
البحرين	١دينار	لبنان	٥٠٠٠ ليرة
مصر	٢جنيه	الإمارات	١٥درهما
السودان	٢٠٠, جنيه	المغرب	٢٠درهما
تونس	٢دينار		

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية

الاشتراك في الكويت ٥ دنانير

في الدول العربية ٨ دولارات أمريكية

خارج الوطن العربي ١٦ دولاراً أمريكيا.

الاشتراكات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام
ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت الرمز البريدي ١٣٠٠٨
على طالب الاشتراك تحويل القيمة
بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام.

مكتب العربي الرئيسي في الكويت

ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ - شارع ٤٧ - قسيمة ٣
هاتف البدالة 86 / 82 / (00965)2512081
فاكس: (00965) 2512044

P.O.Box: 748 / Al Safat Kuwait.
E.mail: alarabimag@alarabimag.net
www.alarabimag.net

المراسلات باسم رئيس التحرير

مكاتب العربي في الخارج

القاهرة: الدقي - ٢٢ شارع البطل عدنان عمر صدقي
متفرع من شارع مصدق -
هاتف: ٣٣٧٢٩٣٨ (٠٢)
بيروت: ص ب ٧٠٨٢٧ أنطلياس / لبنان
هاتف: ٤٠٨٤٠٧ (٠٣)
فاكس: ٤٠٥٠٧٢ (٠٤)

اصدارات كتاب العربي

١- الحرية	د. أحمد زكي «يناير ١٩٨٤»
٢- العلم في حياة الإنسان	د. عبد الحليم منتصر «أبريل ١٩٨٤»
٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٤»
٤- العروبة والإسلام وأوربا	د. محمود السمرة «أكتوبر ١٩٨٤»
٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي	مجموعة كتاب «نوفمبر ١٩٨٤»
٦- طبائع البشر	د. فاخر عاقل «يناير ١٩٨٥»
٧- حوار.. لامواجهة..	د. أحمد كمال أبو المجد «أبريل ١٩٨٥»
٨- آراء ودراسات في الفكر القومي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٥»
٩- أضواء على لغتنا السمحة	محمد خليفة التونسي «أكتوبر ١٩٨٥»
١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٦»
١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر	د. حازم الببلاوي «أبريل ١٩٨٦»
١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال	د. فخري الدباغ «يوليو ١٩٨٦»
١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٦»
١٤- المسلمون والعصر	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٧»
١٥- من أسرار الحياة والكون	د. عبد المحسن صالح «أبريل ١٩٨٧»
١٦- دراسات حول الطب الوقائي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٧»
١٧- خطاب إلى العقل العربي	د. فؤاد زكريا «أكتوبر ١٩٨٧»
١٨- المسرح العربي بين النقل والتأصيل	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٨»
١٩- الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٨»

٢٠- اندلسيات	محمد عبد الله عنان «يوليو ١٩٨٨»
٢١- ماذا في العلم والطب من جديد؟	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٨»
٢٢- الإسلام والعروبة في عالم متغير	د. عبد العزيز كامل «يناير ١٩٨٩»
٢٣- الطفل العربي والمستقبل!	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٩»
٢٤- القصة العربية أجيال وآفاق	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٩»
٢٥- تاريخنا ... وبقايا صور	د. شاكر مصطفى «أكتوبر ١٩٨٩»
٢٦- الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟	مجموعة كتاب «يناير ١٩٩٠»
٢٧- نافذة على فلسفة العصر	د. زكي نجيب محمود «أبريل ١٩٩٠»
٢٨- نظرات في الأدب والنقد	عبد الرزاق البصير «يوليو ١٩٩٠»
٢٩- الإسلام وضرورة التغيير	د. محمد عمارة «يوليو ١٩٩٧»
٣٠- الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين	مجموعة كتا « أكتوبر ١٩٩٧»
٣١- القصة العربية.	مجموعة من الكتاب «يناير١٩٩٨»
٣٢ - أرقام تصنع العالم	محمود المراغي « أبريل ١٩٩٨ »
٣٣ - على جناح طائر	د. شاكر مصطفى « يوليو ١٩٩٨ »
٣٤ - المسلمون من آسيا إلى أوربا	مجموعة من الكتاب « أكتوبر ١٩٩٨»
٣٥ - إسبانيا.. أصوات وأصداء عربية	مجموعة من الكتّاب « يناير ١٩٩٩»
٣٦ - ثورات في الطب والعلوم	مجموعة من الكتاب «أبريل ١٩٩٩»
٣٧ - نبش الغراب في واحة العربي	محمد مستجاب «يوليو ١٩٩٩»
٣٨ - المثقفون والسلطة في عالمنا العربي	أحمد بهاء الدين «أكتوبر ١٩٩٩»



اصدارات كتاب العربي

٣٩ - التعبير بالألوان	مجموعة من الكتّاب «يناير ٢٠٠٠»
٤٠ - حضارة الحاسوب والإنترنت	مجموعة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٠»
٤١ - شهرزاد تبوح بشجونها	مجموعة من الكاتبات «يوليو ٢٠٠٠»
٤٢ - قوافي الحب والشجن	نخبة من الشعراء «أكتوبر ٢٠٠٠»
٤٣ - الطب البديل	د. محمد المخزنجي «يناير ٢٠٠١»
٤٤ - منمنمات تاريخية	سليمان مظهر «أبريل ٢٠٠١»
٤٥ - الإسلام والتطرف	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠١»
٤٦ - الطريق إلى المعرفة	د. أحمد أبو زيد «أكتوبر ٢٠٠١»
٤٧ - إيقاع على أوتار الزمن	د. نقولا زيادة «يناير ٢٠٠٢»
٤٨ - دمار البيئة... دمار الإنسان	مجموعة من الكتّاب «أبريل ٢٠٠٢»
٤٩ - الإسلام والغرب	مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٢»
٥٠- ثقافة الطفل العربي	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٢»
٥١- الثقافة الكويتية أصداء وآفاق	د. سليمان العسكري وآخرون «يناير ٢٠٠٣»
٥٢- جمال العربية	فاروق شوشة «أبريل ٢٠٠٣»
٥٣- كلمات من طمي الفرات	نخبة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٣»
٥٤- مرفأ الذاكرة	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٣»
٥٥- مستقبل الثورة الرقمية	نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٤»

٥٦- فلسطين روح العرب الممزق — نخبة من الكتاب «ابريل ٢٠٠٤»

٥٧- مراجعات في الفكر القومي — د.محمد جابر الأنصاري «يوليو ٢٠٠٤»

٥٨- الأندلس صفحات مشرقة — نخبة من الكتاب «اكتوبر ٢٠٠٥»

٥٩- الغرب بعيون عربية (الجزء الأول) — نخبة من الكتاب «يناير ٢٠٠٥»

٦٠- الغرب بعيون عربية (الجزء الثاني) — نخبة من الكتاب «أبريل ٢٠٠٥»

٦١- المعرفة وصناعة المستقبل — د. أحمد أبوزيد «يوليو ٢٠٠٥»

٦٢- غواية التراث — د. جابر عصفور «أكتوبر ٢٠٠٥»

٦٣ - نبش الغراب «المجموعة الثانية» — محمد مستجاب «يناير ٢٠٠٦»

٦٤- دائرة معارف العرب — جار النبي الحلو-علي سيد أحمد علي «ابريل ٢٠٠٦»

٦٥- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الأول» — مجموعة من الكتاب «يوليو ٢٠٠٦»

٦٦- حوار المشارقة والمغاربة «الجزء الثاني» — مجموعة من الكتاب «أكتوبر ٢٠٠٦»

٦٧- الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي — مجموعة من الكتاب «يناير ٢٠٠٧»

٦٨ - عن الدهشة والألم ٥٠ قصة بأقلام عربية — مجموعة من الكتّاب «ابريل ٢٠٠٧»

٦٩ - المجلات الثقافية مهمة الاصلاح
وسؤال المعرفة (الجزء الأول) — مجموعة من الكتّاب «يوليو ٢٠٠٧»

٧٠ - المجلات الثقافية مهمة الاصلاح
وسؤال المعرفة (الجزء الثاني) — مجموعة من الكتّاب «أكتوبر ٢٠٠٧»

المجلات الثقافية
مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الثاني)

الطبعة الأولى: ١٥/١٠/٢٠٠٧
رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية :
Depository Number: 2007 /40
ردمك ٧- ٢١٩ - ٠ - ٩٩٩٠٦ - ٩٧٨ ISBN 978-99906-0-219-7

هذا الكتاب

يصدر هذا الجزء الثاني من كتاب «المجلات الثقافية .. مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة» كي يكمل ملامح الصورة التي بدأت في الجزء الأول حول الدور الذي تقوم به المطبوعة الثقافية من أجل تعزيز قيم الثقافة العميقة والعمل على تطورها.

وكلاهما حصيلة للندوة المهمة التي أقامتها «العربي» تحت عنوان «المجلات الثقافية ودورها في الإصلاح الثقافي» وشارك فيها نخبة مختارة من المفكرين والكتّاب العرب ورؤساء تحرير عدد من المجلات الثقافية. ويلقي هذا الكتاب الضوء على عدد من المجلات النوعية التي صدرت في أماكن عدة من وطننا العربي، ففي الخليج - برزت أكثر من تجربة كان لها دورها الريادي في عملية الإصلاح الديني والثقافي. وفي المغرب ارتبط دور هذه المجلات بالدفاع عن اللغة والهوية. ثم تطوّرت العديد من هذه المطبوعات لتصبح نوعية، وأميل إلى التخصص لتدافع عن ملمح من ملامح حضارتنا العربية. وسوف يدرك القارئ بعد أن ينتهي من قراءة هذا الكتاب بجزئيه أن الدور الذي قامت به المطبوعات الثقافية لم يكن مقتصرًا على النخبة، ولكنه كان يهدف إلى إيصال رسالته لكل المهتمين بالتنوير والإصلاح.

كتاب العربي
٧٠

المجلات الثقافية .. مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الثاني)

وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت